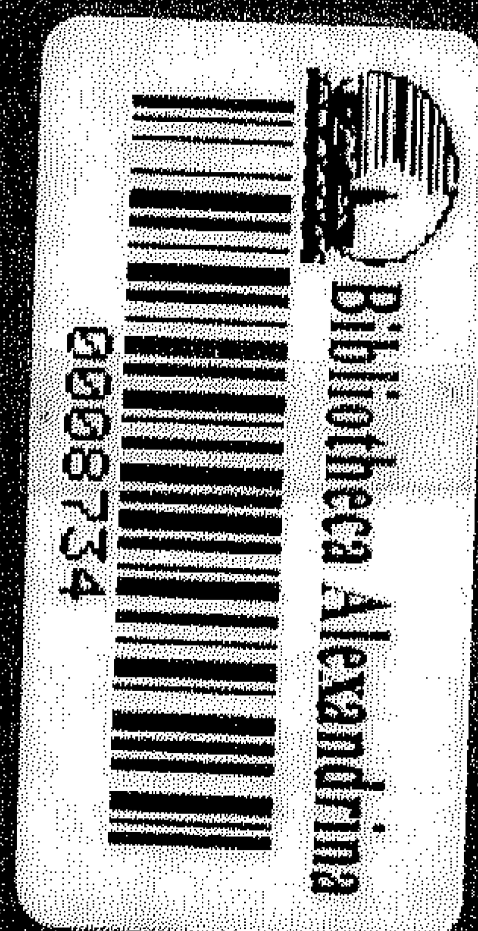
محمّد العزيز ابن عاشور

جامع الزيتونة

المَعلم ورجاله





دار سَراس للنشر

محمّد العزيز ابن عاشور

جامع الزيتونة
المعلم ورجاله

دار سراس للنشر

يسر المؤلف أن يتقدم بجزيل الشكر الى السادة والسيدات الذين تفضلوا فأفادوه بمعارفهم ووثائق وصور مجموعاتهم :

السيدة منيرة الرياحي ، مديرة المعهد القومي للآثار والفنون.
السيدة عائدة محسن، حرم النقاش.

الاساتذة الزملاء:

إبراهيم شبوح، مدير دار الكتب الوطنية.
محمد الشابي، رئيس قسم الآثار والحضارة الاسلامية بالمعهد القومي للآثار والفنون.
حامد العجابي.
محمد الباجي بن مامي.
رشيد غريب .

السـادة :

الشيخ كمال الدين جعيط .
الشيخ محمد البدوي.
المنذر المبزع.
جعفر الصادق محسن.
إبراهيم بن ميلاد.

I.S.B.N. 9973 700 32 5

6، شارع عبد الرحمان عزام — 1002 تونس

مقدمة

لأهل تونس في مسجدهم العتيق جامع الزيتونة إجلال عبّر عليه المؤرخون والأدباء بأفصح ما لديهم من العبارات والتراكيب فهذا محمد بن محمد الأندلسي السراج (المتوفى سنة 1149 هـ 37/1736 م)) يستهل حديثه عن جامع الزيتونة في تاريخه **الحلل السندسية** بالديباجة التالية :

« جامع الزيتونة مسجد إذا بدا لك تبلّج نوره اللامع أيقنت أنه الجامع المفرد والمفرد الجامع روض العبادة ومعبد الرياضة بستان علوم زهر دوحتها الفتح وثمارها الافاضة، بحر بركات شحنت فلكها ببضائع الأسرار وطود عنايات يُقتبس من جانبها نور المدد بالعشيّ والإبكار ما سرح ناظر المؤمن في أثنائه إلّا امتلأ علما من بادرات ثنائه يحاكي بجماله أجمل عروس صيغ لها من معادن الطروس قائد حلق الدروس، تحسب مدرسيها أسود غياض ودوائر تلامذتهم حياضا في رياض، تجد النفس فيه لانقياد الطاعة خير مطاعة لا عيب فيه غير أنه غدا بين أقرانه بمرتبة الصدر واختص بأن يشرح لوارديه الصدر فما ضاق صدر مهموم ودخله الّا انفرج وانفتحت له بلطيف عنايته أبواب الفرج »(1).

وأما ابن أبي دينار (القرن الحادي عشر الهجري) فازداد ابتهاجه بشأن جامع الزيتونة بما قاله العالم المصري محمد بن مصطفى الأزهري إثر زيارته إلى تونس : **« لو سئلت عن ثلاث لأجبت بلا ولو قطع رأسي لو قيل لي هل رأيت أسرّ من جامع الزيتونة لقلت لا وهل رأيت أصلح من الشيخ ابراهيم اللقاني لقلت لا وهل رأيت أكرم من حمودة باشا المرادي لقلت لا »**(2).

ومن الوقائع الدالة على ما يحظى به جامع الزيتونة من الإجلال والتعظيم والحرمة ما ذكره الزركشي من أنه في رمضان سنة 705 هـ (1306) دخل هداج بن عبيد الكعبي أحد زعماء القبائل إلى جامع الزيتونة بخفيه فزجره بعض الناس عن ذلك فقال دخلت والله بهما على السلطان فاستعظم العامة ذلك منه وقاموا عليه وقتلوه بالجامع ثم جرّوه في طرق تونس(3).

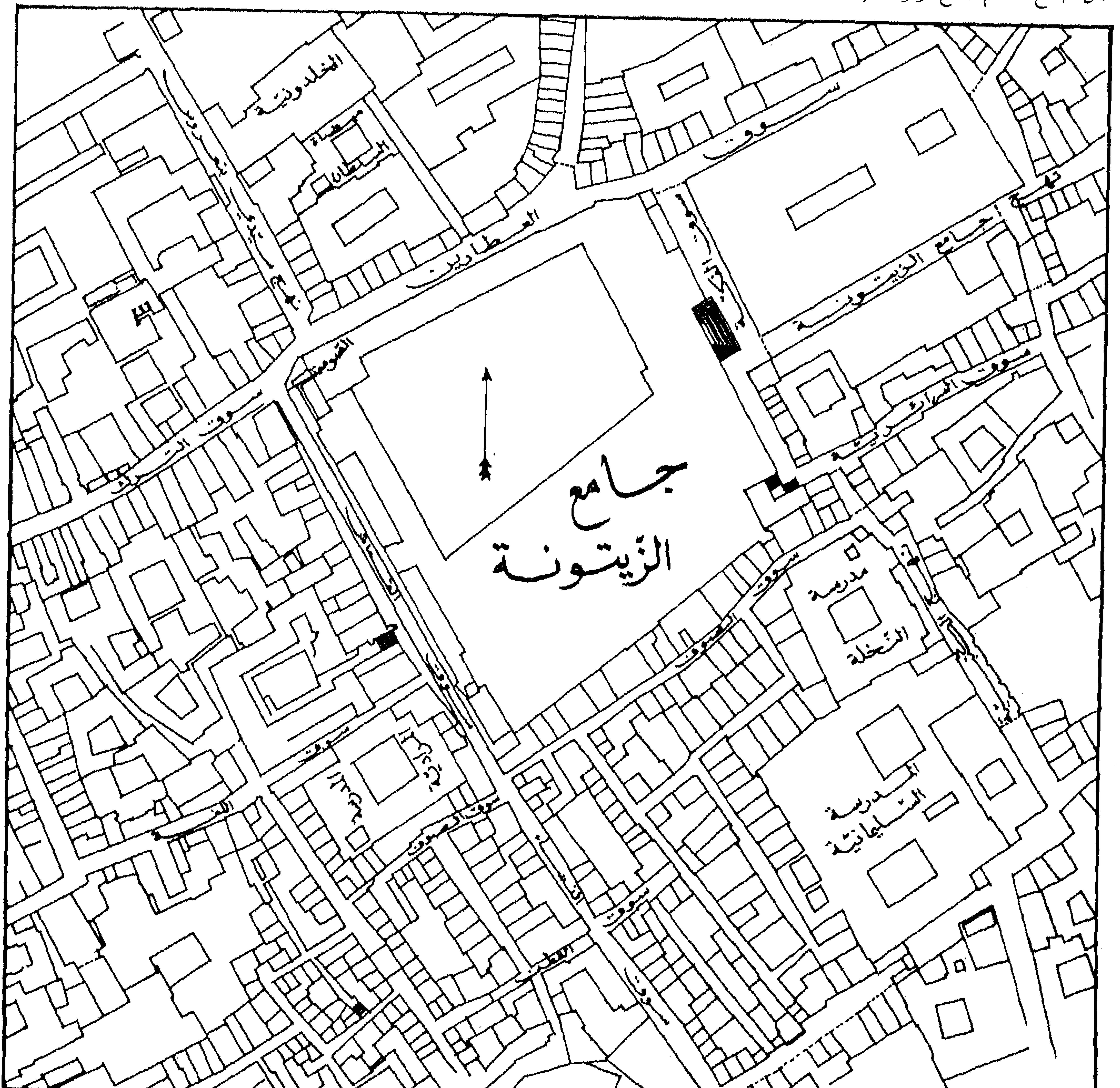
أما فيما يخص بركة الجامع وفضائله وأسراره فالأخبار المتواترة على ألسنة الناس جيلا بعد جيل كثيرة نذكر منها ما يروى في شأن المواضع التي يستجاب فيها الدعاء وهي أحد عشر موضعا منها الخلوة التي تحت الميزاب المحاذية للصومعة ومنها الركن الغربي لبيت الصلاة عند الصف الأول المعروف عند الناس بركن الخضر ومنها الركن الذي يقابله من جهة الشرق وينسب للشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني وما بين حافتي المحراب والسارية المرمر الحمراء التي تقابل الختمة والمكان الذي يروى به البخاري وهو المعروف بباب الشفاء وسارية زرقاء يغلب بياضها على زرقتها من جهة الباب الشرقي لبيت الصلاة وتنسب للشيخ سيدي محرز بن خلف

1) **الحلل السندسية في الأخبار التونسية** : المجلد الأول من الطبعة التي اشرف عليها وحققها الدكتور محمد الحبيب الهيلة بيروت 1984 ص 551.

2) ابن أبي دينار : **كتاب المؤنس في اخبار افريقية وتونس**، الطبعة الأولى 1986 ص 15.

3) الزركشي : **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، الطبعة الأولى تونس 1289 ص 24 — 25.

مثال الجامع الأعظم جامع الزيتونة : (حسب قلفان)



ومنها المسكبة الأولى تحت نخلة النحاس التي في السقف من جهة المنبر ورخامة عند باب البهو تحت الرواق بها صورة قربة (يقال إنّ الولي العالم سيدي أحمد السقا كان يجلس بهذا الباب فرمى بقربته بصحن الجامع فبقي اثرها) ومنها محل في الرواق الغربي بصحن الجامع وخلوة السيد الخضر بالصومعة (القديمة التي هدمت في أواخر القرن الميلادي الماضي)[4].

ومن المتواتر أيضا أن جامع الزيتونة لا يخلو من رجل صالح في كل زمان : ذكرنا آنفا السارية المنسوبة إلى سيدي محرز (المتوفى في 413 هـ 1022 م) كما تسمّى الدكّانة الكائنة في الركن الشرقي الشمالي لبيت الصلاة بدكانة الولي الصالح سيدي منصور بن جردان (المتوفى في 904 هـ ــ 1498 م) ومن الصالحين الملازمين لجامع الزيتونة الولي المجذوب سيدي علي محسن المتوفى سنة 1298 ــ 1840. وكان جلوسه بالمكان المنسوب لسيدي منصور[5]. ونقل الوزير السراج قصة مشهورة بتونس وهي أنّ صبيا صغيرا ملتوي الرجلين ظهرهما يلي الأرض لعب مع الصبيان بجامع الزيتونة ثم جلس يبكي في جهة من الصحن فأتاه رجل فسأله ما يبكيك فشكا له بحال رجليه وأن الصبيان استطالوا عليه فقال له أرنيهما فأراه فمسح عليهما فبرىء وقام من حينه يلعب[6].

ومن أغرب الأساطير المتعلقة بأسرار جامع الزيتونة تلك التي تنص على الصلة المتينة بين هذا الجامع والنبي الخضر عليه السلام، قال أحد الشيوخ الصالحين إن الخضر يحضر كل يوم في المقصورة الشرقية في أول قراءة حزب السبع فإذا كثر الناس قام. أما الوزير السراج فيذكر أنه رأى الخضر عليه السلام وهو جالس في الركن المعروف باسمه[7].

أمّا الدويرة المعدة للإمام الملاصقة لبيت الصلاة والمعروفة اليوم بمقصورة الإمام ففي أصلها والتحاقها بالجامع أسطورة أيضا ربما فيها شيء من الواقع : يقال أن امرأة يهودية أو نصرانية أسلمت وحسن إسلامها فتبرعت بدار سكناها المحاذية للجامع وهي المعروفة بدويرة أو مقصورة الإمام، والمتعارف عند العامة أن هاته المرأة اسمها « للّة زيتونة ».

---

4) **الحلل السندسية** المجلد الأول ص 557.

5) محمد ابن الخوجة : **معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**. الطبعة الأولى تونس 1939 الطبعة الثانية بيروت 1985 ص 78 (وهي المعتمدة في هذه الدراسة).حول سيدي منصور : انظر **الحلل** المجلد الثاني ص 202 وغيرها.

6) **الحلل** المجلد الأول ص 554.

7) **الحلل** : المجلد الأول ص 552.



الجامع في محيطه الطبيعي

القسم الأول

تاريخ جامع الزيتونة المعماري

1) جامع الزيتونة في عهد الولاة

جامع الزيتونة هو ثاني الجوامع التي رفعت بافريقية لإعلاء كلمة الله بعد جامع عقبة بن نافع بالقيروان. إلّا أنّ المؤرخين اختلفوا في تاريخ تأسيسه وفي الآمر بتشييده فبينما نسب الكثير منهم تأسيس جامع الزيتونة إلى عبيد الله بن الحبحاب الذي سمّاه هشام بن عبد الملك الأموي واليًا على إفريقية في سنة 110 (728 — 729) وقيل سنة 116 (734)[1] ذهب آخرون إلى انتساب إنشاء الجامع إلى حسان بن النعمان الغساني فاتح تونس وقرطاجنة في حدود سنة 79 (698 — 699). ومازال هذا الاختلاف قائما إلى اليوم نظرا لعدم العثور على أثر أو نقيشة تكون حجة قاطعة بين أيدينا. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عبارة « أعلم » المنقوشة في أعلى أحد أعمدة بيت الصلاة والتي توافق جملة أحرفها رقم 141 نقيشة مزيفة باتفاق علماء الآثار لعدم مطابقة رسمها وشكلها مع الأساليب المستعملة وقتئذ[2] فلا يجوز حينئذ اعتمادها في ضبط تاريخ جامع الزيتونة بخلاف ما فعله بعض المتأخرين من المولعين بالتاريخ.

فالمؤرخ مضطر اليوم إلى الاعتماد على العقل والالتجاء إلى الاستنباط والافتراضات والظاهر أن رأي الذين ينسبون تأسيس الجامع الى حسّان بن النعمان هو الأرجح لأن فتح مدينة تونس تم سنة 79 وابن الحبحاب لم يقدم اليها إلّا في سنة 110 على أقل تقدير إن لم يكن ذلك في سنة 116. فلا يعقل كما قال ابن أبي دينار القيرواني ومحمد ابن الخوجة[3] أن جماعة المسلمين لم يكن لديهم مسجد جامع للصلوات فيما بين قدوم حسان وولاية عبيد الله بن الحبحاب. أما دور هذا الأخير فيكون قد تمثل في إتمام عمارة الجامع والزيادة في ضخامته وربما في طاقته الدفاعية اذ كان جامع الزيتونة مشرفا على البحر المسيطر عليه وقتئذ أسطول الروم. ولعل ابن الحبحاب استعان في هذا العمل بخبرة الفنيين الأقباط الذين أرسلهم إليه والي مصر بإذن من عبد الملك بن مروان قصد بناء دار الصناعة[4] كما يُفترض أيضا أن حسانا ربما اقتصر على اتخاذ معلم مسيحي وجعله مسجدا للمسلمين بعد تغييرات طفيفة بينما قام ابن الحبحاب بإعادة بنائه في نفس الموقع. وقد أكد العالم الأثري الفرنسي قوكلار في محاضرة ألقاها سنة 1907 أنه رأى بنفسه بقايا آثار لكنيسة مسيحية عندما هدّمت مئذنة جامع الزيتونة القديمة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي[5].

---

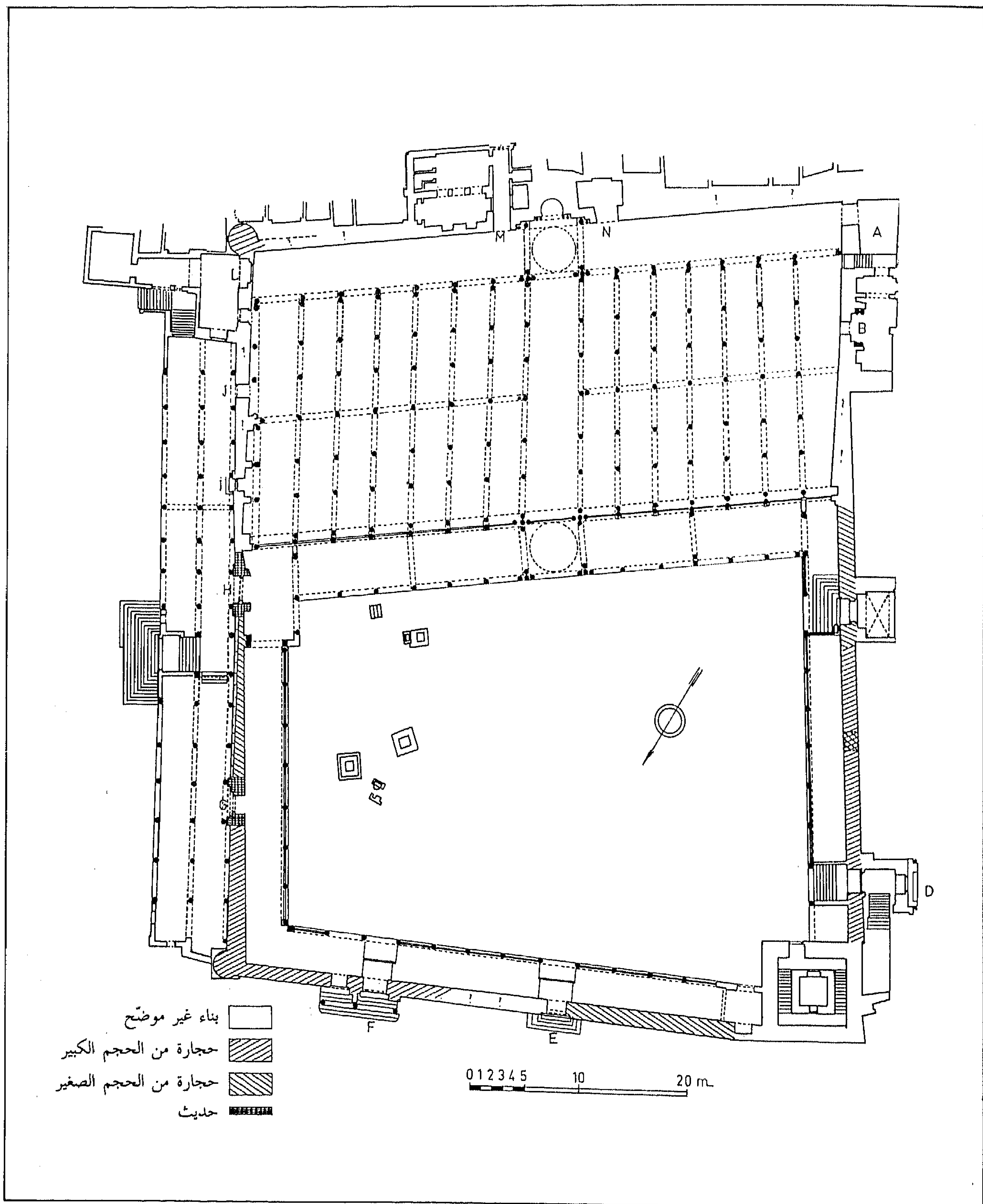
1) ابن أبي دينار : **كتاب المؤنس في اخبار افريقية وتونس.** تونس 1286 ص 31 و 38 — 39.
ابن أبي الضياف : **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان** : الجزء 1، ص 90.

2) سليمان مصطفى زبيس : **ديوان النقائش العربية الموجودة في المملكة التونسية** 1374 — 1955 ص 40 — 41.

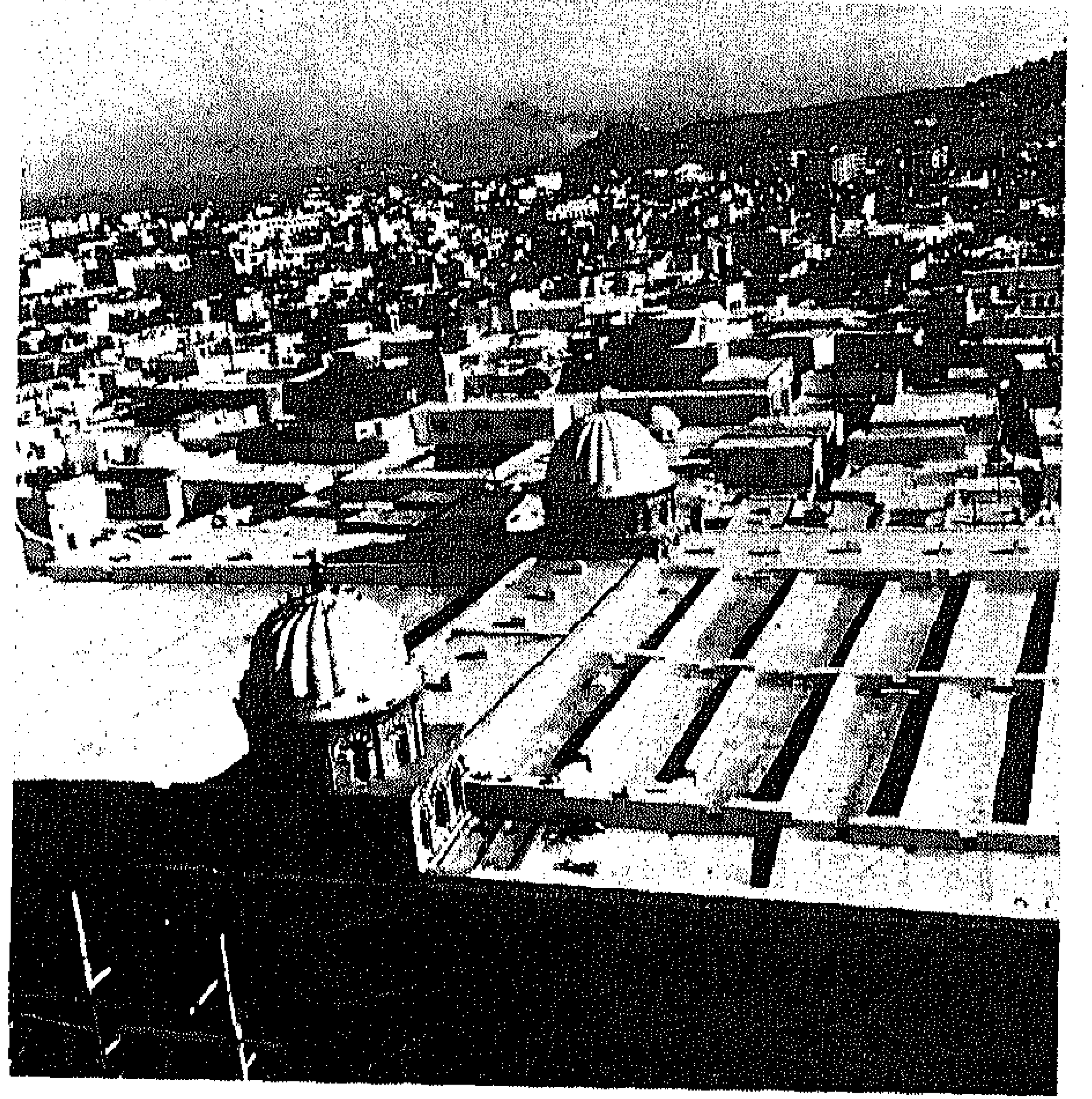
3) **معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**، ابن أبي دينار: **المؤنس ص 14**، **وكرسوال** (Creswell) **Early Muslim Architecture**, pp. 321-325. II, 1932

4) البكري : **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (المسالك والممالك)** طبعة دي سلان الجزائر 1911 ص 38.

5) قوكلار (Gauckler) «Les thermes de Gebamund à Tunis» **CRAI**, 1907.


A
B
D
E
F
G
H
J
L
M
N
بناء غير موضّح
حجارة من الحجم الكبير
حجارة من الحجم الصغير
حديث
0 1 2 3 4 5
10
20 m

سطح بيت الصلاة



أما فيما يخص تسميته بجامع الزيتونة فالروايات تختلف أيضا : منها أن الجامع بني في موضع كان مشجرا بالزياتين قطعت كلها ولم تبق إلّا زيتونة واحدة في وسط ساحة الجامع فسمي بها. ومنها أن المسلمين عند فتحهم لقرطاجنة وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد فقالوا هذه تونس وسمي المسجد بجامع الزيتونة وتزعم رواية مسيحية أن الجامع شيد بالقرب من كنيسة قديمة كانت تضم رفات القديسة « أوليف » يعني الزيتونة فمنها جاءت تسمية الجامع الأعظم بجامع الزيتونة(6) . كما أننا لا نملك معلومات فيما إذا أطلق هذا الاسم على الجامع منذ تأسيسه أو بعد إنشائه.

والأمر المتفق عليه هو ما قام به أمراء الدولة الأغلبية في القرن الثالث الهجري (القرن التاسع للميلاد) من تضخيم الجامع وتوسيعه وتحسين هندسته وزخرفته ومرافقه بدرجة جعلت هاته الأعمال بمثابة إعادة تامة لبناية الجامع الأصلية.

2) جامع الزيتونة في العهد الأغلبي

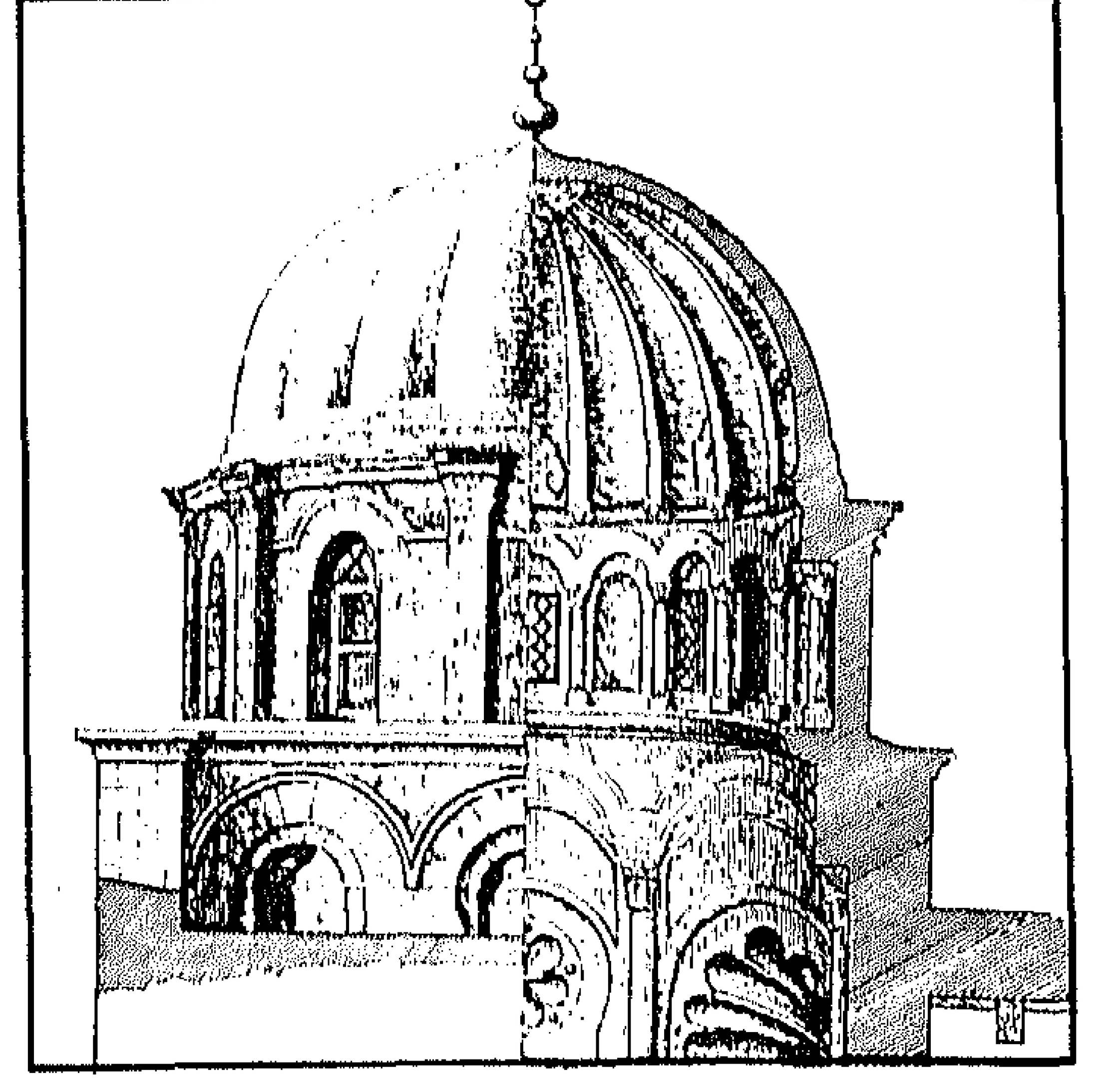
(184 — 296 هـ/800 — 909 م)

اعتنى الأغالبة بجامع الزيتونة اعتناء يضاهي اعتناءهم بجامع عاصمتهم القيروان ويظهر أن من أسباب هذا الاعتناء ما أشارت إليه الدكتورة ليلى الصباغ [7] قائلة : « **وقد يكون لازدياد أهمية مدينة تونس ثغرا للمجاهدين في عهد الأغالبة أثره في الاهتمام بمسجدها ومحاكاته بجامع القيروان** » ولعل هناك سببا آخر

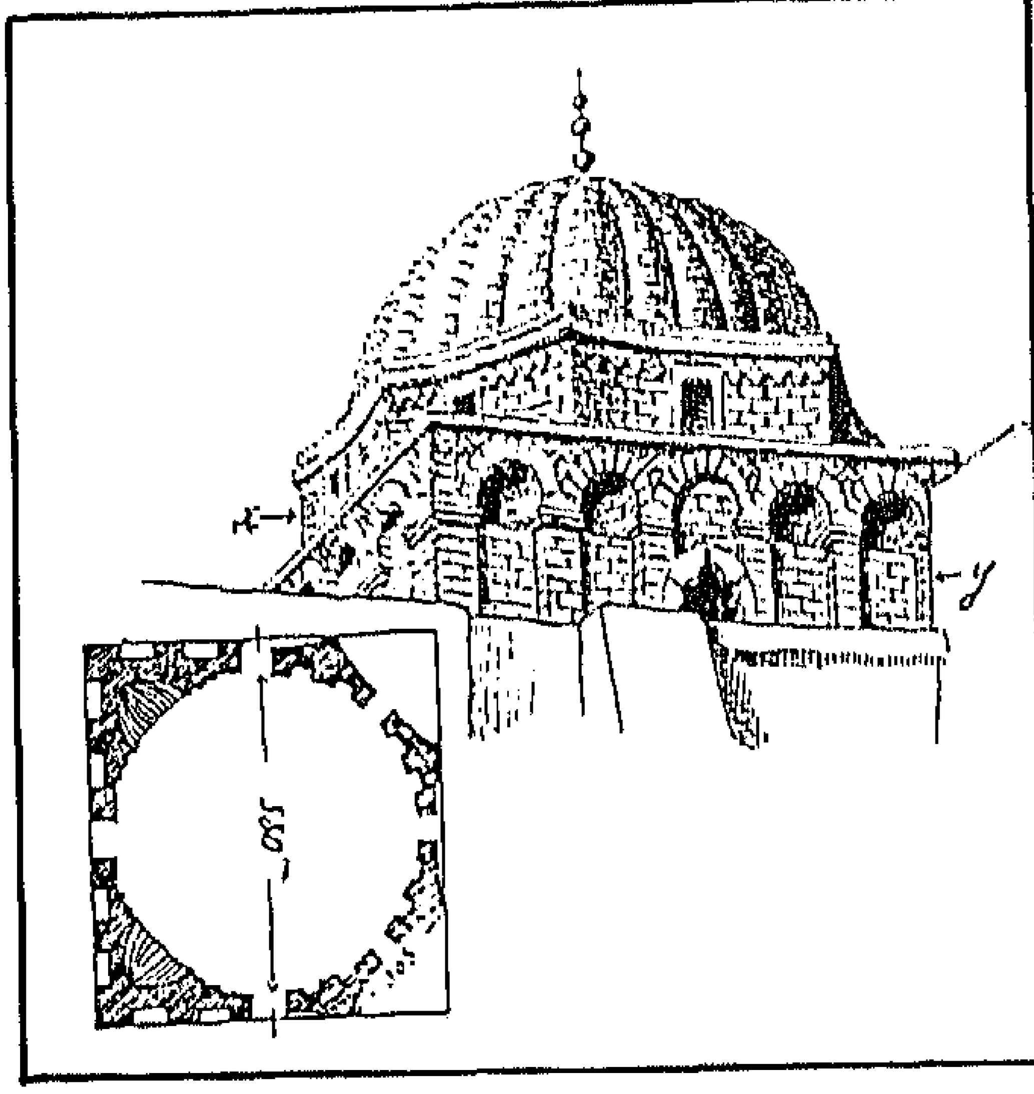
---

6) برنشفيك : « **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** » (ترجمة حمادي الساحلي) الجزء 1، ص 371 عبد العزيز الدولاتلي **مدينة تونس في العهد الحفصي**، تونس 1976.

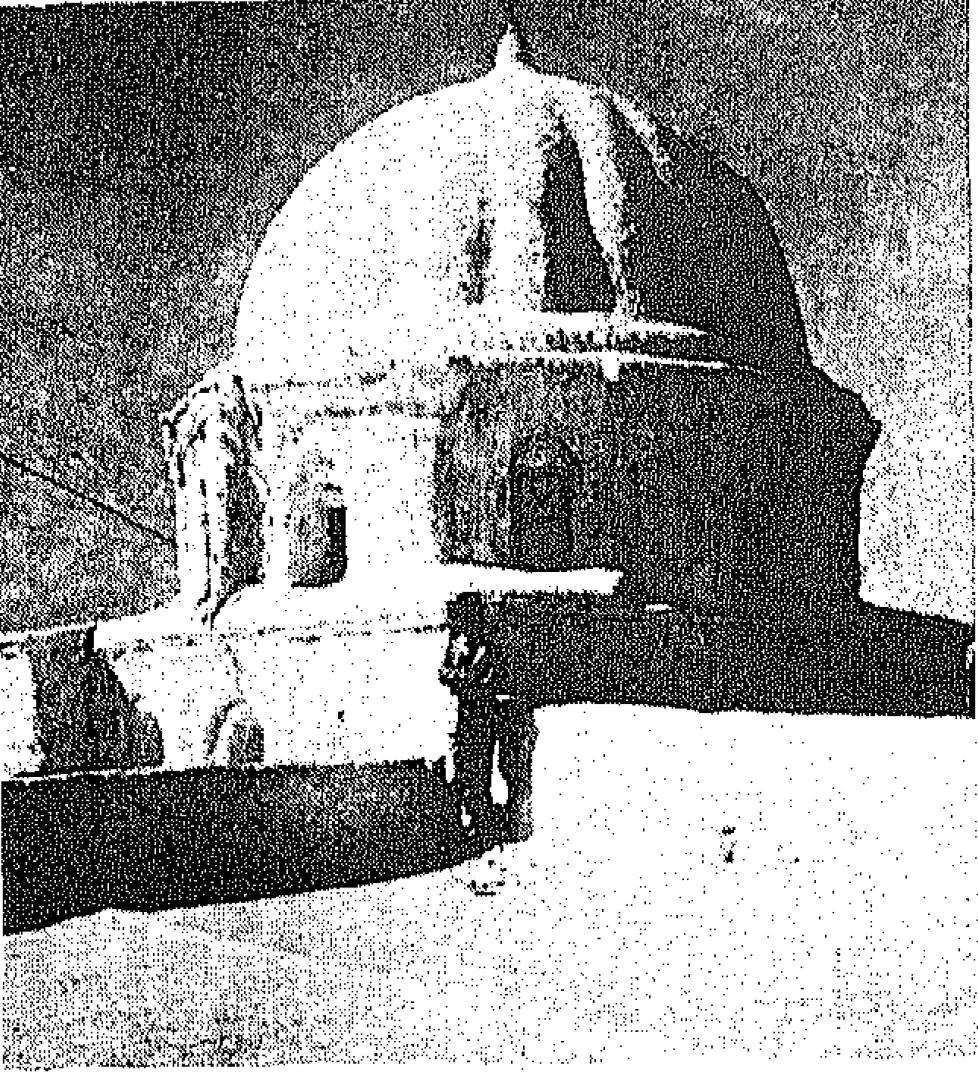
7) ليلى الصباغ « بين جامع الزيتونة وجامع بني أمية في دمشق » **ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس الزيتونة**، تونس 1400 — 1979.



قبة المحراب ـــ مقطع (حسب قلفان)



جامع القيروان. قبة المحراب (حسب قلفان)



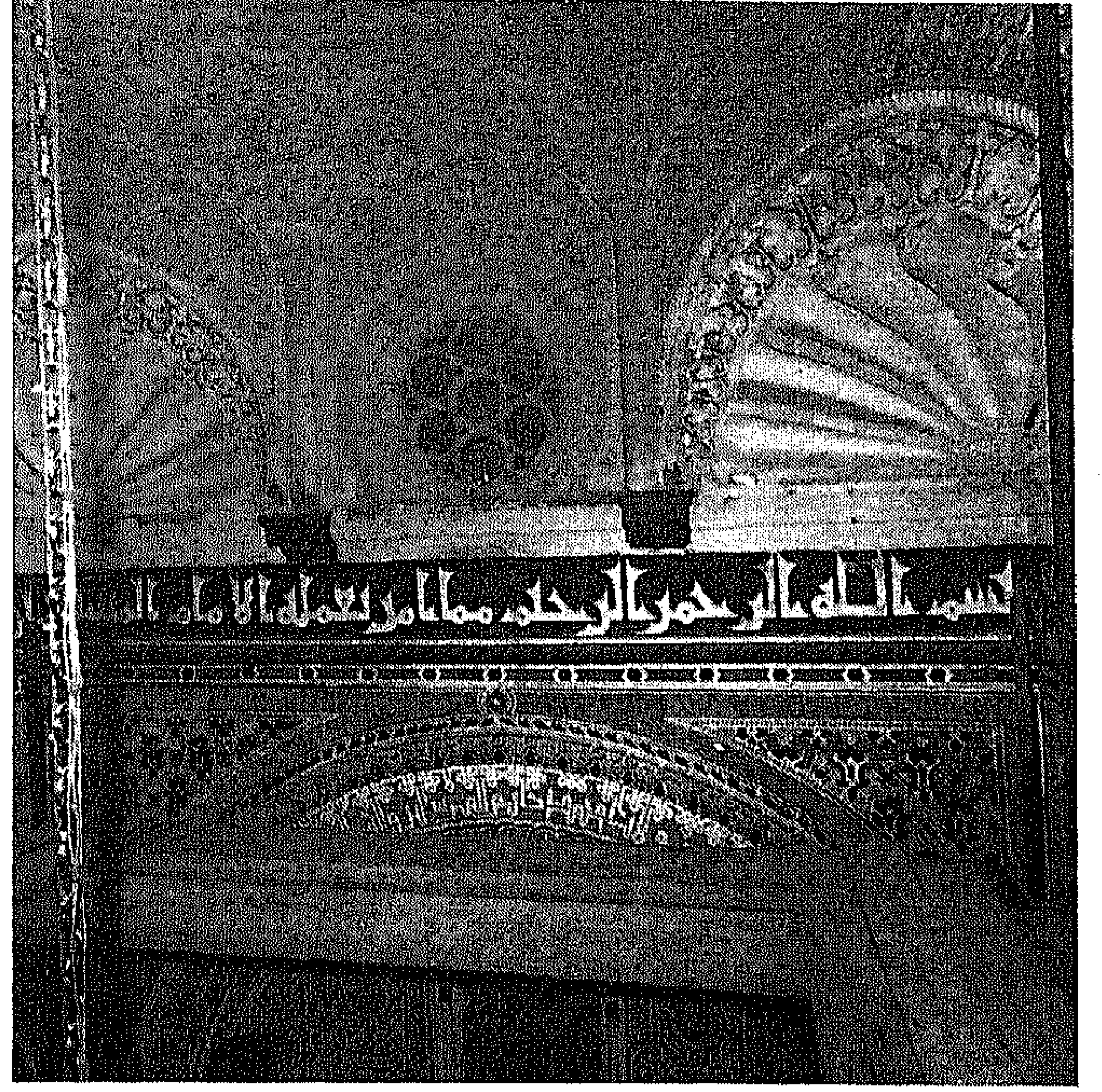
منظر خارجي لقبة المحراب
قبل ترميم سنة 1359 ـــ 1938

في صرف همة الأغالبة إلى جامع الزيتونة وهو سبب سياسي لنيل رضا أهل تونس من خلال الاهتمام بمسجد بلدهم إذ كانوا اشدّاء على الأغالبة سريعي الانتفاضة على نظامهم. كل ذلك بالاضافة إلى ما اشتهر به أمراء الدولة الأغلبية من الإسهام الجسيم في عمران افريقية وإنشاء المعالم الدينية في مدنها.

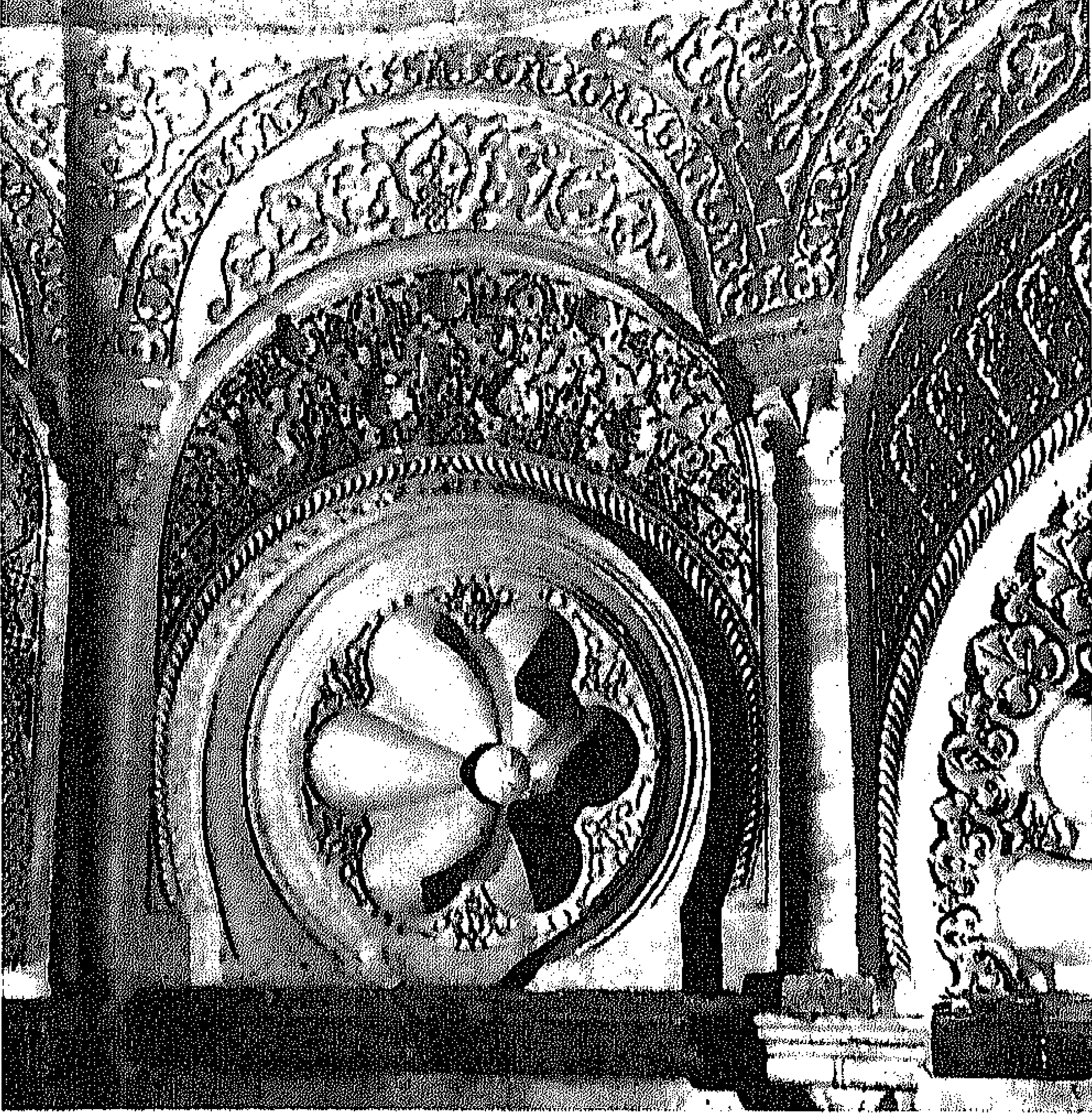
وقد اكتسى جامع الزيتونة بفضل الأشغال الأغلبية عناصر يتميز بها إلى اليوم. وتتمثل أهم هذه العناصر في بيت صلاة على شكل مربع غير منتظم، معمدة، تحتوي على خمسة عشر مسكبة منها مسكبة وسطى عرضها 4،8 م عوضا عن ثلاثة أمتار لبقية المسكبات وسبع بلاطات عريضة. وتمسح بيت الصلاة 1344 مترا مربعا

قبة المحراب وجزء من النقيشة الأغلبية





نقوش وكتابات قبة المحراب قبل الترميم



زخارف قبة المحراب بعد الترميم

(56 × 24 م) فهي أصغر من بيت الصلاة بجامع عقبة التي تحتوي على سبعة عشر مسكبة ومساحتها 2310 مترا مربعا. وهي مغطّاة بسقوف منبسطة. ويوجد أمام بيت الصلاة صحن بدون أروقة مسيّج بجدران مدعمة في الركنين الجنوبي ــ الشرقي والشمالي ــ الشرقي ببرجين سنتحدث عنهما بعد حين.

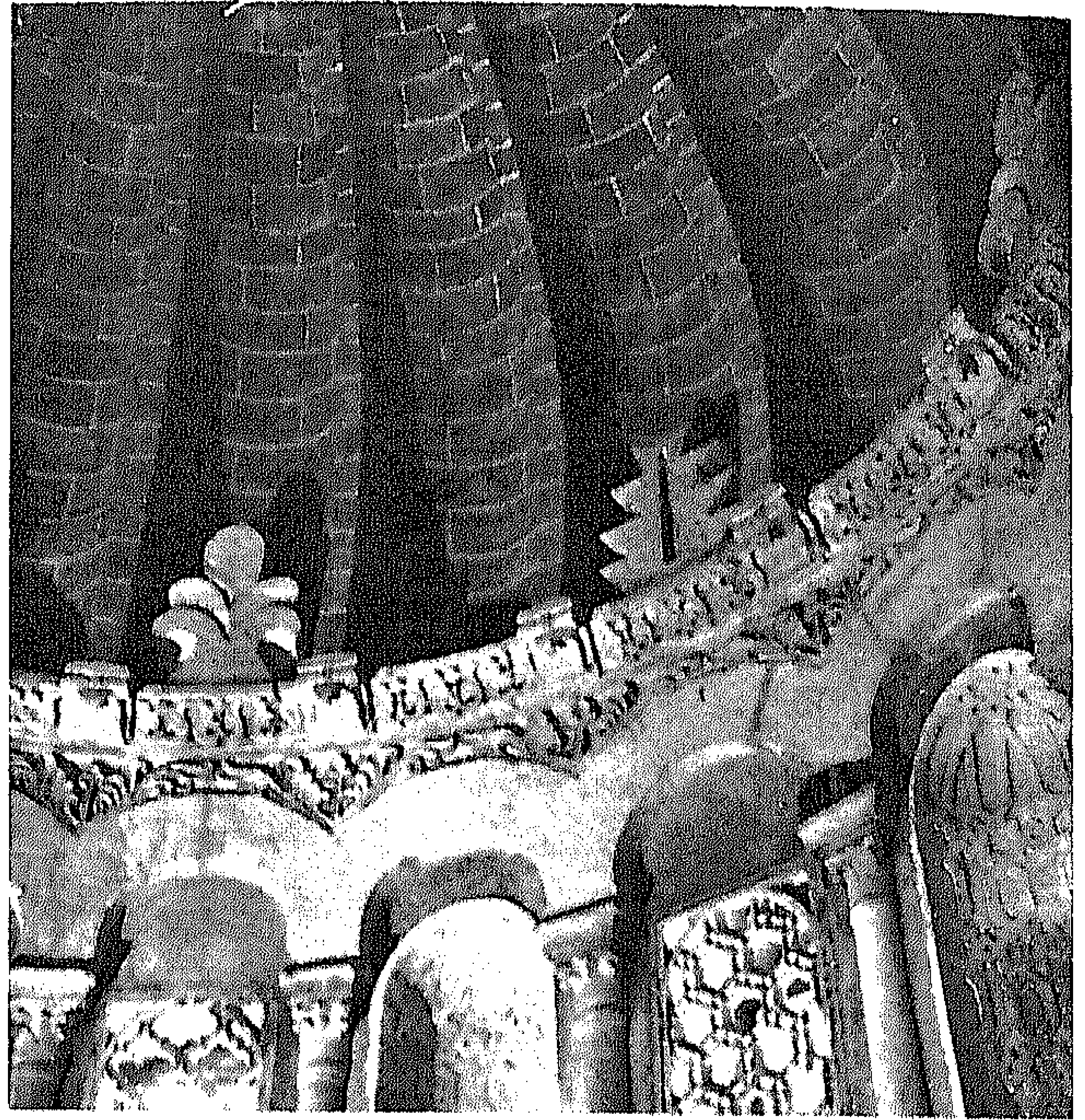
وكان جامع الزيتونة يحتوي في العهد الأغلبي على ستة أبواب. يقول الأستاذ كرسوال إن جامع الزيتونة هو ثالث جوامع الغرب الاسلامي التي لا يحتوي صحنها على أروقة بعد جامع قرطبة (170 هـ / 786 ــ 787 م) وجامع القيروان (221 هـ 836)[7 مكرر].

وقد اعتمد أساسا على الحجارة في بناء جامع الزيتونة مع استعمال الطوب في بعض الأماكن مثل الحائط الغربي لبيت الصلاة وجزء من الضلع الجنوبي على يمين المحراب.

أ) **سقوف الجامع** : سقف بيت الصلاة منبسط على شكل سطح في قسمه الخارجي ومغطى من الداخل بسقفية خشبية ذات عوارض ظاهرة، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ سقف بيت الصلاة وقع تجديده مرارا بعد العهد الأغلبي. أما جهة المحراب فتتميز عن بقية البيت بوجود قبة بديعة مقتبس شكلها من قبة جامع القيروان مع بعض التعديلات.

ب) **قبة المحراب** : تتركب هذه القبة في قسمها الخارجي من ثلاثة أجزاء : قاعدة مربعة معتلية بإفريز بارزة ومحتوية على زخرفة ذات محارب صغيرة وأشكال مقوسة على الواجهات الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية. أما الجانب الشمالي فلا زخرفة فيه ويختلف هذا الجزء من قبة محراب جامع الزيتونة عن نظيره بقبة جامع القيروان الذي هو متكون من رقبة مثمنة. أمّا الجزء الثاني المرتكز على القاعدة المربعة فشكله أسطواني مزخرف بعشر أعمدة مستطيلة نابتة بعض الشيء من الأسطوانة وعليها تيجان ذات صفين مورقين ويحتوي هذا الجزء على عشر نوافذ متوجة بأقواس من الشكل المنفوخ وفوق هذا الجزء الأسطواني غشاء نصف كروي مضلع.

7 مكرر) : كرسوال : **المصدر المذكور**، ص 325.



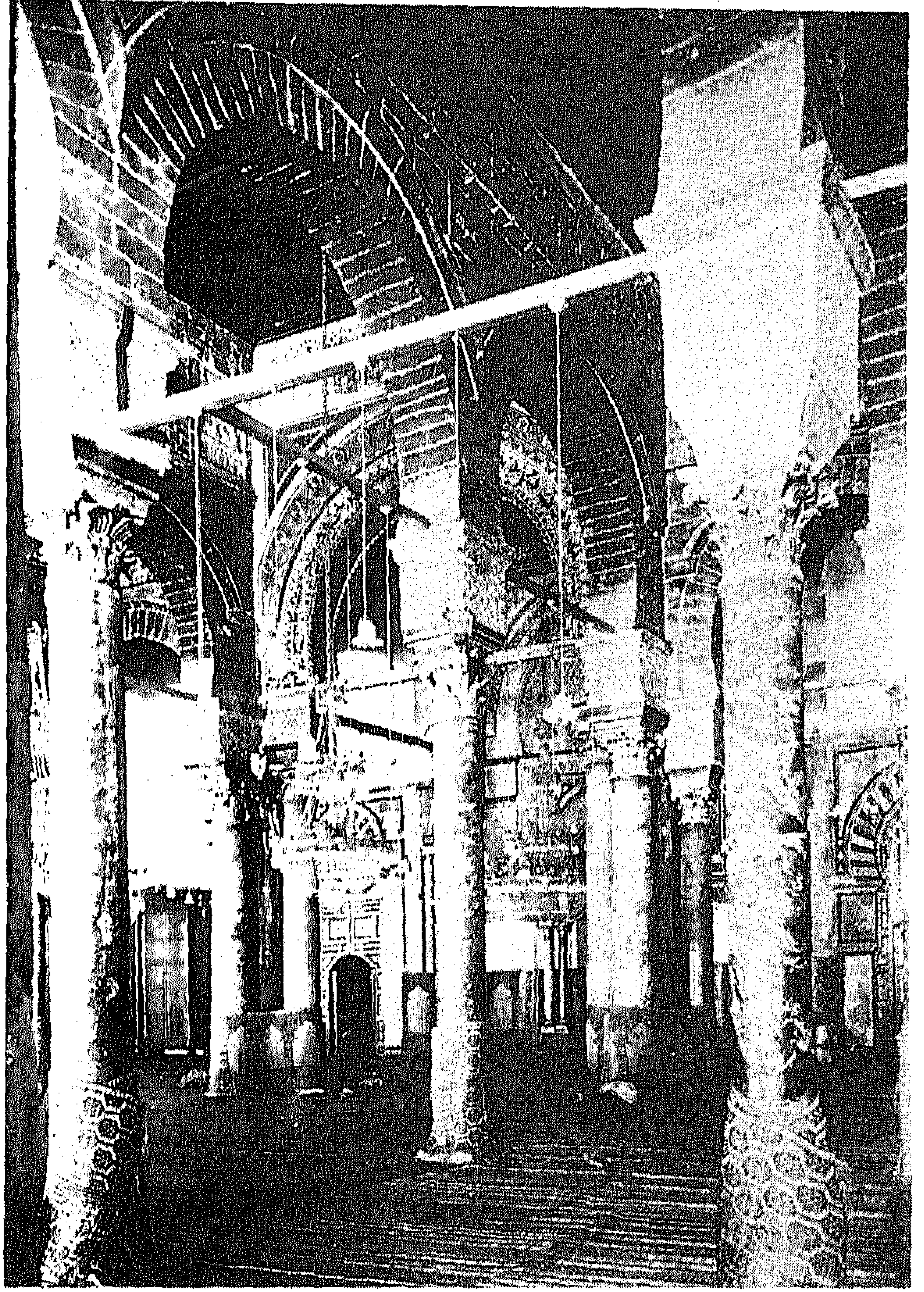
جزء من قبة المحراب

وهذه القبة مبنية بحجارة الحرش الرملية مرصفة ترصيفا متقونا. أما من الداخل فقد تقوم قبة المحراب على حائط القبلة (وهو في الواقع قوس قد رفع في داخله حائط يحتوي على المحراب) وعلى ثلاثة أقواس مرتكزة على أعمدة جمعت في مجموعتين تتألف كل واحدة منهما من خمسة أعمدة في الجهة المقابلة لحائط المحراب وهذه القبة تتألف من هيكل مربع به كتابة مؤرخة لبنائها بالخط الكوفي. وفي أعلى كل ركن من هذا الهيكل جسر في صورة قوس يقوم على أعمدة ووراءه محارة أضلاعها متفرعة من الداخل إلى الخارج وبين المحارة والتي تليها قوس مطموس ببناء غائر قليلا فتحت في وسطه نافذة مستديرة. أمّا الرقبة المستديرة فهي تحتوي، كما ذكرنا على عشر نوافذ ومحاريب صغيرة يفصل بين النوافذ والمحاريب الموزعة بالتناوب أعمدة ذات تيجان تحمل أقواسا حجرية متسلسلة. أمّا الجزء الأعلى فيتألف من غشاء نصف كروي به عشرون ضلعا متفرعة مجوفة (بينما تحتوي قبة جامع القيروان على 24 ضلعا). وفيما يتعلق بزخرفة هذه القبة في قسمها الداخلي يقول الأستاذ مصطفى سليمان زبيس « **أمّا داخل القبة فهو (...) كما شهدناه بالخصوص في قبة المحراب بجامع القيروان إلّا أن في تونس قد تكلف الصانع في زخرفة كامل المساحة الظاهرة في الطوابق الثلاثة بزخارف بالغة في الدقة فهي الأنموذج الفريد الموجود من نوعه جاء فيه لأوّل مرّة في العمارة الاسلامية في عصورها الأولى التكلف بتلوين حجارة البناء ووضعها بالاختلاف بعضها الى جانب بعض** »[8].

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى الملاحظات التي أبداها الأستاذ الفرنسي لوسيان قلفان (Lucien Golvin) بشأن تاريخ تطور هذه القبة حيث يعتقد هذاالأستاذ انطلاقا مما شهده من فوق سطح بيت الصلاة أن قبة المحراب تعرضت في القرن الموالي إلى بنائها، يعني القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي)، إلى ترميمات ترتب عنها تغييرات في شكلها الأصلي. ويعتمد في ذلك على : 1) الشكل الأسطواني للجزء المتوسط للقبة بينما هذا الجزء في القباب الأغلبية الأخرى (جامع القيروان وجامع سوسة) يكتسي شكلا منجما (Polygonal) 2) تيجان الأعمدة العشرة الموجودة على وجه الأسطوانة لا نظير لها

---

8) **القباب التونسية في تطورها**، تونس 1959 ص 18.

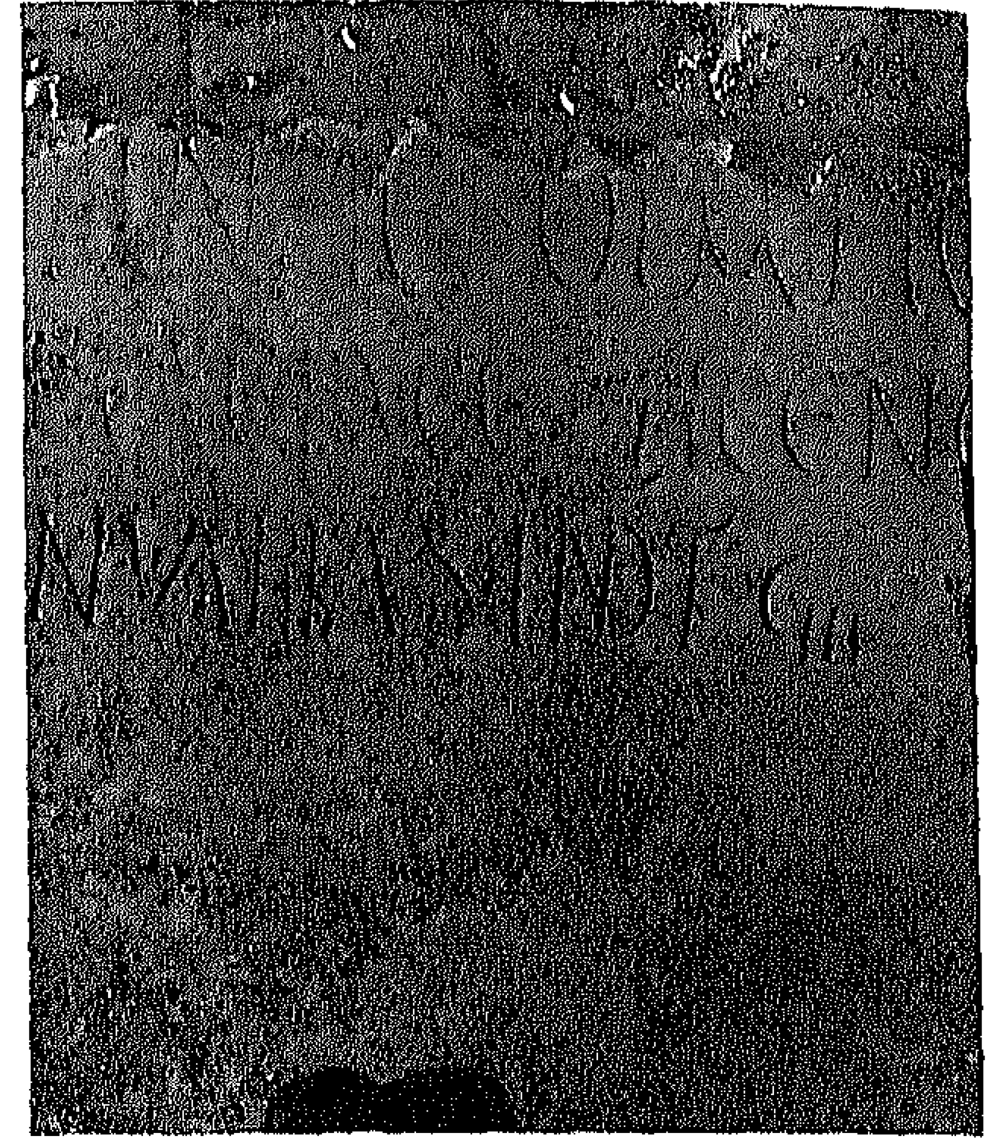


جانب من بيت الصلاة

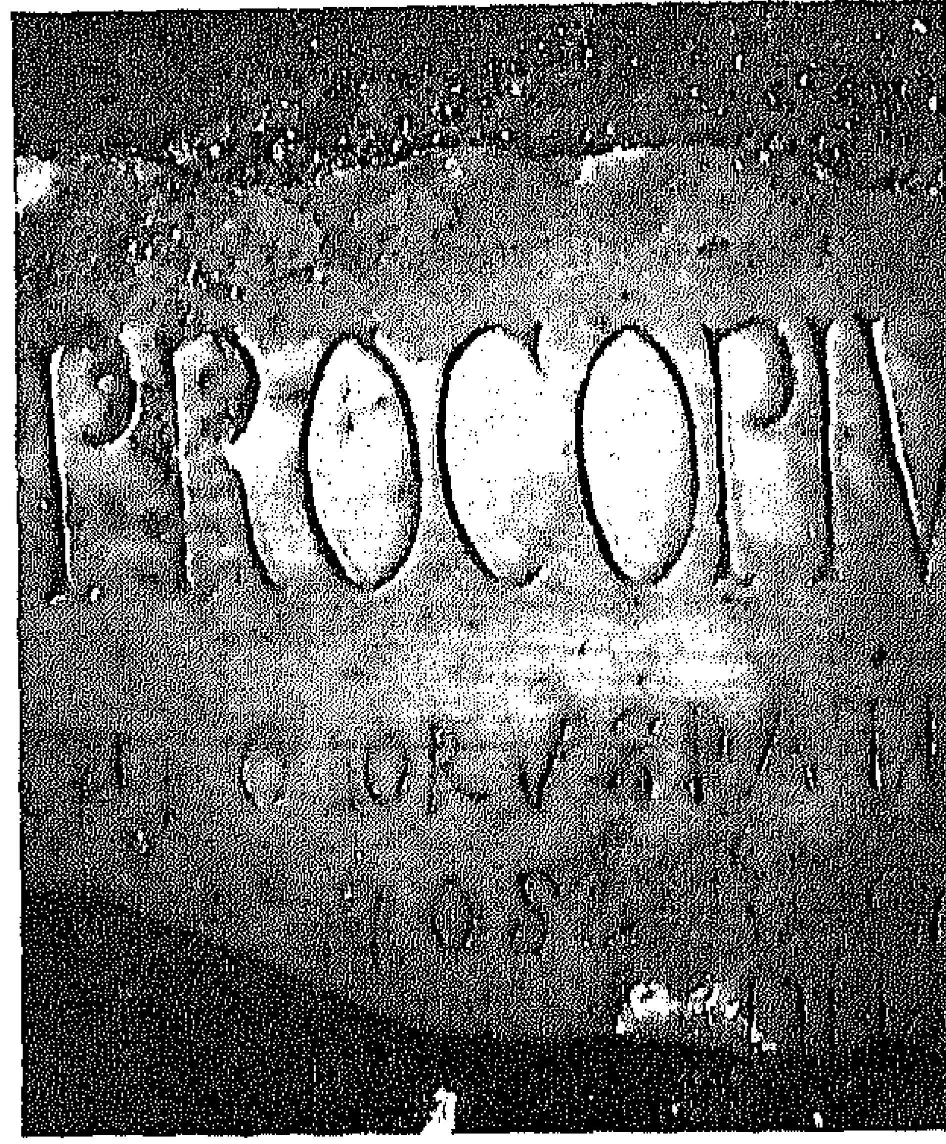
في القباب الأغلبية الأخرى 3) الغشاء نصف الكروي المضلع لا يرتكز مباشرة على الطابق الذي تحته مثل ما هو الشأن في قبة جامع القيروان وإنما يفصل بينه وبين الجزء الاسطواني حزامان حجريان بارزان(9).

إلّا أنّا لا نوافق الأستاذ قلفان فيما ذهب إليه من الاستنتاجات التي تستنقص قيمة قبة محراب جامع الزيتونة في تاريخ الفن المعماري الاسلامي لأن ترميمها في القرن الرابع الهجري — زيادة على كونه أمرا مفترضا لا يعتمد على أدلّة قاطعة — لم يشمل إلّا قسمها الخارجي أما قسمها الداخلي فقد حافظ على تصميمه الأغلبي الأصلي باعتراف الباحث المذكور نفسه، وأمّا فيما يتعلق بالأشكال التي انفردت بها قبة محراب جامع الزيتونة على شقيقاتها الأغلبية فذلك لا يقوم دليلا قاطعا على وقوع تغييرات في القرن الرابع وربّما دلت على وجود مدرسة فنيّة ومعمارية خاصة بمدينة تونس ظهرت في العهد الأغلبي وامتد تأثيرها في العهد الموالي، تأثيرا تجسم في هندسة وأشكال قبة البهو الفاطمية.

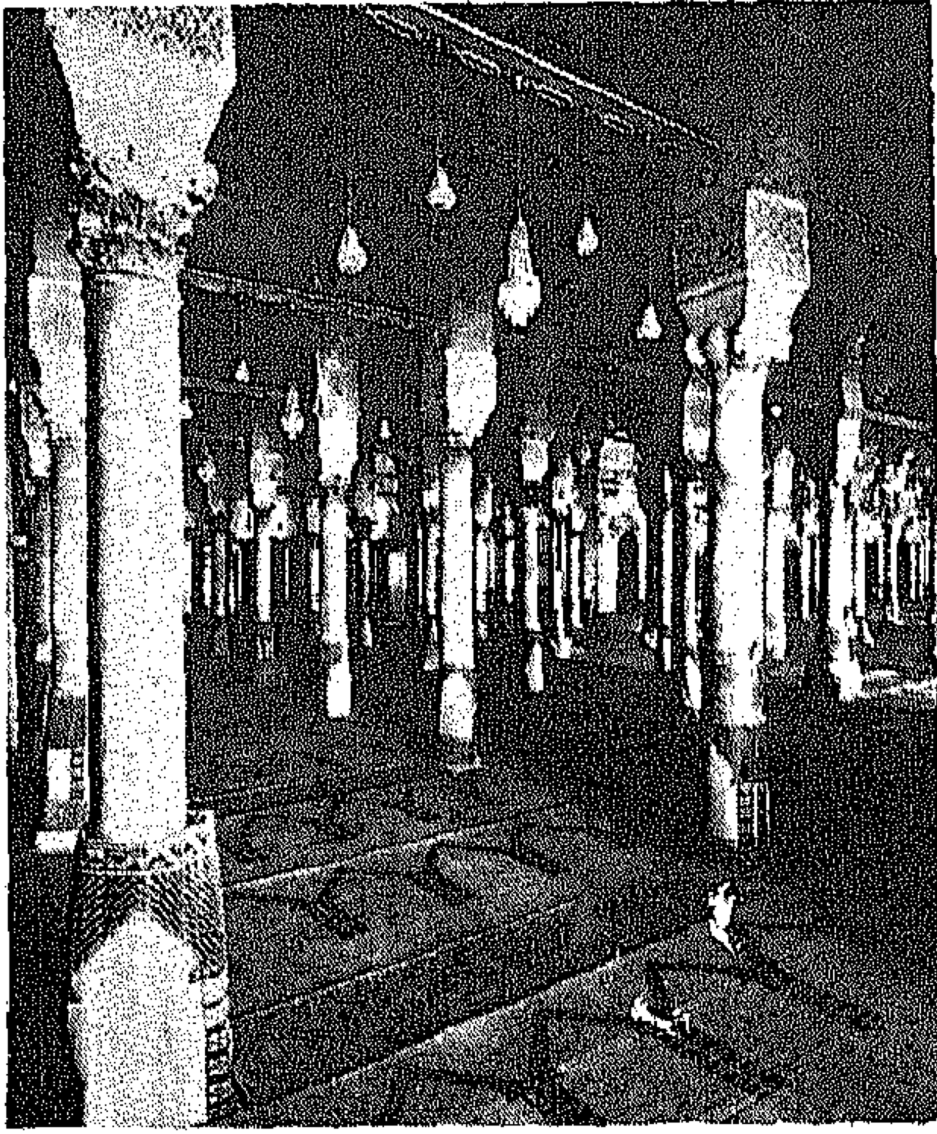
(9 Lucien GOLVIN: «Notes sur les coupoles de la Grande Mosquée Al Zaytouna de Tunis» **R.O.M.M.**, 2e sem. 1966, p. 99.



كتابة يونانية ولاتينية عثر عنها أثناء ترميم الصحن (القرن السادس والسابع م.)



قطعة حجر بها كتابة لاتينية عثر عنها تحت الرواق الشمالي الغربي جوفي بيت الصلاة قرب باب الشفاء



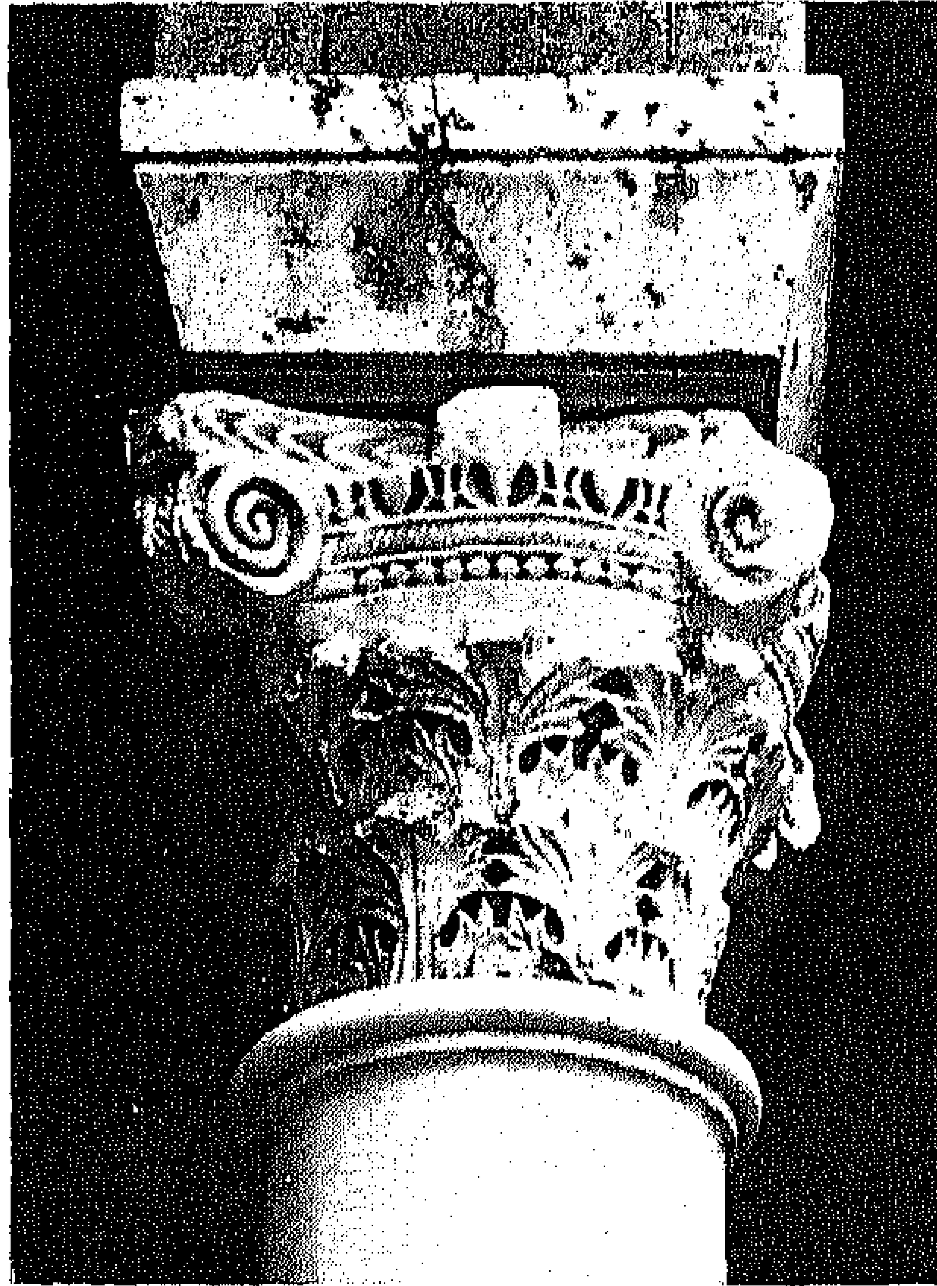
بيت الصلاة



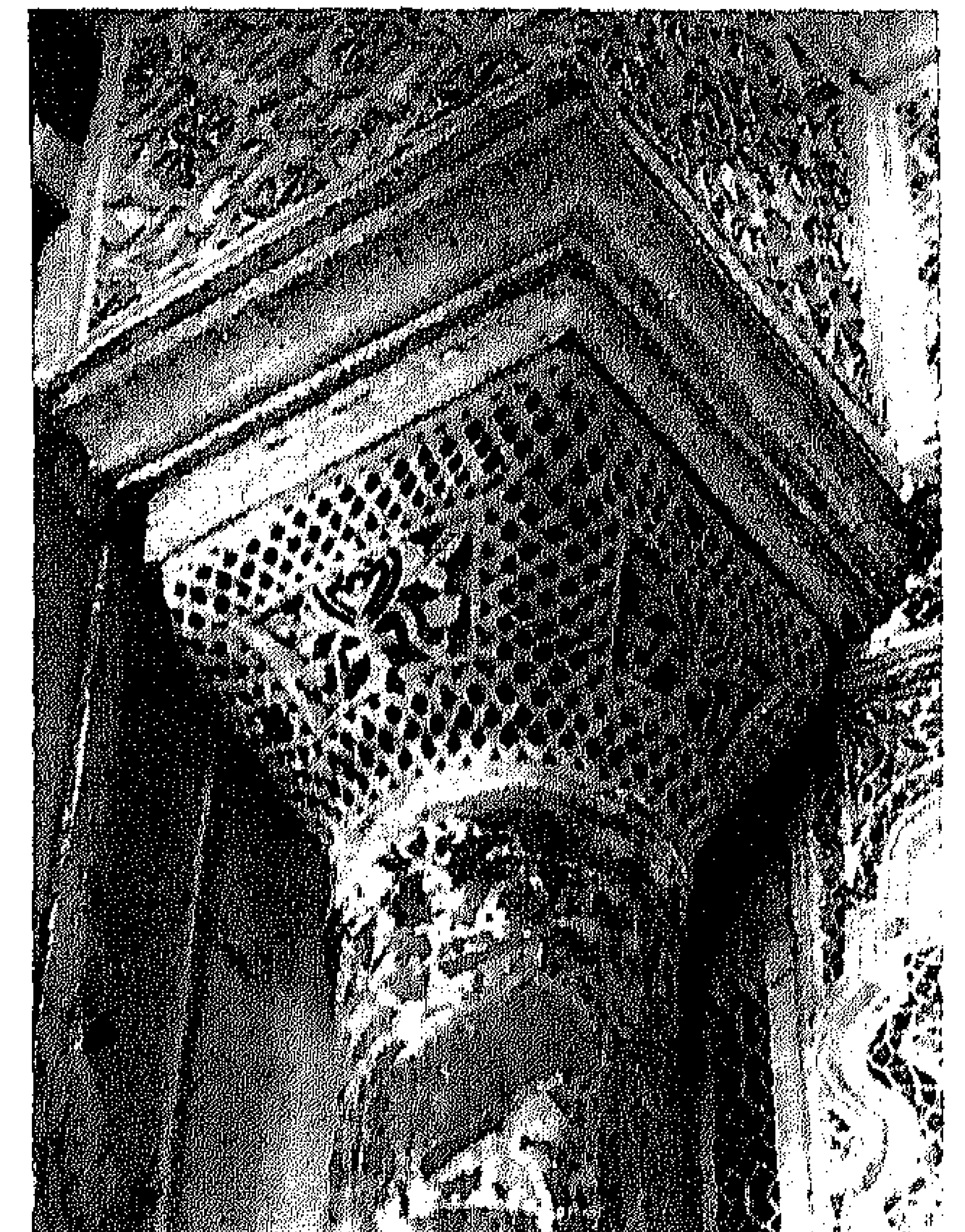
تاج عمود روماني برواق بيت الصلاة



تاج عمود روماني ببيت الصلاة حذفت منه الأشكال الحيوانية ولم يبق منها الا أجزاء من الأجنحة.



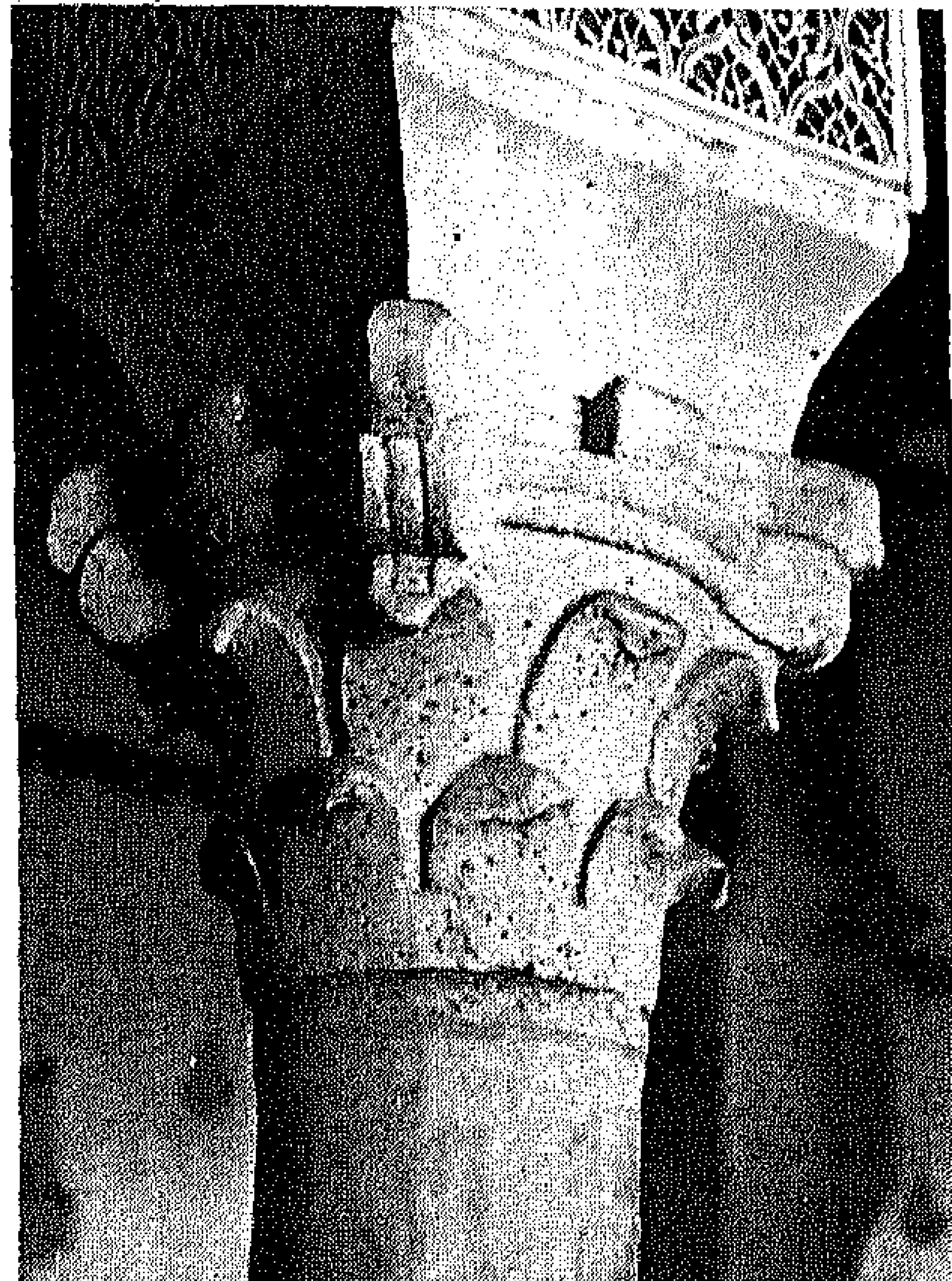
تاج عمود روماني برواق بيت الصلاة



تاج عمود بيزنطي شمال محراب بيت الصلاة



تاج عمود برواق بيت الصلاة



تاج عمود بيت الصلاة

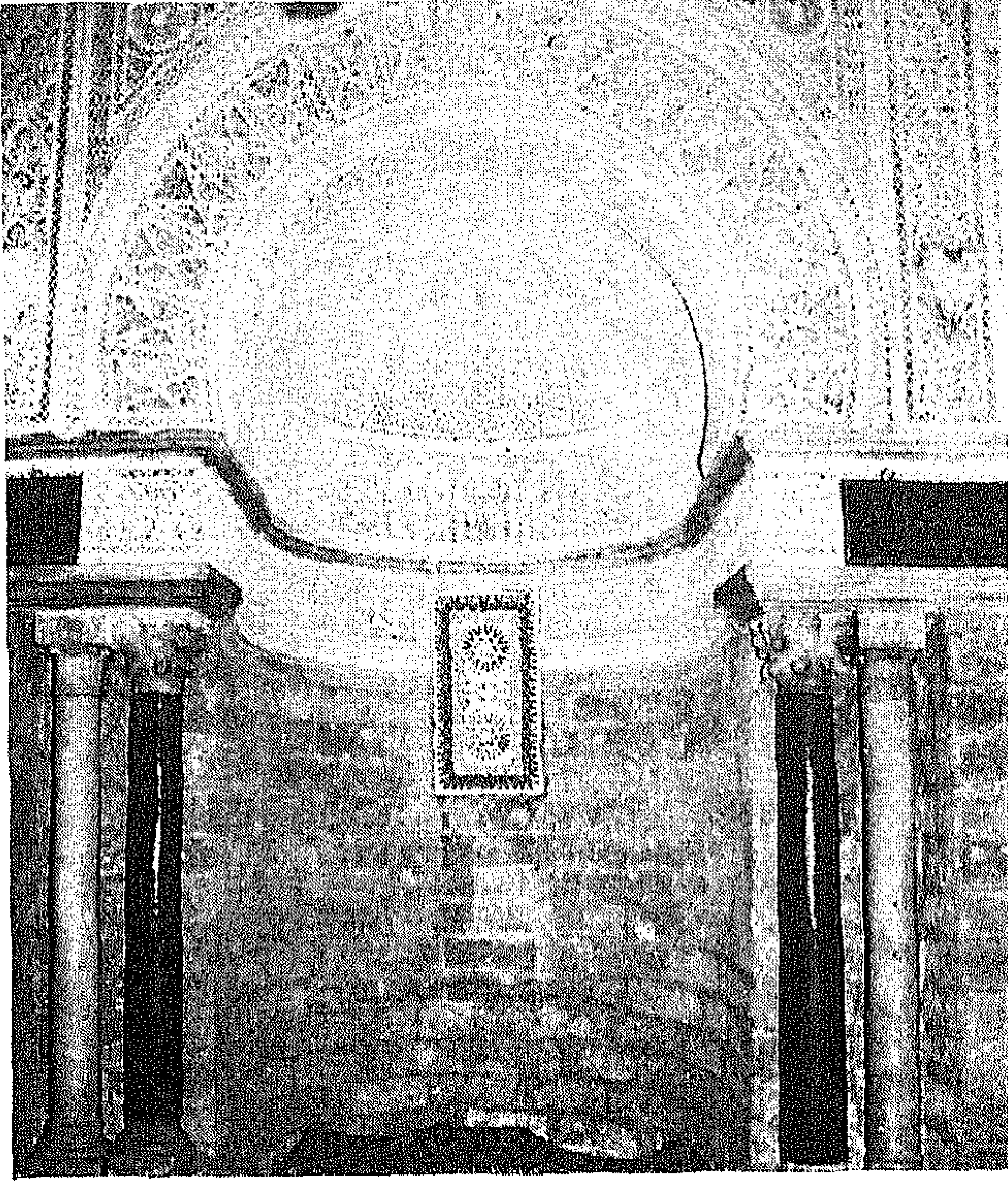


نقش روماني عثر عنه بالصحن خلال الترميم

وتحتوي قبة المحراب على نقيشة بخط كوفي تدلنا على الآمر ببنائها وتاريخها واسم صانعها هذا نصها :

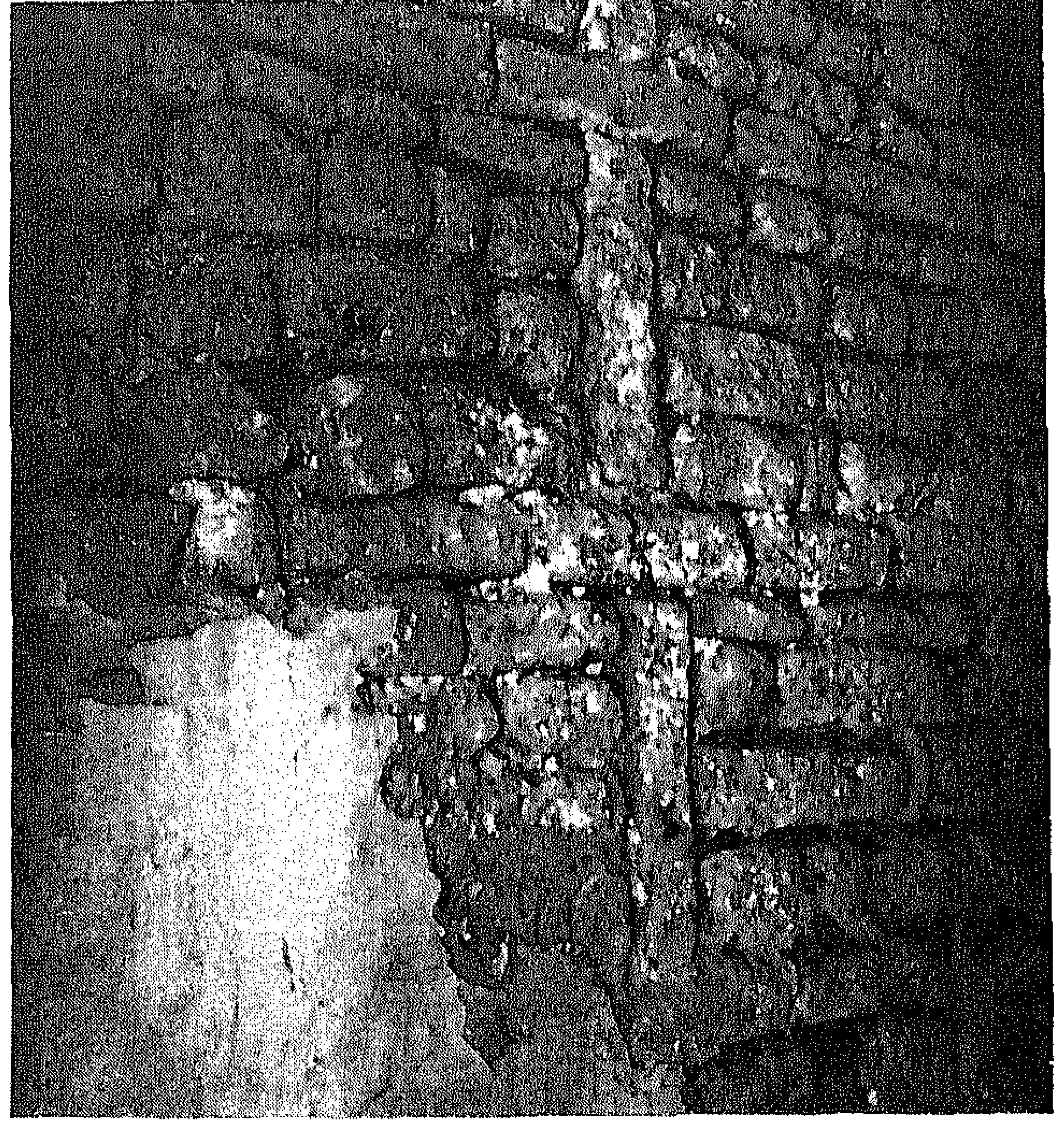
« بسم الله الرحمن الرحيم ممّا أمر بعمله الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طالب ثواب الله وابتغاء مرضاته على يدي نُصَيْر مولاه سنة خمسين ومئتين يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله صنعه فتح البناء ».

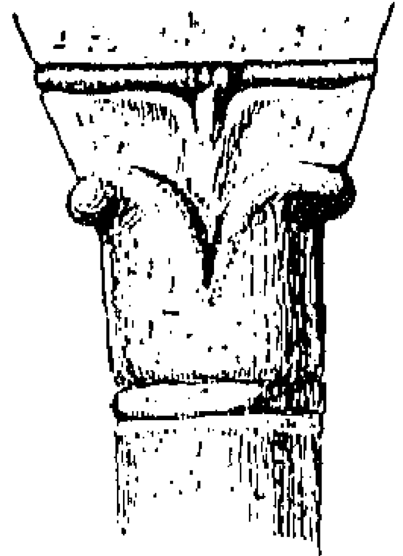
وقد قام الأستاذ المرحوم حسن حسني عبد الوهاب بتعليق حول ذكر اسم الخليفة العباسي قائلا **« (...) والواقع أن هذا التجديد الكلي (يعني لجامع الزيتونة) هو من عمل الأمير الأغلبي أبي ابراهيم أحمد (242 ــ 249 / 856 ــ 864) وهو ذلك البنّاء الكبير الذي اشتهر باجتهاده في عمارة البلاد وبولوعه لإنشاء المعالم العمرانية الجليلة منها جوامع سوسة وصفاقس وزيادته المعتبرة في مسجد عقبة بالقيروان (...) وكان قبل وفاته بقليل أقبل على جامع الزيتونة ووجه إليه عناية خاصة (...) لكن المنية أدركته سنة 249 قبل الانتهاء من البناء (...) فلما تولى أخوه زيادة الله الثاني الإمارة من بعده أتمّ ما بقي من البناء في سنة 250 (864) وتحاشى من أن ينسبه لنفسه أو أن يرسم اسمه عليه إجلالا لعمل أخيه المتوفى فنسبه إلى المستعين العباسي (...) »**[10] ومهما كان الواقع فلا جرم في نظرنا أن يكون هذا العمل بأمر من أمير المؤمنين لفائدة جامع الزيتونة ولا يحط بشيء من رصيد العهد الأغلبي في الحضارة الإسلامية في الربوع الإفريقية معماريا لأن الطابع الأغلبي يظهر جليا لكل من يتأمل في هندسة القبة وزخرفتها وهي كما ذكرنا آنفا شقيقة قبة جامع القيروان.

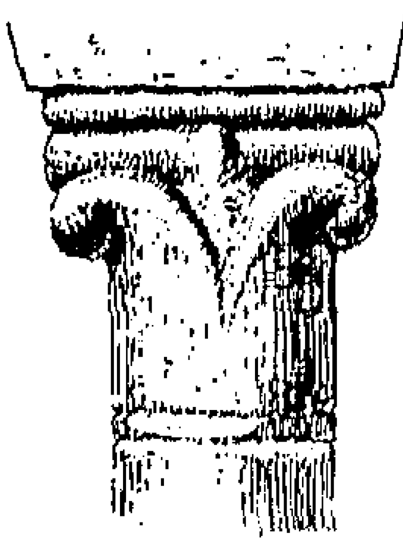


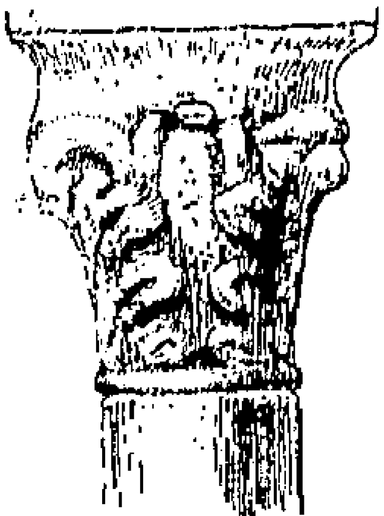
المحراب بعد ترميم سنة 1989

جدار الرواق الشمالي بعد إزالة الطلاء









نماذج من أعمدة
قبة المحراب

ج) **الأقواس أو الأعقاد** : أقواس بيت الصلاة مبنية بالحجارة المرصفة وشكلها من نوع العقد المهموز وقد أشار الدكتور أحمد فكري عند حديثه على أقواس جامع القيروان (وهي من نفس النوع) إلى أن سبب اختيار العقد المهموز ليس بمجرد اختيار زخرفي بل هو اختيار يعتمد على قاعدة معمارية تهدف إلى التحصيل على أضعف الضغوط(11). أما استقامة تباعد الأقواس فتتوفر بفضل أخشاب التثبيت.

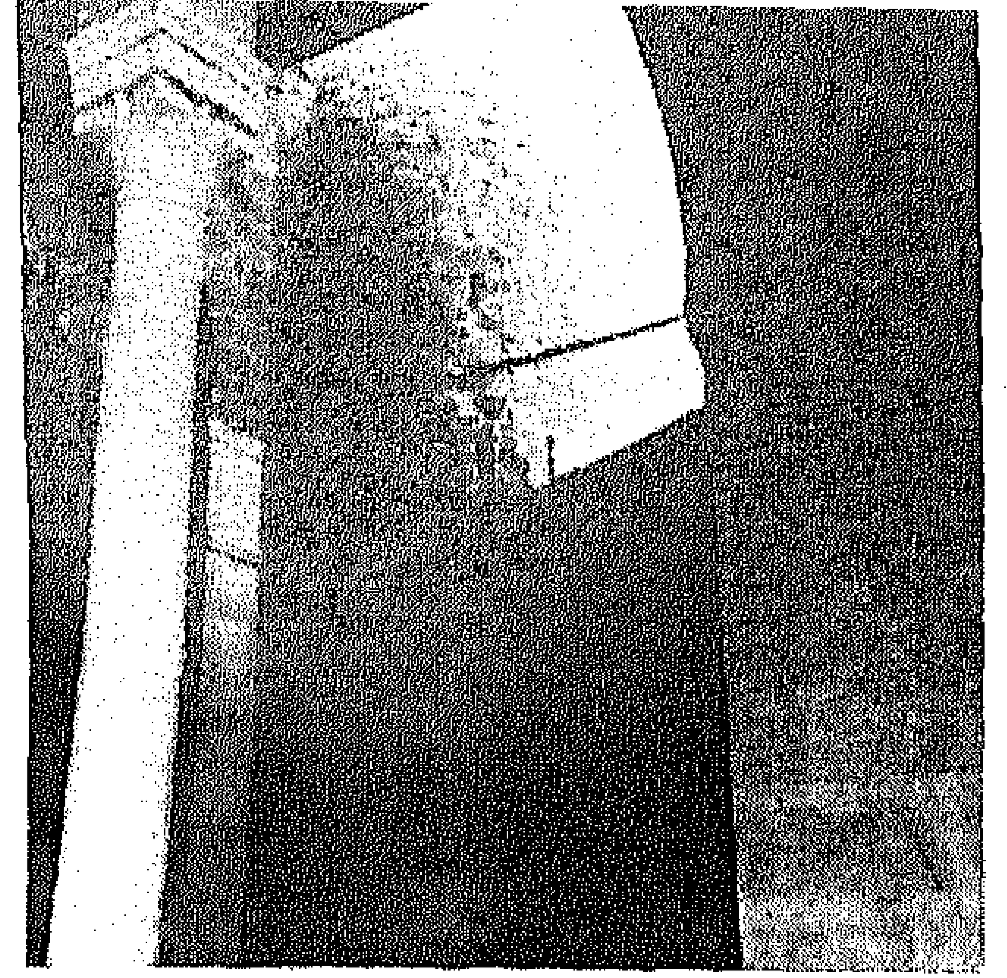
د) **الأعمدة والتيجان** : ترتكز سقوف بيت الصلاة على أعمدة (أو سوار) وتيجان معظمها من المرمر تمّ نقلها من مواقع ومعالم ترجع إلى عهد الوثنية وإلى عهد انتشار المسيحية في إفريقية الرومانية ثم البيزنطية وهي مدة تمتد تقريبا من القرن الأول قبل الميلاد الى القرن السابع الميلادي. وأهم هذه المواقع التي استغلّت لإقامة جامع الزيتونة هي قرطاج نظرا لقربها من تونس وإن لم تكن المزود الوحيد لأعمدة وتيجان جامع الزيتونة. ولا شك أن بناة جامع الزيتونة نسجوا على منوال جامع القيروان في الالتجاء إلى أعمدة وتيجان المواقع القديمة(12).

---

10) حسن حسني عبد الوهاب : **ورقات من الحضارة العربية بافريقية**. القسم الأول ص 116 — 117.

11) أحمد فكري : **جامع القيروان** (بالفرنسية) باريس 1934، ص 75 وما يليها.

12) أحمد فكري : **المصدر المذكور**. نور الدين الحرّازي : **« Chapiteaux de la Grande mosquée de Kairouan, I et II**, Tunis 1982.



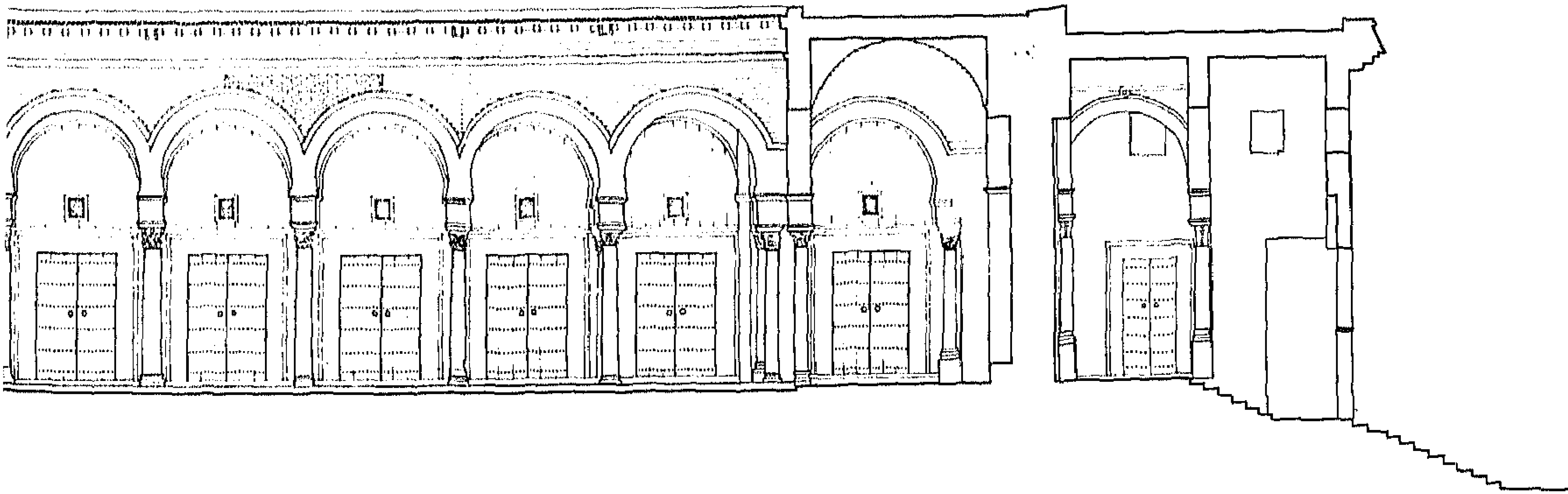
البرج الذي اكتشف بالرواق الشرقي أثناء الترميم

وقد تسبب هذا الأسلوب في عدم وجود نمط واحد من التيجان والأعمدة. فالتيجان تنتمي إلى فصائل مختلفة من أهمها فصيلة التيجان الكورنثية بمختلف أنواعها المعتمدة على شكل ورقة زهرة الاقنتا feuille d'acanthe وفصيلة التيجان البيزنطية بمختلف فروعها وبخاصة الشكل المعروف بـ : chapiteau imposte.

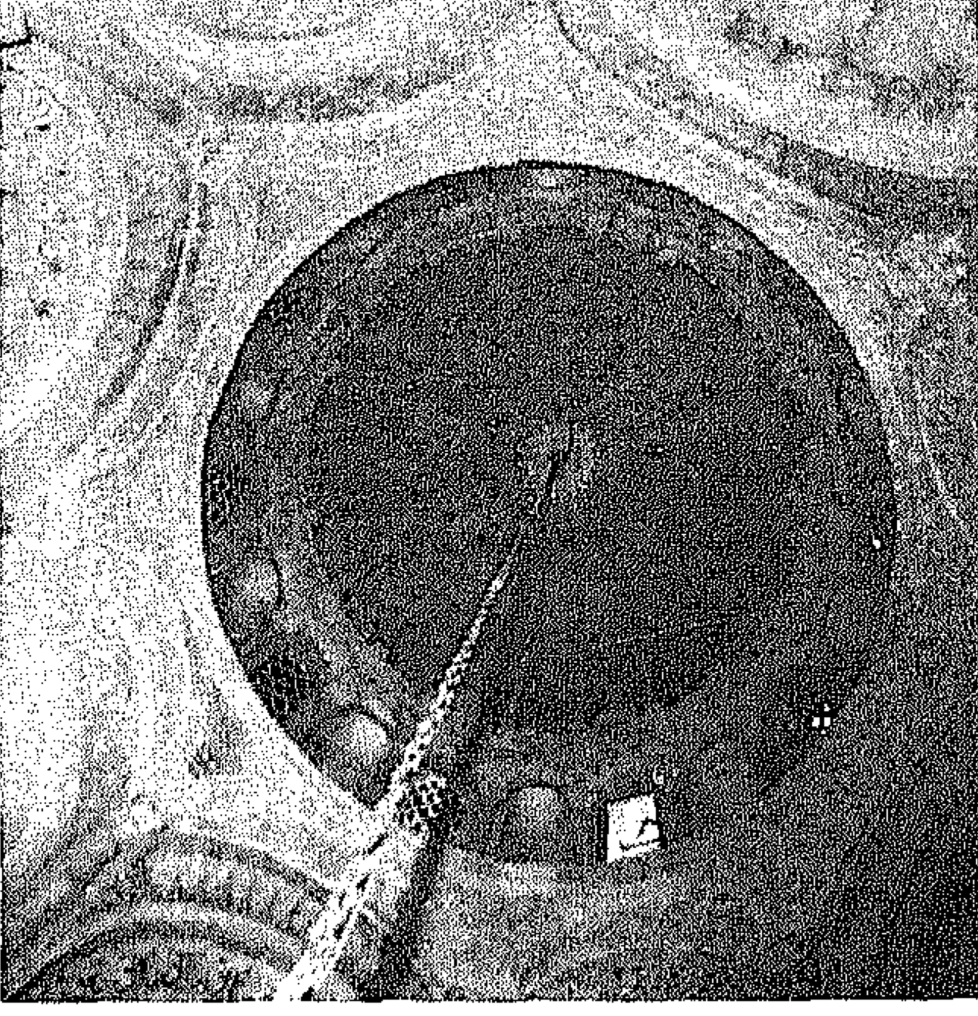
ويبدو أن بناة الجامع اعتنوا بتوزيع ما يرد إليهم من التيجان المختلفة الأشكال والحجم بمقتضى أسلوب يوفّر لهيئة بيت الصلاة تناظرا وبهجة وأناقة[13]. ويدل ذلك على أن طريقة إعادة استعمال التيجان والأعمدة العتيقة أرتقى عند الأغالبة إلى درجة فن معماري وزخرفي. كما حرص المشرفون على أعمال البناء على حذف كل ما في تلك القطع من شكل حيواني (تكسير أجنحة ورؤوس الطيور المنقوشة مثلا) لأن بقاءها ينافي القواعد الاسلامية[14].

وأقيمت الأعمدة في بيت الصلاة منفردة أو مزدوجة أو مجموعة ومرتبطة بالأرضية إما بواسطة القاعدة أو مباشرة أو بواسطة تاج معكوس بالنسبة لبعض الأعمدة القصيرة. أمّا ربط العمود بالقوس فذلك بواسطة التاج الذي أضاف إليه بناة الجامع عنصرين هما•كتف العقد ورجل العقد (sommier et imposte) متوجين بالأفريز (corniche) ويعطي هذا الأسلوب المعماري ضخامة وفساحة وشروحا لبيت الصلاة.

13) على غرار ما وقع في جامع القيروان. انظر الحرازي، **المصدر المذكور**. الجزء أ ص 214.
14) **نفس المصدر** ص 146 وما يليها. (بالنسبة لجامع القيروان).



واجهة بيت الصلاة



قبّة المحراب

وعلى ذكر طريقة إعادة استعمال الآثار العتيقة في الجامع الأعظم تجدر الإشارة إلى وجود نقائش ونقوش لاتينية ورومانية أو مسيحية استعملت لتبليط أرضية صحن الجامع[15].

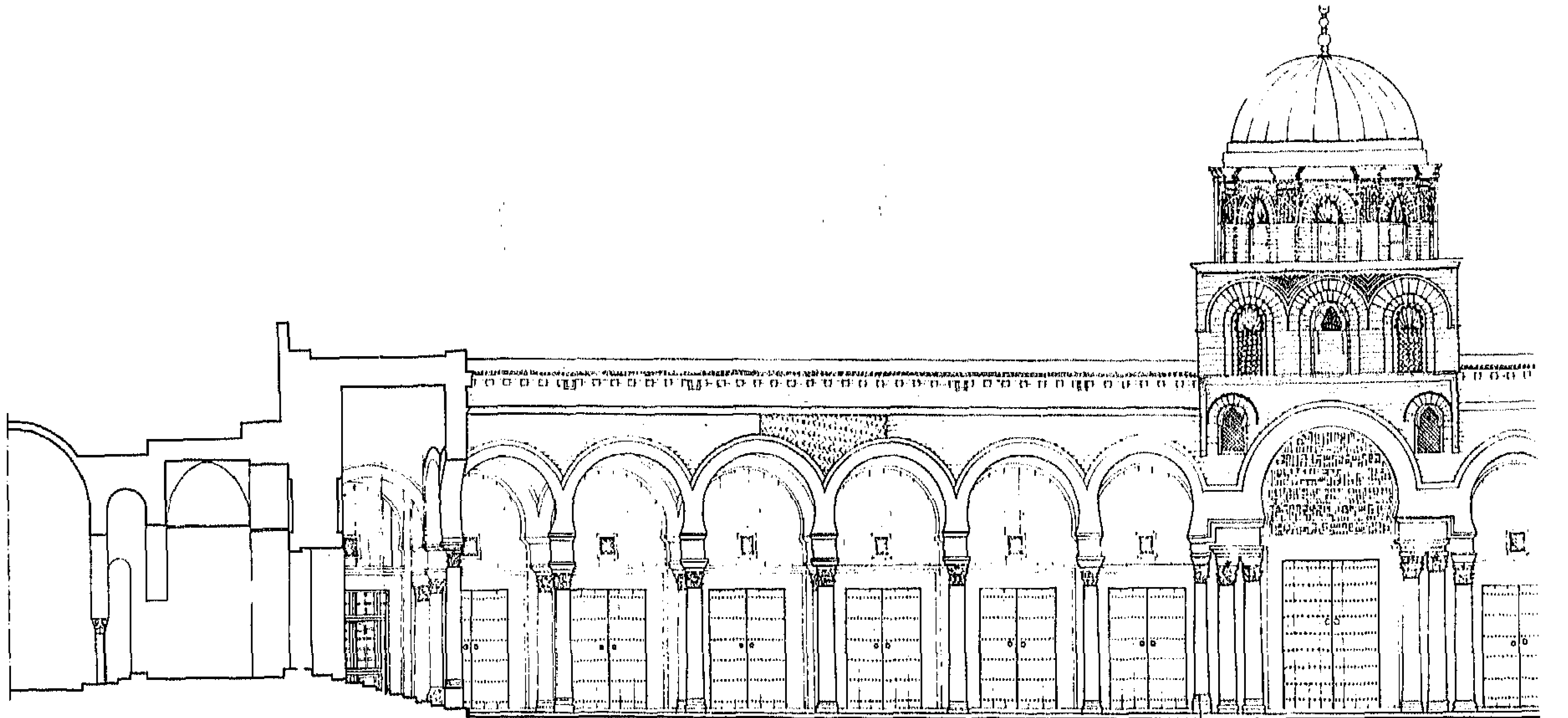
أمّا بالنسبة للأعمدة والتيجان القائمة في القبة فهي كما لاحظه الدكتور أحمد فكري إسلامية نحتا وشكلا : « **هذا الشكل من التيجان الذي نشأ في القيروان ونما في الزيتونة تطور تطورا شمل بلاد المغرب والأندلس** »[16].

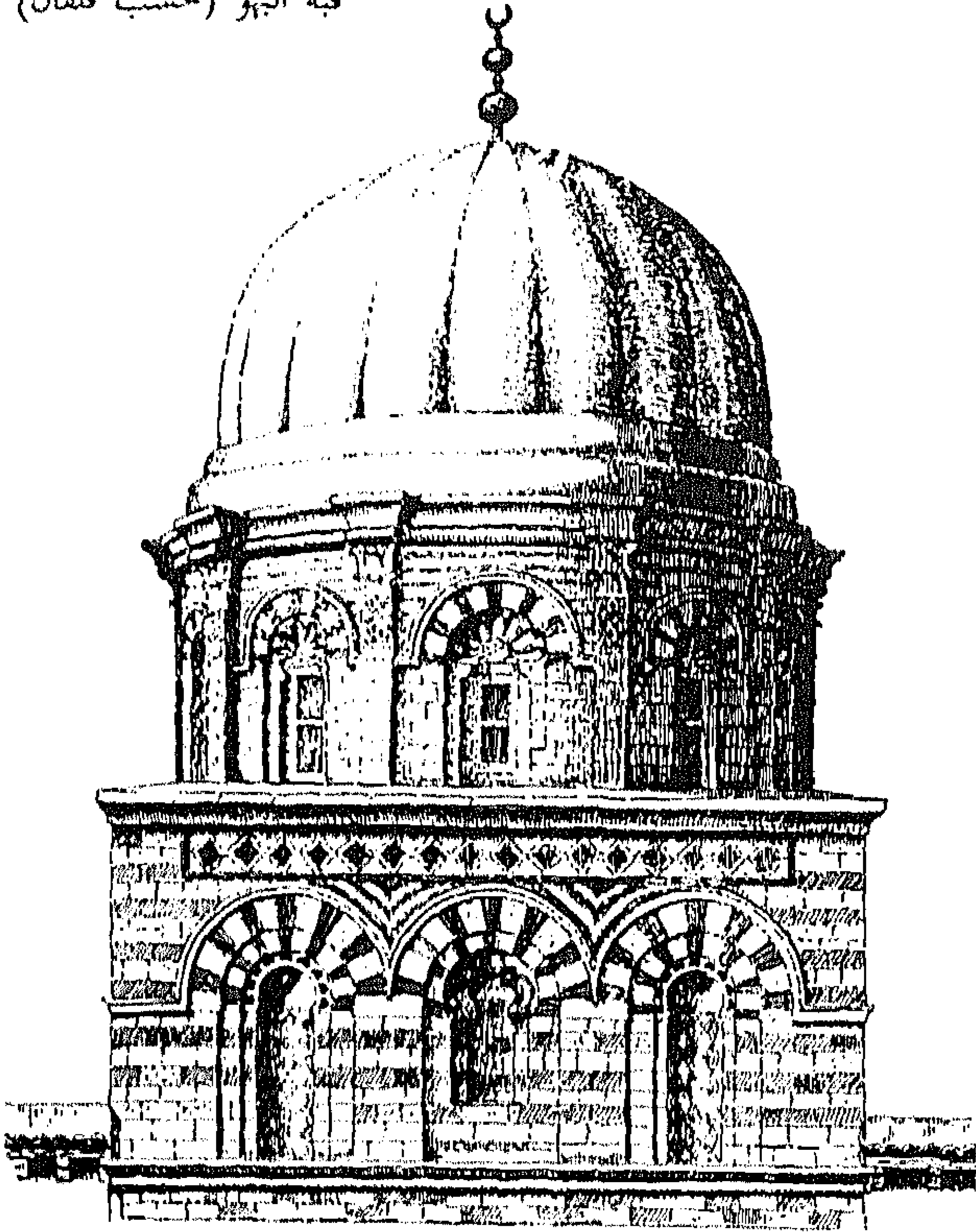
هـ) الجدران : معظم جدران الجامع مبنية بالحجارة إلّا أن أشغال الترميم التي قام بها المعهد القومي للآثار والفنون في سنة 1969/ 1970 أبرزت وجود طوب في الجدار الغربي لبيت الصلاة وفي جزء من الضلع الجنوبي على يمين المحراب[17] ويظهر أن هذا الأسلوب المعتمد على قوالب الطوب يعود إلى عمارة الجامع قبل العهد الأغلبي.

15) أبرزها الأسبار التي قام بها المعهد القومي للآثار والفنون أثناء ترميم الجامع في السبعينات. أنظر : N. FERCHIOU : « Rinceaux antiques remployés dans la grande mosqueę de Tunis...» **Antiquités Africaines** 17,1981,pp.143 - 163.

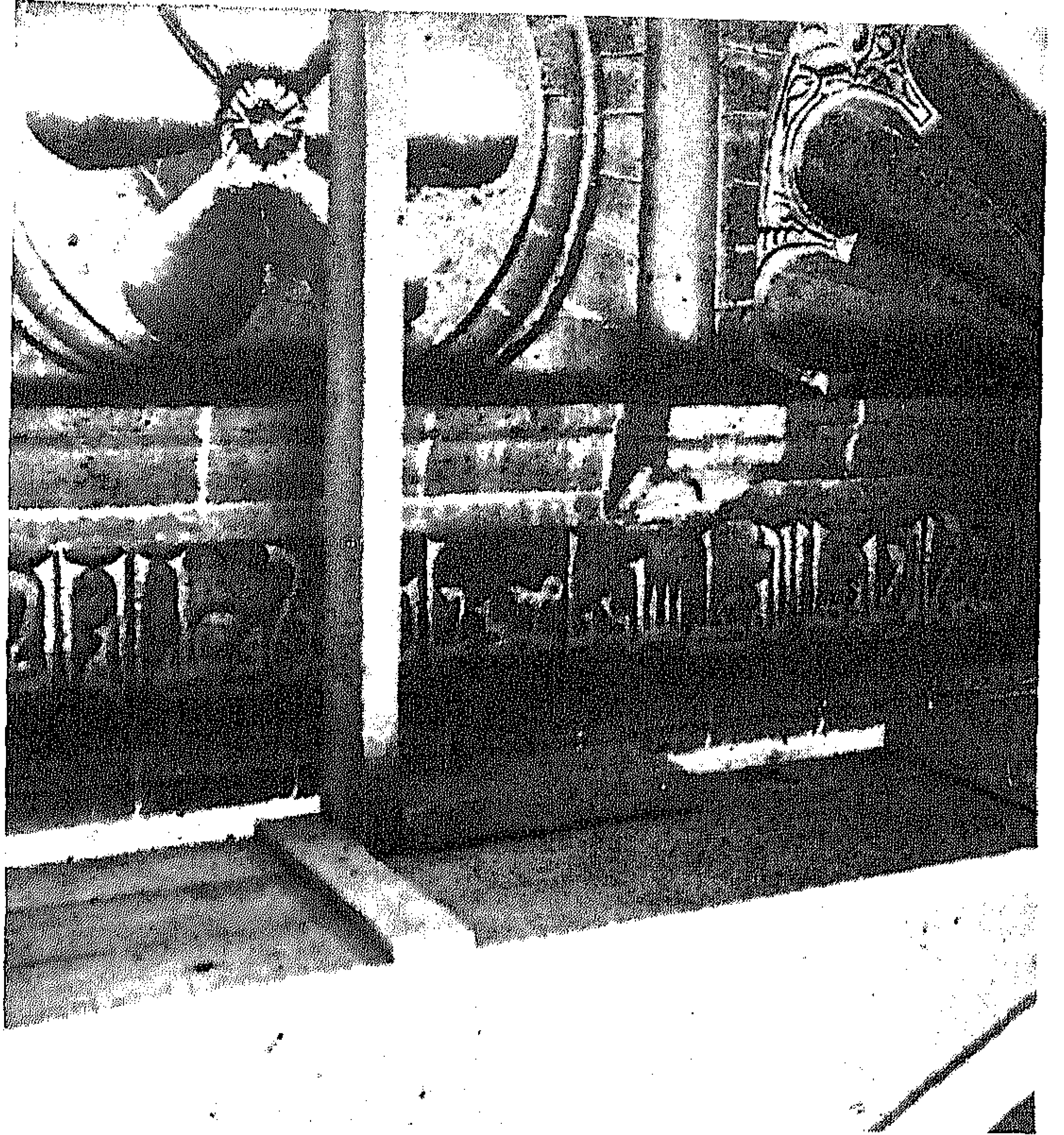
16) أحمد فكري : كلام ورد في : ح. ج. عبد الوهّاب : **ورقات** I ص 118.

17) حامد العجابي « اكتشافات جديدة بجامع الزيتونة » **إفريقية**عدد VII - VIII ص 16، 17.





قبة البهو (حسب قلفان)



نقيشة قبة البهو من الداخل

جزء من نقيشة قبة المحراب

جزء من نقيسة قبة البهو

و) **المحراب**(18) أبرزت الأشغال التي قام بها المعهد القومي للآثار والفنون في غضون سنة 1989 تركيب الحائط المدور الداخلي للمحراب بالحجارة المسماة « الحرش » المهيأة والمرصفة بصفة متقونة. فهي تمثل رغم بساطتها زخرفة أنيقة تتماشى مع زخرفة القبة وأقواس بيت الصلاة.

أمّا بقية زخرفة المحراب فتتمثل أساسا في لوحة رخامية منقوشة بها خط ورسم بشكل بناني من صنع عربي ركبت داخل المحراب. أمّا الجبس المنقوش فهو متأخر وضع في القرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي)(19) وكذلك الأعمدة الأربعة القائمة في واجهة المحراب فهي متأخرة على العهد الأغلبي.

وقد وقع العثور أثناء الأشغال التي ذكرناها آنفا على حائط مقوس ومستطيل يفصل بين حائط المحراب ودكان ملاصق لجدار الجامع يفتح بابه على سوق الصوف ويقوم الآن فريق من المعهد القومي للآثار بأبحاث وتحاليل قصد تحقيق وظيفة هذا الحائط المقوس. أمّا نحن فالراجح عندنا أنه مجرد غلاف يفصل بين الشارع والمحراب قصد وقايته وصيانته مما يصدر من المارة من المخالفات المنافية لحرمة المحراب وذلك قبل إحداث الدكاكين المحيطة اليوم بالجامع.

---

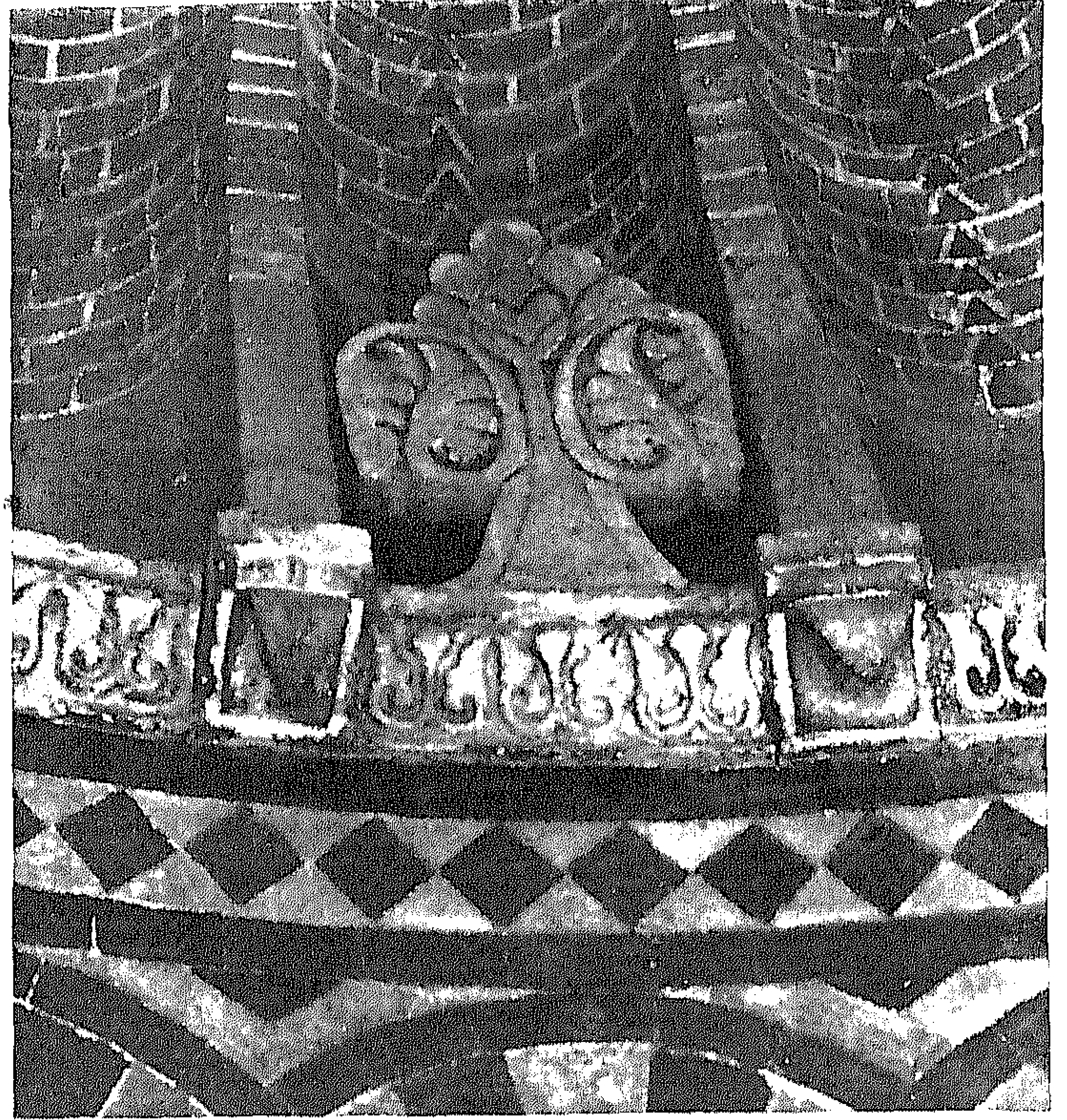
18) يعتبر المؤرخون ان المحاريب في المساجد ظهرت في حدود سنة 90 للهجرة (707 م.) يعني في عصر الوليد بن عبد الملك وكان ذلك في المدينة أولا. A. PAPADOPOULO. **L'Islam et l'art musulman,** Mazenod, Paris 1976.

19) مصطفى سليمان زبيس «La Grande Mosquée Zitouna à Tunis» **CRAI**,1953

جزءان من قبة البهو







قبة البهو من الداخل أثناء تنظيف وتصليح بعض أجزائها

ز) البرجان القائمان في ركني المعلم : أشار الأستاذ مصطفى سليمان زبيس في المحاضرة التي ألقاها في باريس في سنة 1953[20] إلى البرجين القائمين في ركني الجامع شماليا شرقيا وجنوبيا شرقيا وقد أصبح اليوم برج منهما بارزا غاية البروز في الركن على يمين الداخل الى الجامع من باب صحن الجنائز بعد الترميمات التي قام بها المعهد القومي للآثار في مطلع السبعينات. ويدل هذان البرجان المبنيان بالحجارة من الحجم الكبير على الطابع الدفاعي الذي كانت تكتسيه هندسة الجامع المعمارية[21] ولا غرابة في هذا الأمر لأن جامع الزيتونة كان في القديم (ومانفك الى العهد الحفصي تقريبا) مطلا على البحر فتبينت لمشيدي الجامع ضرورة تحصينه واستغلال موقعه للمراقبة بواسطة هذين البرجين وقد اتصف معلم ديني آخر بهذا الطابع الدفاعي وهو جامع مدينة سوسة الذي بني في العهد الأغلبي أيضا.

ووجود هذين البرجين ربما يفسر استغناء جامع الزيتونة عن صومعة قبل العهد الحفصي لأن المؤذنين يمكنهم استعمال البرجين للقيام بالنداء للصلاة فلا حاجة إذا في إنشاء مئذنة. ثم لما قامت الدولة الحفصية أدخل أمراؤها تحسينات وتوسيعات من أهمها إنشاء الصحن الشرقي المعروف بصحن الجنائز. كما وقع ترك البرجين وإدماجهما في الجدران الجديدة نظرا لفقدان الجامع لوظيفته الدفاعية بتطور الزمان والعمران. وهكذا أصبح بناء الصومعة أمرا ضروريا.

---

20) **نفس المصدر.**

21) روبار برنشفيك : **تاريخ افريقية...** الجزء 1 ص 380.

صهريج تحت صحن الجامع



رواق بيت الصلاة



ولعدم وجود صومعة بالجامع الأعظم قبل الدولة الحفصية سبب آخر ذكره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب قائلا : « **ولم تكن العادة المتبعة (في العهد الأغلبي) في المساجد ـــ صغيرة كانت أو كبيرة ـــ أن تتخذ بها مئذنة (صومعة) تقليدا لما كان عليه المسجد النبوي بمدينة الرسول بل إن الأذان بالصلاة كان يقام من أعلى سطح المسجد (...) ولم يشذ عن هذه القاعدة في العصر الأغلبي سوى جامع عقبة بالقيروان الذي حلاه زيادة الله الأول بتلك الصومعة العجيبة بعد أن مضى ما يقرب من 160 عاما على تأسيسه الأول (...). وهكذا كان الشأن في جامع الزيتونة بتونس** »[22].

3) جامع الزيتونة في العهد الفاطمي : (296 ـــ 362 هـ/909 ـــ 973 م)

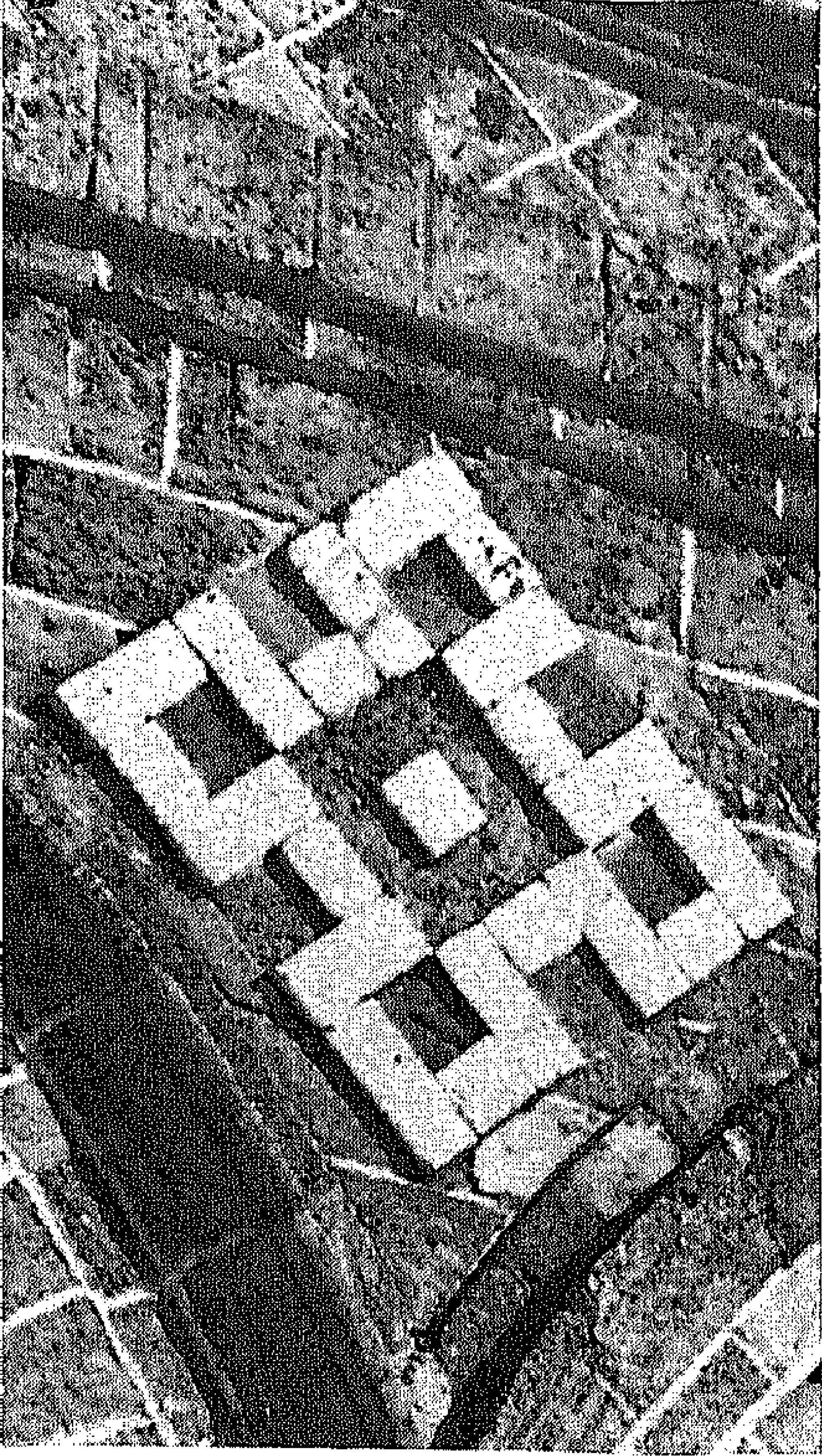
وإذا ما تحدثنا عن جامع الزيتونة في العهد الفاطمي فإنما نتحدث في الحقيقة عن دور أمراء الدولة الصنهاجية الذين خلفهم على افريقية المعزّ الفاطمي عند خروجه من المغرب إلى مصر في سنة 361 هـ 972 م إذ لا نعرف للدولة العبيدية إسهاما في عمران جامع الزيتونة بصفة مباشرة.

22) ورقات، ج II ص 33 ـــ 34.

تاج سارية برواق بيت الصلاة



نقش رواق بيت الصلاة



أمّا إسهامهم بواسطة ولاتهم الصنهاجيين فيتمثل أساسا في إنشاء القبة البديعة فوق البهو والرواق الموجود أمام واجهة بيت الصلاة.

أ) قبة البهو : بنيت هذه القبة على يد المنصور بن أبي الفتوح يوسف بن زيري (373 — 386 هـ / 984 — 996) في عهد العزيز بالله الفاطمي (373 — 382/ 983 — 992) في سنة 381/ 990 — 991 حسب ما ورد في النقيشة المرسومة على الهيكل المربع بخط كوفي يتغيّر شيئا ما عن خط قبة المحراب وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم. صلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين . ممّا أذن الله برفعه فيسر عمله/ وأعان عليه بتوفيق على يد.... مبتغيا فيه رضى الله الكريم/ محتسبا ثوابه فتم بعون الله وتأييده في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح فيه بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة ». وأول ما يلاحظ في هذه النقيشة هو محو اسم الآمِر بالبناء فأثار ذلك اهتمام وتساؤلات المؤرخين من بينهم الأستاذ مصطفى سليمان زبيس الذي يرى أن هذا المحو هو نتيجة رد فعل أهل السنة على الشيعة والدولة العبيدية التي هي رائدتها في إفريقية. ولا شك أن هذا الحدث وقع في نطاق الحملة التي شنّها أهل السنة على جميع ما كان تتمثل فيه المظاهر الشيعية

وبالخصوص أسماء أولي الأمر منهم المرسومة على الجوامع وغيرها. وكان ذلك إثر خروج الأمير الصنهاجي المعز ابن باديس عن طاعة الدولة الفاطمية. ويعتقد الأستاذ سليمان مصطفى زبيس أن الآمر ببناء القبة هو الخليفة العزيز بالله الفاطمي لا المنصور بن زيري[23]. أمّا هندسة القبة فتأثرها بقبة المحراب الأغلبية واضح : تتركب مثلها من ثلاثة عناصر : قاعدة مربعة فوقها هيكل أسطواني فوقه غشاء نصف كروي مضلع وترتكز القبة على أربعة أقواس ذات شكل مهموز مبنية بالحجارة المرصفة والمزخرفة مرتكزة على أربع مجموعات من الأعمدة الرخامية تتألف كل مجموعة من ثلاثة أعمدة عليها تيجان رومانية وبيزنطية.

وتجدر الإشارة إلى ما مضى إليه مهندس أو مهندسو القبة من شعورهم بالإنتماء إلى تيّار معماري إفريقي متميز (إن لم نقل مدرسة) ظهر في العهد الأغلبي وحرصهم على ضرورة المحافظة على انسجام عمراني وتشكيلي للمعلم يدل على نظرة هندسية معمارية راقية. إلّا أن هذا الوفاء لتراث السلف لم يمنعهم من إضافة طابع خاص بعصرهم تمثل أساسا في تعلية الغشاء نصف الكروي حسب أسلوب هندسي ظهر في القرن الرابع وانتشر في القرن الخامس في مدينة تونس وفي قلعة بني حماد وفي صقلية النورمانية[24].

أما زخرفة القبة فتتميز خارجيا بأناقتها خصوصا بفضل استعمال رائع للبنات والمعينات ذات اللونين الأحمر (آجرة) والأبيض (حجارة) المرصفة بالتناوب واستعمال قطع من الخزف ذات اللونين الأحمر والكستنائي الداكن. ويبدو أن هذا الأسلوب المعتمد على تناوب اللونين لم يظهر إلّا في العصر الفاطمي الصنهاجي ولعله متأثر بالفن الأموي القرطبي. أمّا طريقة تركيب الحجارة والآجرة بالاختلاف فقد انتشرت في بلاد الشام من لدن العصر البيزنطي ولا غرابة حينئذ في ظهورها بإفريقية في القرن الرابع نظرا للأصل الشرقي للأسرة الفاطمية.

وتختلف زخرفة هذه القبة من الداخل على زخرفة قبة المحراب بجزئيات طفيفة كالأشكال الزهرية الخاصة بالفن الصنهاجي والتي توجد في معالم زيرية أخرى مثل آشير وقلعة بني حماد في المغرب الأوسط[25].

وقبل أن نختم الحديث عن هذه القبة البديعة تجدر الإشارة إلى أن الجوانب الأربعة للقاعدة المربعة يختلف كل واحد منها على الآخرين بجزئيات في الأشكال مع الملاحظة أن الجانب الجنوبي معظمه مغطى بسطح المسكبة الوسطى وهو أعلى من بقية سطح بيت الصلاة.

ب) الرواق الأمامي لبيت الصلاة : ينسب المؤرخان كرسوال وحسن حسني عبد الوهاب بناء هذا الرواق المسمى **بالمجنّبة** والفاصل بين بيت الصلاة وصحن الجامع إلى الدولة الصنهاجية معتمدين في ذلك على نتائج فحصهما لثلاث نقائش موجودة هناك. الأولى هي النقيشة الأغلبية المبعثرة الأجزاء من جراء أشغال بناء المجنبة والثانية والثالثة هما النقيشتان اللتان رسمتا على الكتف (sommier) الرابط بين التاج ورجل القوس على اثنتين من مجموعات الأعمدة الأربعة المرتكزة عليها القبة. وإليك نص هاتين النقيشتين :

(بسم الله الرحمن الرحيم / صنعه أحمد البرجيني وأبو الثنا/ أبو عبد الله ابن القفاص وبشر بن البرجيني/ وصلى الله على محمد خاتم النبيين ».

« بسم الله الرحمن الرحيم / كان ابتدأ (ا) لعمل المجنبات/ والداموس والقبة/ في شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وثلاثمائة وتم/ جميع ذلك في جمادى الأولى من سنة خمس وثمانين وثل (ثمائة) ». ويتركب هذا الرواق من أقواس مبنية بالحجارة المرصفة والمزخرفة بمجموعات أنيقة من الخطوط المنكسرة والمرصفة بالتناوب. وترتكز الأقواس على أعمدة ذات تيجان عتيقة أعيد استعمالها على غرار ما وقع بالنسبة لبيت الصلاة. ويحتوي هذا الرواق على سقف منبسط على شكل سطح.

---

23) مصطفى سليمان زبيس : **ألقاب** : .. ص 20 — 21.

24) قلفان : « المقالة المذكورة » ص 102.

25) نفس المصدر ص 101.



المدخل الرئيسي لبيت الصلاة

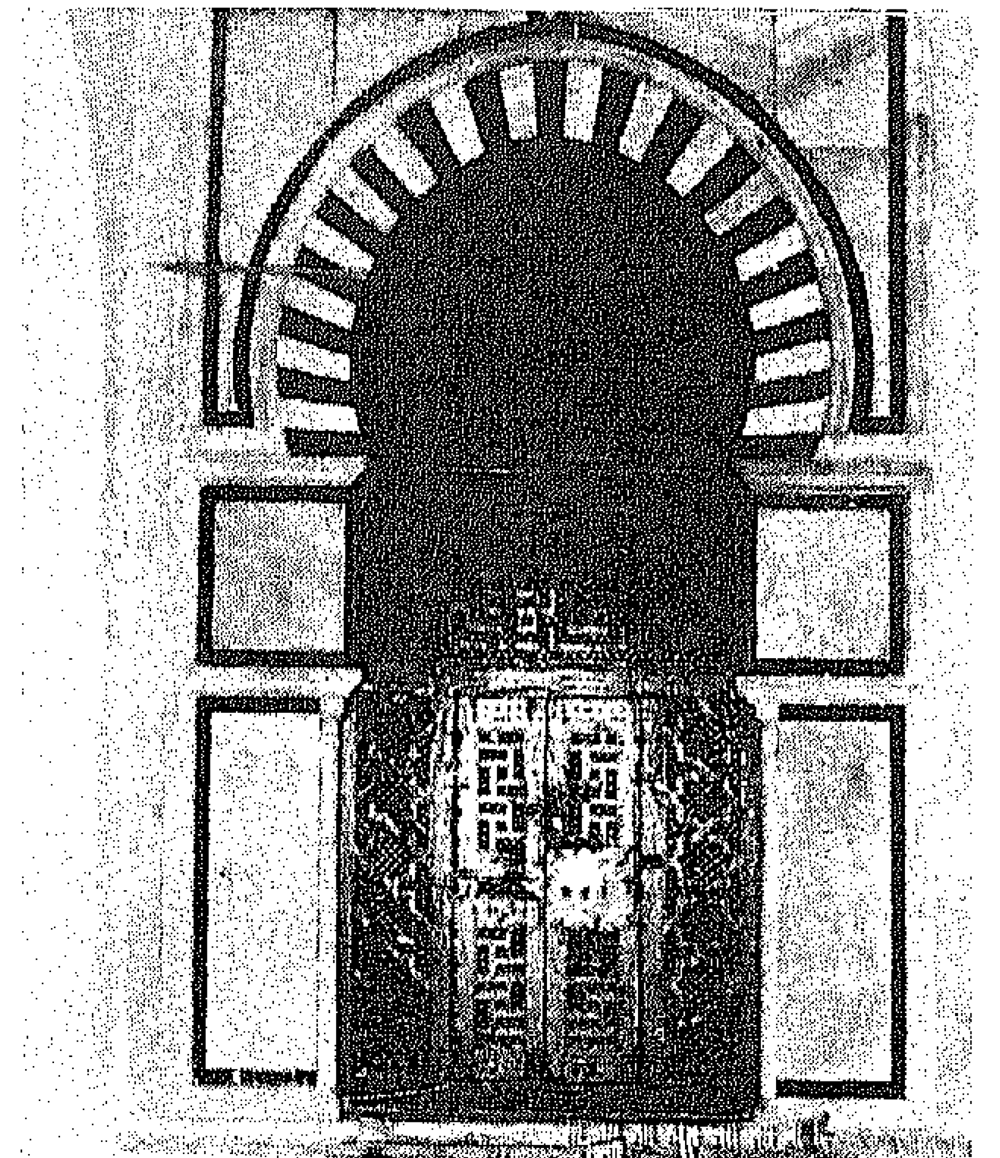
أمّا الأروقة الثلاثة الأخرى المحيطة بصحن الجامع فيظهر أن في انتسابها هي أيضا إلى العهد الصنهاجي مبالغة لأن الناظر إليها بتبصر يلاحظ أن زخرفتها — وإن كانت تمثل محاولة ناجحة وأنيقة في النسج على منوال زخرفة الرواق الأمامي لبيت الصلاة — فإنها تختلف في المواد الزخرفية المستعملة وأسلوب تركيبها (قارن مثلا بين الخطوط المنكسرة المرصفة بالتناوب في واجهة الرواق الصنهاجي ونظائرها على وجه الأروقة الأخرى).

ورغم عدم إشارة المؤرخين إلى إنشاء أروقة في صحن الجامع بعد العهد الصنهاجي يبدو لنا أن هاته الأروقة الثلاثة شيدت ربما في أول العهد الحفصي. نقول هذا على وجه الافتراض ريثما يكتشف باحثو المعهد القومي للآثار المشرفون حاليا على محافظة جامع الزيتونة أثرا يخبرنا على تاريخ هذه الأروقة الثلاثة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الأروقة كانت موجودة في عصر العبدري الذي دخل إلى تونس في سنة 688 هـ (1289 — 1290)[26] أما الزركشي فقد ذكر اسم إحدى المجنبات وهي مجنبة الهلال الكائنة جوفي جامع الزيتونة تحت الصومعة لما تحدث عن تأسيس مكتبة أبي فارس سنة 822 هـ (1319)[27].

أما أعمدة هذه الأروقة الثلاثة وتيجانها وهي من نمط واحد (باستثناء زخرفة بعض التيجان) من الرخام الأبيض الإيطالي فهي لا محالة من القرن التاسع عشر الميلادي ويظهر من خلال وثيقة اطلعنا عليها في خزينة أرشيف الدولة أن المتبرع بهذه الأعمدة والتيجان على الجامع هو الوزير الأكبر مصطفى خزنه دار في حدود سنة 1287 هـ (1870)[28] بينما الرواق الأمامي لبيت الصلاة لم يزل محتويا على أعمدته وتيجانه العتيقة التي تحدثنا عنها آنفا.

26) العبدري : **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1969.
27) الزركشي : **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**. طبعة أولى تونس 1289 ص 109.
28) **أرشيف الحكومة التونسية** : الملف 716 مكرر الوثيقة رقم 40 من محمد محسن إلى مصطفى الوزير الأكبر مؤرخة في شعبان 1287 وقد قام هذا الوزير بالعديد من المساهمات في تحسين المعالم الدينية نذكر منها الأشغال الهامة التي أمر بها بالمقام الشاذلي وبزاوية ابن ملوكة الخ.

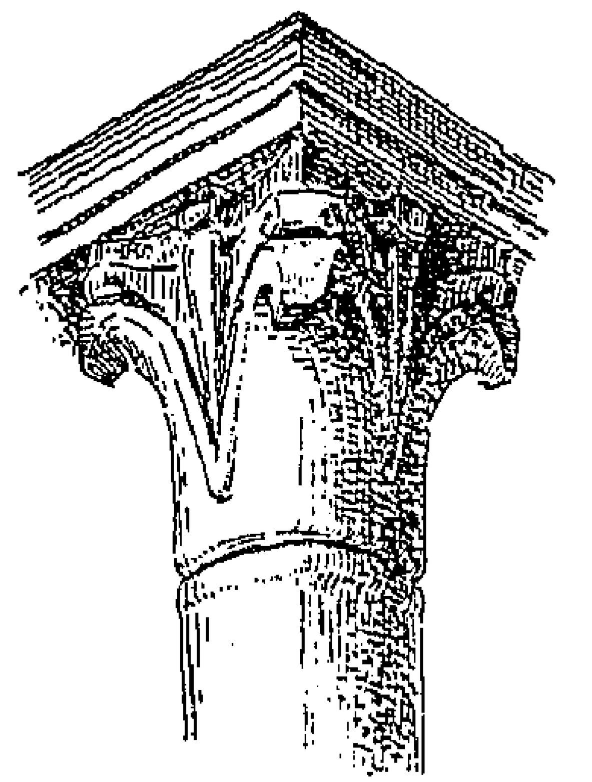

نافذتا مكتبة أبي عمرو عثمان


باب مكتبة أبي عمرو عثمان

4) جامع الزيتونة في عهد أمراء بني خرسان (450 ـ 1058/555 ـ 1160) :

لما استقل بنو خراسان بالحكم إثر تقهقر الدولة الصنهاجية وتفرقع إفريقية إلى دويلات مستقلة اتخذوا مدينة تونس عاصمة لدولتهم فاعتنوا بعمرانها وبتحسين معالمها وبخاصة أشرف معلم فيها ألا وهو جامع الزيتونة. ومن بين الأشغال التي قام بها أمراء بني خراسان ترميم ما تداعى للسقوط في بيت الصلاة وغيرها (تعويض عمودين بواجهة المحراب بعمودين وتاجين من النمط الخراساني مثلا) وفتح أبواب جديدة حتى ارتقى عددها من ستة في العهد الأغلبي إلى اثني عشر بابا احتوى البعض منها على نقيشة والبعض الآخر يُخبر شكلُها وزخرفتها بانتمائها إلى الفن الخراساني. أما النقيشتان وهما بالخط الكوفي فنص الأولى الموضوعة فوق الباب الكائن اليوم حذو الصومعة ويفتح على سوق العطارين هو الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على النبي محمد/ وعلى آله وسلم مما أمر بعمله/ الشيخ أبو محمد عبد الحق/ ابن عبد العزيز ابن خرا/ سان في شهر رمضان من سنة/ أربع وسبعين وأربعمائة و/ من عبد الغني ابن المليلي وعوض ابن الفيبطي (؟) وصلّى الله على النبي محمد وآله ».


تاج خراساني

ونص نقيشة الباب الآخر الكائن بالرواق الشرقي :

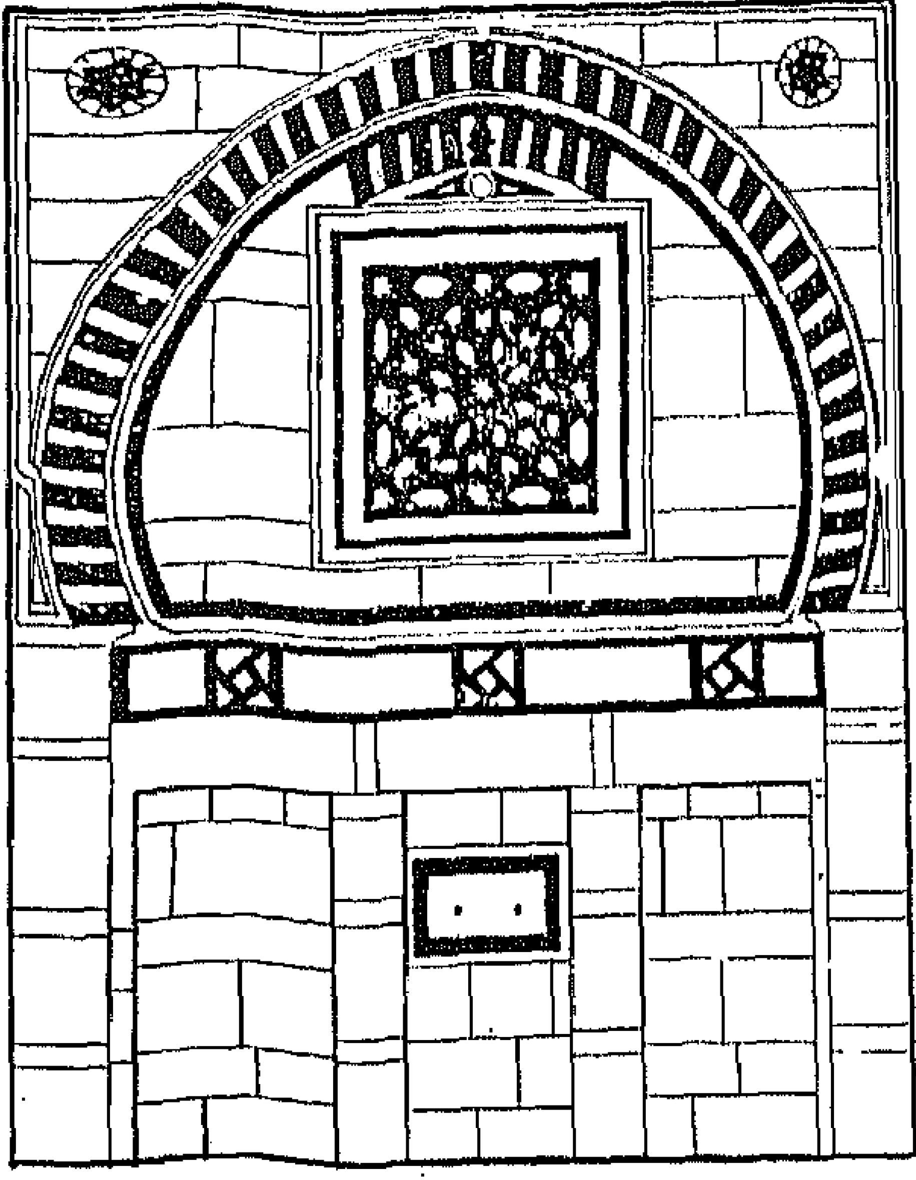
« بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله القاضي عبد/ الرحمن بن محمد ابن الفقيه محرز/ رحمة الله عليه وذلك في أوائل شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وأربعمائة ».

ويدل ما جاء في نص هذه النقيشة أن الاعتناء بالجامع الأعظم والإسهام في تعميره لم ينحصر في أمراء البلاد فقط بل يظهر أيضا من قبل أرباب الوظائف السامية الدينية منها والمخزنية وسنشاهد فيما بعد كيف استمرت هذه الظاهرة بعد الفتح العثماني.

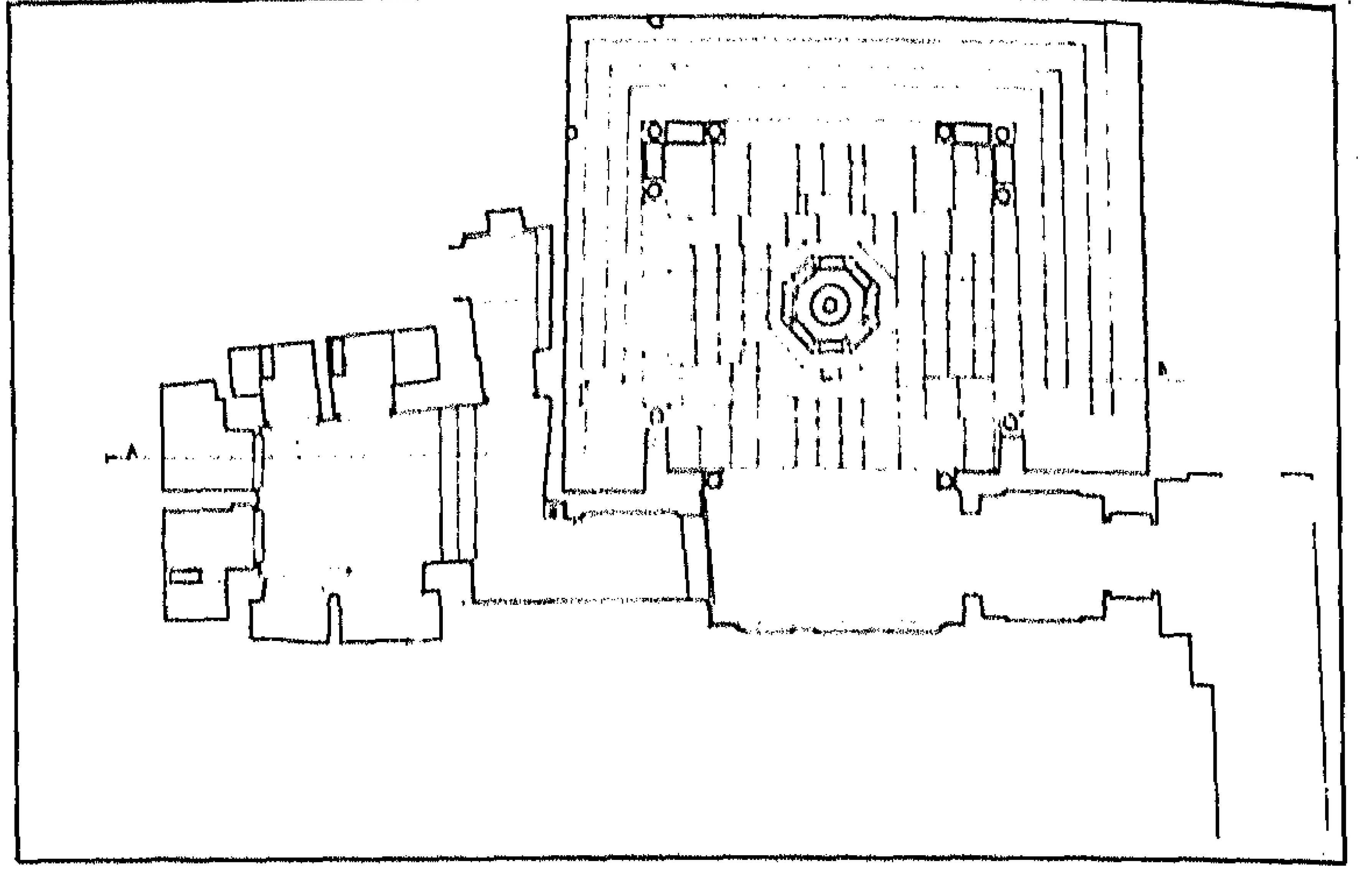
أمّا مدخل الجامع من الجهة الشرقية في العهد الخراساني فقد أثبتت الأسبار التي قام بها الباحث الأثري حامد العجابي في سنة 1975 (والتي وقع أثناءها العثور على مدرج قديم خال من أي تغطية وعدد أدراجه 12 درجة) صحة الوصف الذي ورد في كتاب **المسالك والممالك** للبكري (460 هـ/ 1067 ـ 1068 م) ونصه كما يلي :

« وجامع مدينة تونس رفيع البناء مطل على البحر ينظر الجالس فيه إلى جميع جواريه ويرقا إلى الجامع من جهة الشرق على اثنتي عشرة درجة »[29].

29) حامد العجابي « اكتشافات جديدة بجامع الزيتونة ـــ» **افريقية** VII - VIII ص 15 والبكري **المسالك**... طبعة دي سلان ص 40.



ميضاة السلطان ــ واجهة الرواق الرئيسي



مثال ميضاة السلطان بسوق العطارين

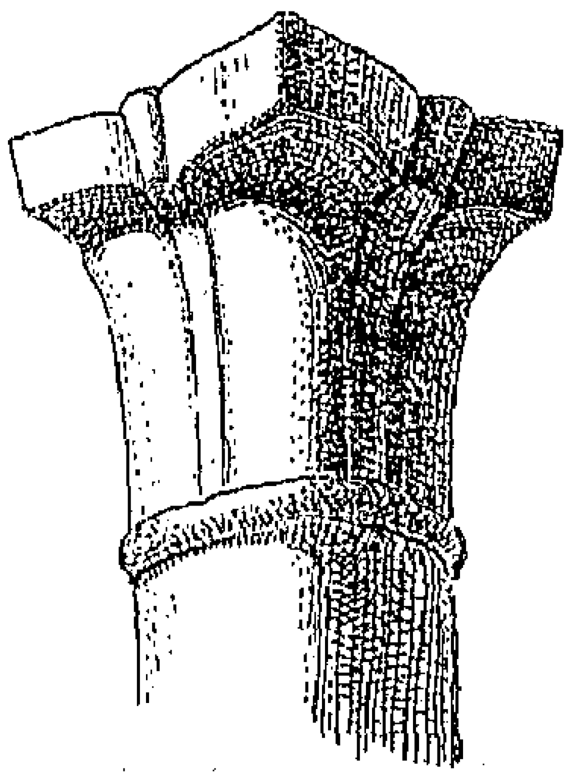
5) جامع الزيتونة في العهد الحفصي

(القرن 7 ــ القرن 10 هـ / القرن 13 ــ القرن 16 م) :

تميّز العهد الحفصي على العهود التي سبقته بارتقاء مدينة تونس إلى درجة عاصمة دولة رفيعة الشأن. فترتب على ذلك ازدهار في عمرانها وازدياد في عدد سكانها واتساع في مساحتها. ومن نتائج هذا النمو العمراني ظهور مساجد جامعة أخرى بعدما انفرد جامع الزيتونة بهذا الدور من لدن الفتح الإسلامي. فأنشأ الحفصيون جوامع للخطبة جديدة وهي جامع القصبة وجامع القصر (إلّا أن المؤرخ روبار برنشفيك يرى أن هذا المسجد صار جامعا من عهد الدولة الخراسانية) وجامع الهواء وغيرها.

كما تميز هذا العهد بإدخال الحفصيين صنفين من مواضع العلم والعقيدة لم تعرفهما تونس من قبل هما المدارس والزوايا(30) والغالب عند المؤرخين اليوم أن سبب إنشاء المدارس يرجع إلى عزم الأمراء الحفصيين الأوائل على بث المذهب الموحدي فيها(31).

هذا وإن اعتناء أمراء بني أبي حفص بازدهار عمران قاعدة ملكهم واهتمامهم بإحداث الجوامع والمدارس لم يمنعهم من صرف همتهم إلى أمجد معلم ديني تؤويه عاصمتهم وهو جامع الزيتونة بل قاموا بكل ما في وسعهم لتحسين وازدياد ضخامته وتوفير أكثر رفاهة للمصلين وطلبة العلم خصوصا بعد ابتعادهم نهائيا عن النزعة الموحدية.



تاج حفصي

وتتمثل الأشغال التي تمّت في العهد الحفصي في :

أ) الزيادة في مساحة الجامع بإضافة صحن في الجانب الشرقي خُصَّ لإقامة الصلاة على الجنازة ولذلك سمي بصحن الجنائز وهو الفاتح اليوم على سوق الفكة.

ب) بناء الصومعة : لقد أشرنا إلى ذلك لمّا تحدثنا عن البرجين في العهد الأغلبي. والظاهر أن هندسة هذه الصومعة كانت أقرب إلى البساطة، محدودة الارتفاع تحتوي على شكل مربع ولعلها بنيت على نفقة الجامع من مداخيل الأوقاف المحبسة عليه لا بأمر من أحد الأمراء. أمّا تاريخ بنائها فهو مجهول وغاية ما نعلمه أنها

30) روبار برنشفيك : « **تاريخ افريقية** » الجزء 2 ص 332 وما يليها. الفاضل ابن عاشور : « الزوايا في عهد الدولة الحفصية ».

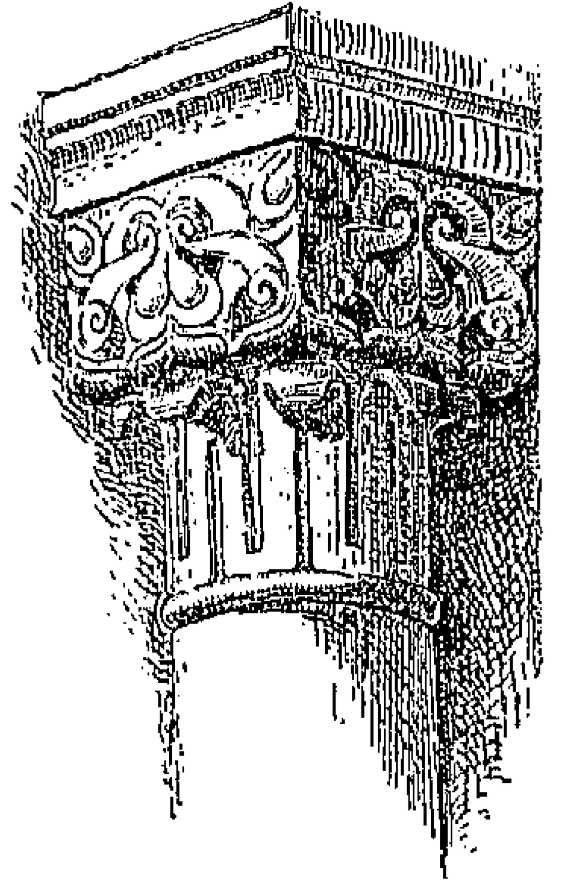
31) روبار برنشفيك : - « Quelques remarques historiques sur les médersas de Tunisie » **Revue Tunisienne**, 1931, pp. 216

والطاهر المعموري. **جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي**. تونس 1980 ص 79 وما يليها.

بنيت قبل سنة 846 هـ (1442 ــ 1443)(32) كما يمكن افتراض وجودها في سنة 822 من خلال ما قاله الزركشي عند حديثه عن مكتبة أبي فارس عبد العزيز. الّا أن الزركشي كتب تاريخه في 932 ولعل الصومعة بنيت بعد 822 فيكون ذكرها بغية التوضيح في الوصف لمعاصريه فقط.

ج) أشغال ترميم المواضع والأجزاء المنهدمة والمتداعية ومن أهمها أشغال الاصلاح والتهذيب والكسوة التي أمر بها الواثق بن المستنصر في سنة 676 ــ 1277(32 مكرر) وإعادة السفوف وتدعيمها بالعوارض الخشبية باذن من أبي يحي زكريا (893 ــ 899 / 1488 ــ 1493) وهذا السلطان هوالذي أمر أيضا باحداث (أو تعويض أبواب كانت قائمة من لدن الأغالبة أو الصنهاجيين ؟) الأبواب الخشبية لبيت الصلاة وتمت هذه الأشغال في سنة 1316/716 كما تنص عليه النقيشة المنقوشة على الخشب فوق الباب الرئيسي لبيت الصلاة المعروف بباب البهو أو باب البهور

« **بسم الله الرحمن الرحيم صلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما هذا مما أمر به الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو يحي زكريا ابن الأمراء الرشيدين في شهر رمضان المعظم عام ستة عشر وسبعمائة** ».



أمّا السلطان أبو اسحاق ابراهيم فقد أمر بترميم نقيشة قبة المحراب في رجب 767 ــ 1366 ويقول ابن الشماع إن حرفها كانت من حجارة الأزورد(33).

كما تضمنت أشغال الترميم والتدعيم عمليات تعويض بعض الأعمدة والتيجان المتداعية بأعمدة وتيجان حفصية الشكل والنحت من فصيلة التيجان الحفصية المقتبسة من النمط الأندلسي ــ المغربي مثل التاجين القائمين على اثنين من الأعمدة الأربع الموجودة في واجهة المحراب. وقد واكبت هذه الترميمات تحسينات في التزويق والتنوير وتجديد بعض الزخارف بعد موافقة الأيمة ومنهم الإمام ابن عرفة(34). ونشير هنا إلى إصلاح لم يقع بالجامع رغم أهميته وتفكير الحفصيين في القيام به وهو تسوية اتجاه المحراب بعد ان ثبت انحرافه بالنسبة للقبلة الحقيقية لأن الفقهاء الحفصيين قرروا المحافظة على الاتجاه الذي اعتمده الأئمة السابقون وسائر المصلين من عهد قديم(35).

وعلى ذكر عمليات الترميم والتعويض تجدر الإشارة إلى دخول شيء من الاضطراب في إقامة الشعائر بسبب الأشغال. ذكر الوزير السراج في **الحلل السندسية** ما وقع أثناء خطبة الجمعة مدة الإمام الخطيب ابن عبد الرفيع (المتوفى في 733 ــ 1333) إذ يقول : « **ومما اتفق أن السنة التي جدد بها سقف جامع الزيتونة وخطيبه اذاك أبو اسحاق بن عبد الرفيع غطيت المجنبة الأولى التي تحتها المنبر بالحصر فخطب فقام الشيخ الفقيه المشتهر بالصلاح أبو علي القروي فأنكر عليه وأغلظ الخطيب عليه في الرد وأفضت الحال إلى أن أمر الخطيب وهو القاضي يومئذ بسجن أبي علي وكان الشيخ ابن عرفة يقول الصواب من الشيخ أبي اسحاق ولا ينتهي الحال إلى أن تمنع الجمعة لأنه لو خطب دون تغطية جاز لأنه ليس من شرط الخطبة أن تكون تحت سقف إذ لو خطب بالصحن جاز** »(35 مكرر).

هـ) إنشاء ثلاث قاعات للمحافظة على الكتب والاطلاع عليها : وهي مكتبة أبي فارس عبد العزيز التي بنيت « بمجنبّة الهلال جوفي جامع الزيتونة تحت الصومعة » (الزركشي) وكان ذلك في سنة 822 ــ 1419). ومكتبة أبي عمرو عثمان في مكان المقصورة الجنوبية الشرقية المعروفة باسم سيدي محرز وقد تمت تهيئتها سنة 854/ 1450 كما يدل على ذلك ما ورد في النقيشة الموجودة فوق الباب :

---

32) من خلال الخبر الوارد في كتب التاريخ وهو أن قاتل الشيخ القاضي القسنطيني الإمام بجامع الزيتونة قد قتل اثر جريمته تحت الصومعة وكان ذلك في سنة 842 هـ انظر **إتحاف** الجزء 7 ص 62 وغيره.

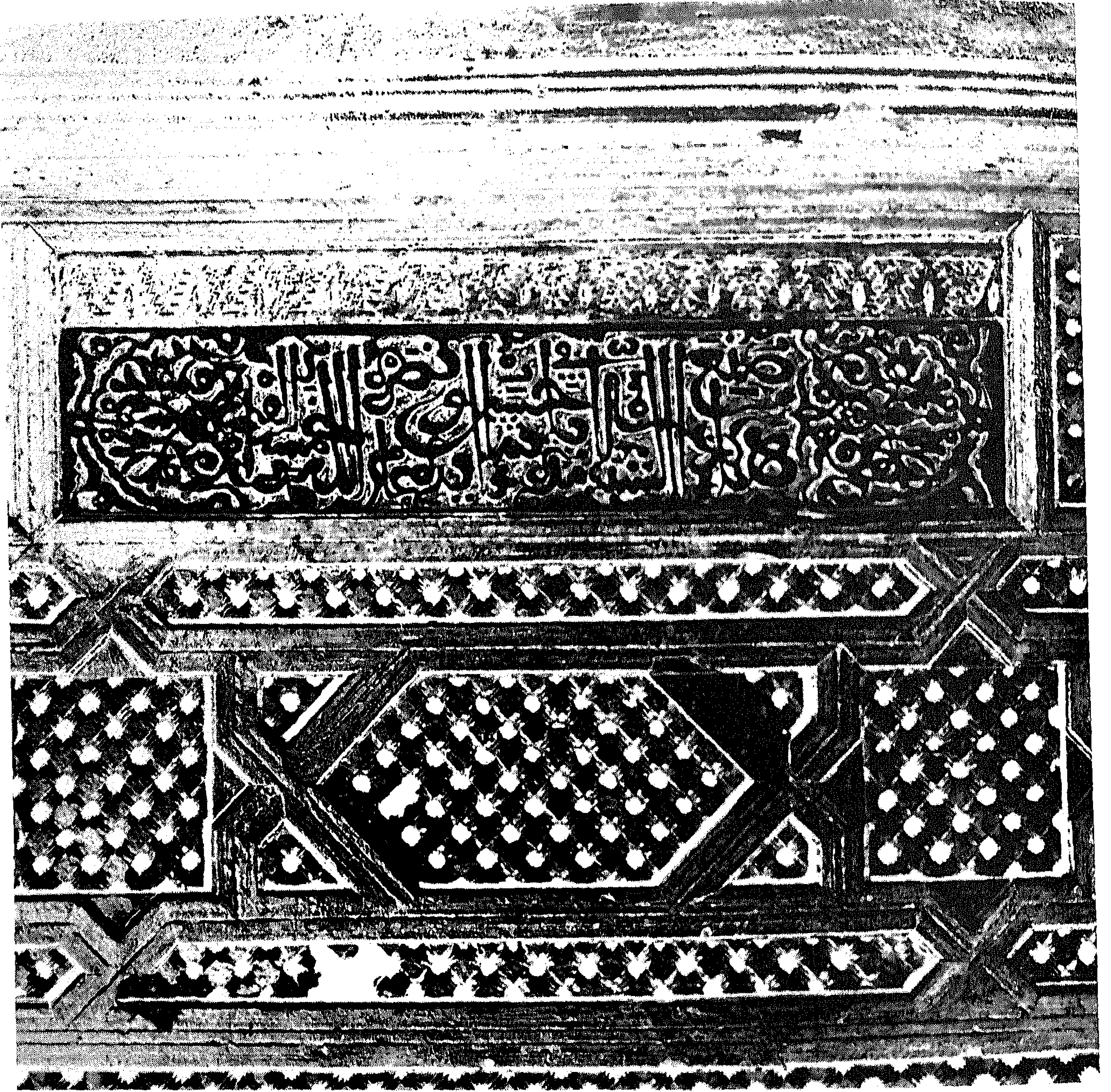
32 مكرر) الزركشي : **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**. ص 31 وكرسوال ص 324.

33) ابن الشماع : **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**. تونس (تحقيق المعموري)، 1984 ص 106.

34) روبار برنشفيك : **تاريخ افريقية**... الجزء الثاني ص 312. إلّا أن تلميذه البرزلي استنكر ذلك.

35) برنفشفيك : **تاريخ افريقية**... الجزء الثاني ص 312 مستندا الى البرزلي.

35 مكرر) **الحلل**. المجلد 1 ص 577.



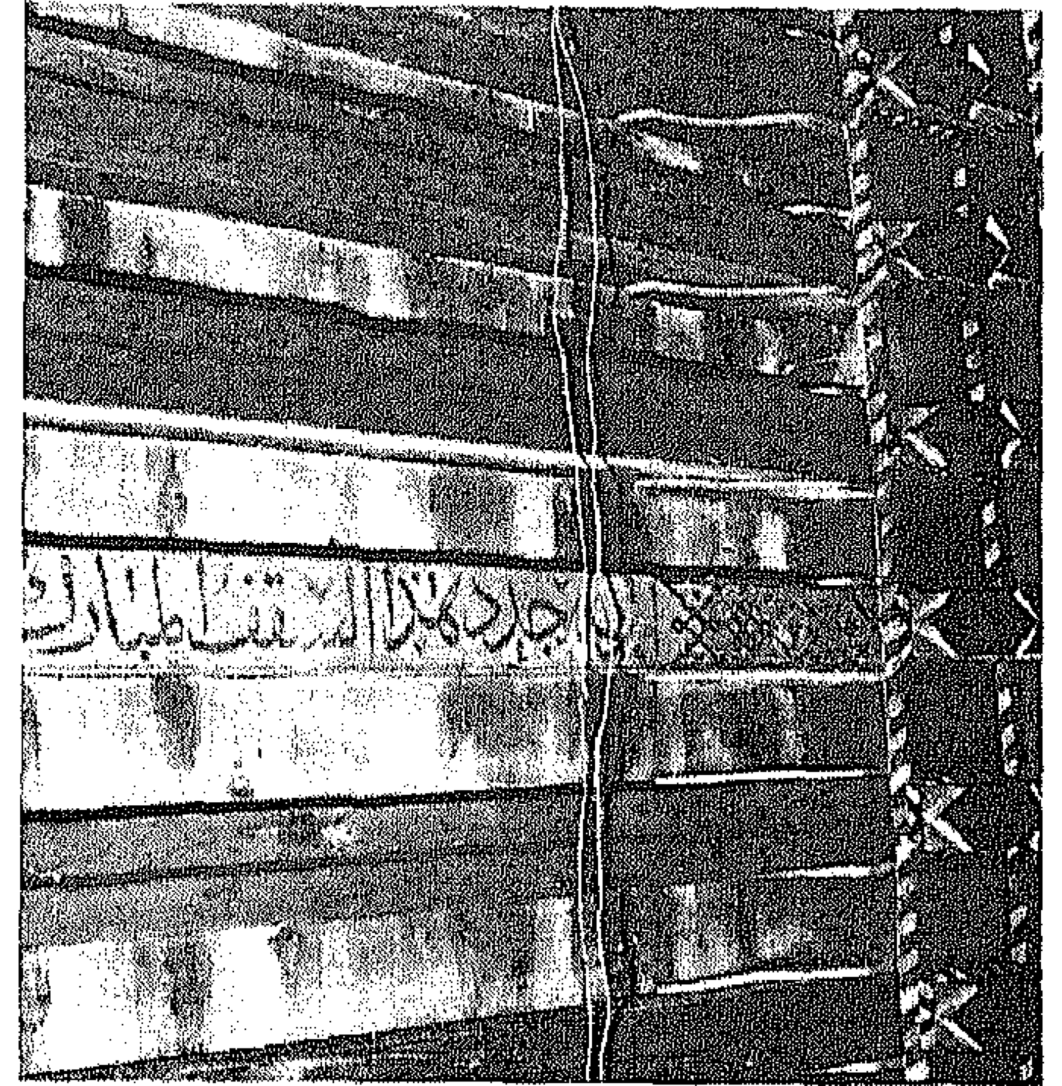
احدى النوافذ التي تمّ صنعها في عهد الباشا حسين بتاريخ 1005 هـ (1596 — 1597 م.)

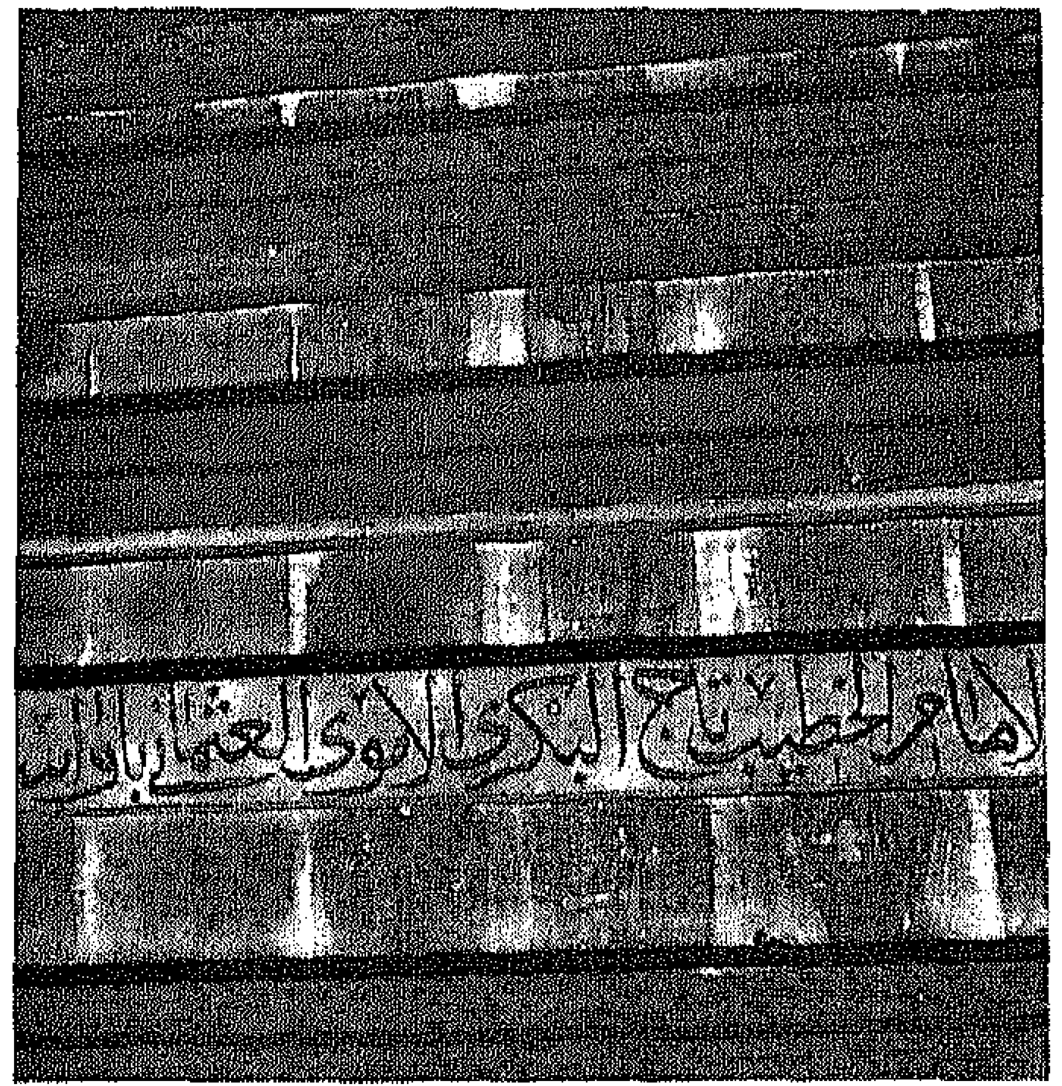
« أمر به الخليفة الإمام أبو عمرو عثمان أيده الله ونصره في عام أربع وخمسين وثمانمائة في رجب ».
ويحتوي هذا الباب على عناصر هندسية وزخرفية ازدهرت في ذلك العهد كالقوس المبنية بالرخام الأبيض والأسود المرصف بالتناوب على غرار ما يوجد بجامع القصبة وغيره من المعالم الحفصية وكذلك الخشب المنقوش.

وتحتوي هذه المكتبة على واجهة جميلة تشرف على سوق « الفكة » هي أنموذج من الفن المعماري والزخرفي الحفصي وبخاصة النافذة ذات القوسين التوأمين المبنيتين بالحجارة الكلسية المعروفة عندنا « بالكذال » والمرتكزتين في وسط النافذة على عمود ذي تاج حفصي تونسي الشكل والنحت (يتسع تدريجيا من قاعدة أسطوانية إلى قسم فوقاني مربع مزخرف على واجهاته الاربع بشكل مستطيل يتوسط كل واجهة من واجهات التاج)(36).

36) وهذا النوع من التيجان ينحدر من التاج الصنهاجي. انظر : G. MARÇAIS **Manuel d'art musulman**, Paris, 1937, I. II, p. 609.

جامع الزيتونة ــ كتابات سقف رواق المحراب





نقيشة على سقف رواق المحراب



صومعة جامع الزيتونة القديمة

أما المكتبة الثالثة فهي المكتبة العبدلية من إنجاز أبي عبد الله محمد (899 ــ 932/ 1493 ــ 1525) في حدود سنة 906 ــ 1500 ويظهر أن البناية الحفصية تداعت وأعيد بناؤها في عهد الصادق باشا باي الحسيني مدة وزارة خير الدين (1290 ــ 1294) (1873 ــ 1877).

وقد أوقف الحفصيون على هذه المكتبات أوقافا تقوم بضرورياتها.

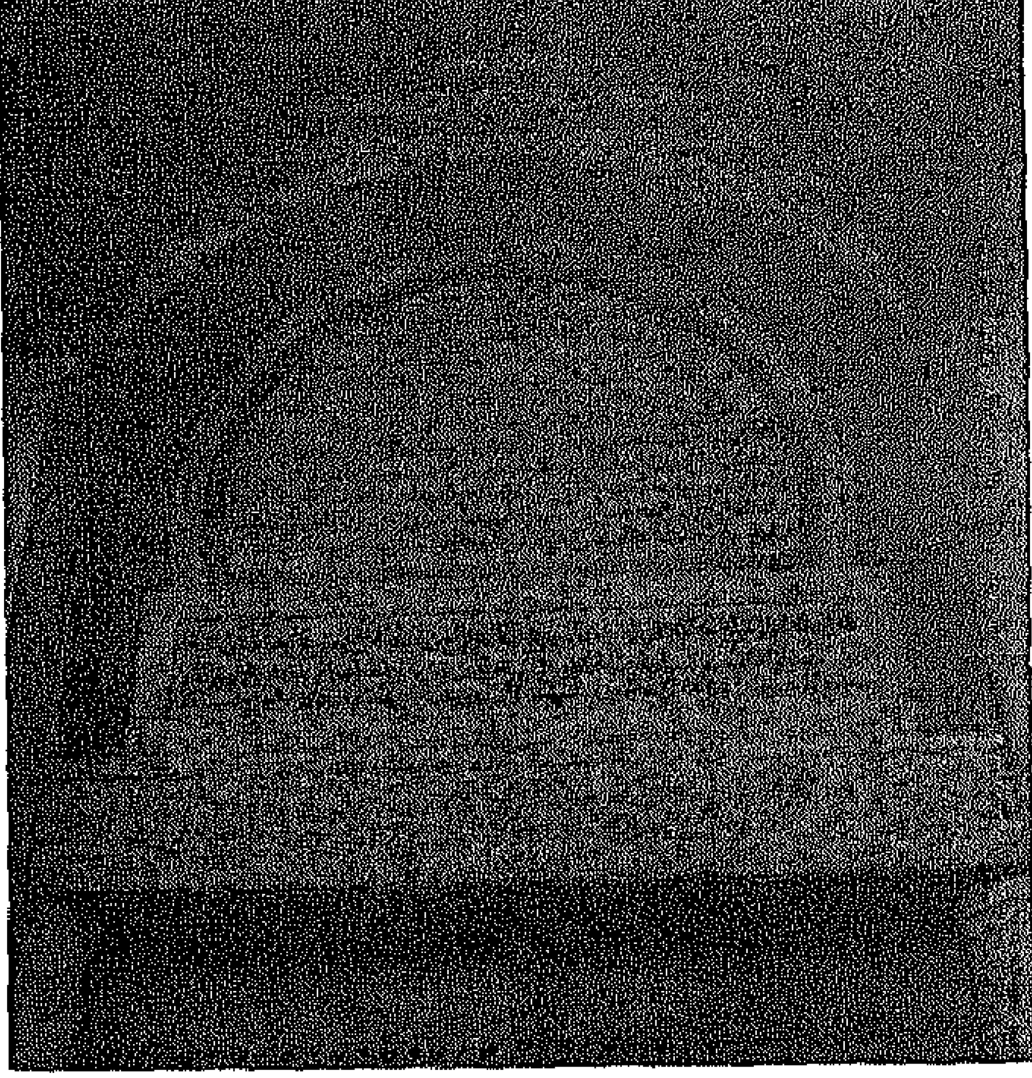
ومن أهم ما قام به الحفصيون لفائدة جامع الزيتونة الأشغال التي أمروا بها لإقامة أجهزة وبنايات لتوفير الماء للشراب والطهارة حذو الجامع أو على مقربة منه.

فالمستنصر أحدث في الجانب الشرقي سبيلا وحوضا تعرف بميضاة الحفيان ومن بعده أبو عمرو عثمان في سنة 841 ــ 1437 فأبو عبد الله محمد.

أما ميضاة السلطان الكائنة في سوق العطارين بالقرب من الجامع فهي من إنجاز السلطان أبي عمرو عثمان وهي أنموذج رائع من الفن الاسلامي في العهد الحفصي امتدت أشغال بنائها من شعبان 852/ أكتوبر 1448 الى رجب 854/ أوت 1450 على يد الشيخ القاضي أحمد القسنطيني وهو يومئذ صاحب الأحباس بتونس[37]. وتمتاز هذه الميضاة بهندسة أنيقة نذكر من بين عناصرها الأعقاد المختلفة الشكل (multilobé,outrepassé, recticurviligne) المبنية بالرخام الأبيض والأسود المرصف بالتناوب حسب الأنموذج المصري المملوكي. وترتكز هذه الأعقاد على أعمدة معتلية بتيجان من النمط الأندلسي ــ المغربي. كما يمتاز هذا المعلم أيضا بزخرفة فاخرة تعتمد على استعمال مكثف للمرمر الأبيض المرصع بالرخام الأسود وعلى أشكال هندسية مكوكبة وغيرها وقد أمر أبو عمرو عثمان بتسخين الماء فيها في زمن الشتاء[38].

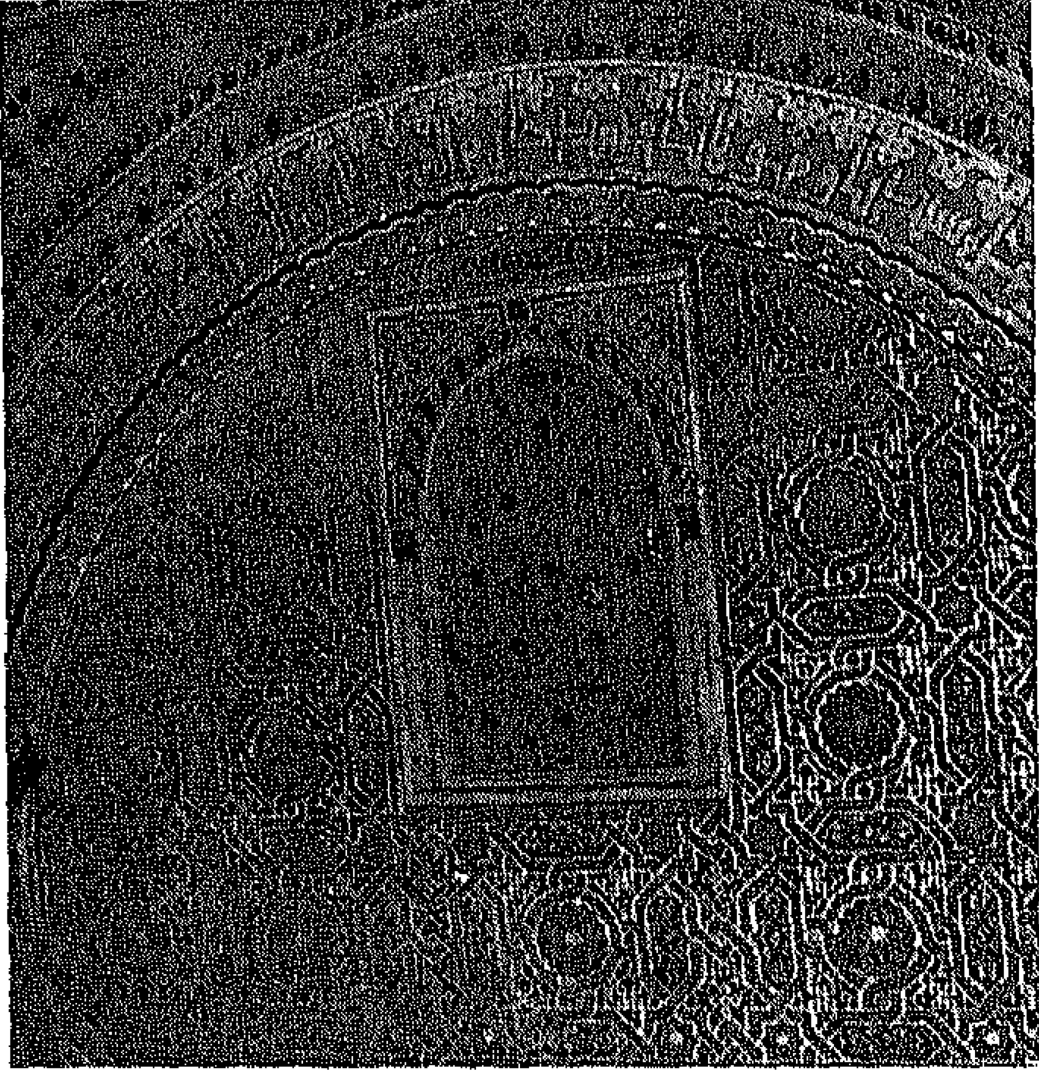
37) الزركشي : **تاريخ الدولتين**... ص 126.

المدخل الرئيسي بالواجهة الشرقية





صحن الجنائز المشرف على سوق الفكة في حدود 1930،
على يمين الصورة : ميضاة الحفيان ونوافذ المكتبة العبدلية



نقائش وكتابات قبة المحراب

وفي أواخر الدولة الحفصية، في عهد محمد الحسن الحفصي تضرر جامع الزيتونة من جرّاء الغزو الاسباني ضررا لا يمكن تقويمه بصفة مدققة إلّا أن المؤرخين نصوا على تمزيق الكتب وأخذ أجمل الأعمدة قصد نقلها إلى أروبا.

وقبل أن نختم هذا الكلام الموجز على إسهام الحفصّيين في عمران جامع الزيتونة يجدر بنا أن نشير إلى مدى تطور هذا المعلم من خارجه نتيجة إحداث أسواق كبيرة محيطة به. فلا شك أن الدكاكين التي تتألف منها هذه الأسواق غيرت هيئة الجامع من خارجه وجعلته مندمجا اندماجا كليا بهذا المحيط التجاري والصناعي معماريا على غرار اندماجه ثقافيا واجتماعيا المتمثل في توزيع أنشطة العديد من الرجال بين القيام بالتعليم أو الشعائر داخل الجامع وتعاطي التجارة أو الصناعة في أحد الدكاكين المحدقة به(39).

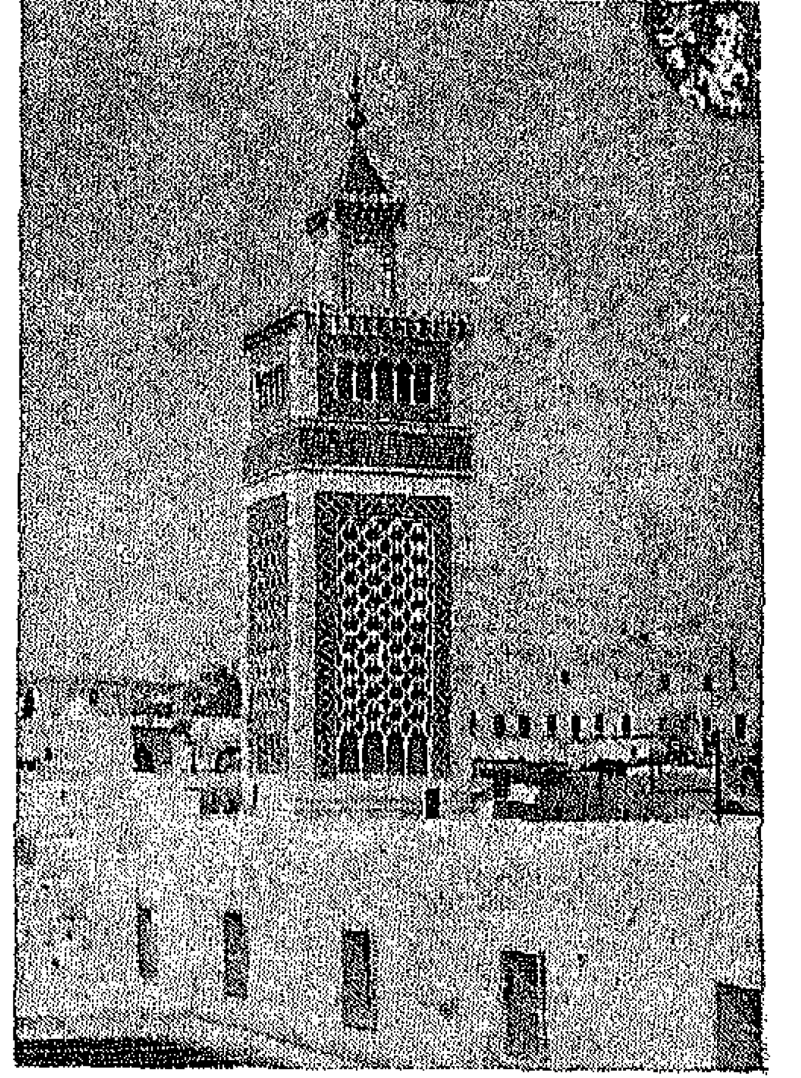
6) جامع الزيتونة من الفتح العثماني إلى ظهور الدولة المرادية (981 – 1041 هـ/1574 – 1631 م) :

أدخل الفتح العثماني المذهب الحنفي في البلاد التونسية من جديد بعد ما انقرض منها مدة تفوق ستة قرون. ولا يخفى أن إقامة جالية متمذهبة بمذهب النعمان أدّت إلى انشاء جوامع تقام فيها الشعائر حسب

38) لمزيد التعمق في معرفة ميضاة السلطان أنظر : عبد العزيز الدولاتلي **مدينة تونس في العهد الحفصي** : ص 157 و 213 وما يليها. بالنسبة لتسخين الماء انظر الزركشي **المصدر المذكور** سابقا ص 119.

39) حول الأسواق التي أحدثت حول الجامع في العهد الحفصي انظر الدولاتلي : ص 36 و 162.

صومعة الجامع ـــ مقطع طولاني


صومعة جامع الزيتونة

طقوس هذا المذهب، بالإضافة إلى ما قام به الفاتحون من تحويل مناسك جامعي القصبة والقصر من المالكية إلى الحنفية. فبإنشاء جوامع جديدة حنفية المذهب ظهرت في تونس نزعة معمارية تقتبس عناصرها وأشكالها من المشرق وبالتحديد من الفن العثماني بعد أن ظهر في مطلع الدولة الحفصية التأثير الموحدي (المعبّر عنه أيضا بالأندلسي ـــ المغربي).

وأول مسجد بُنِيَ في العهد العثماني هو جامع يوسف داي (1021/ 1612) المحتوي على صومعة مثمنة أنيقة على أسلوب المئذنات الشرقية وعلى تربة الآمِر ببناء الجامع ذات القبة الهرمية المكسوة بالقرميد الأخضر. ونسج أيضا يوسف داي على النمط العثماني بإحداثه حذو جامعه مكتبا لتعليم الصبيان ومدرسة لتعليم العلوم الشرعية.

ولئن اعتنت سلط الفتح العثماني بإنشاء أو تهيئة الجوامع فإن هذا الأمر لم يمنعهم من الانكباب على أحوال الجوامع المالكية وفي طليعتها جامع الزيتونة بل سرعان ما قامت بالإصلاحات والترميمات بعد انتهاك جرمة الجامع من طرف الجيوش الإسبانية كما حرصوا على إبقائه رمزا لإشعاع المذهب المالكي بالقطر التونسي.

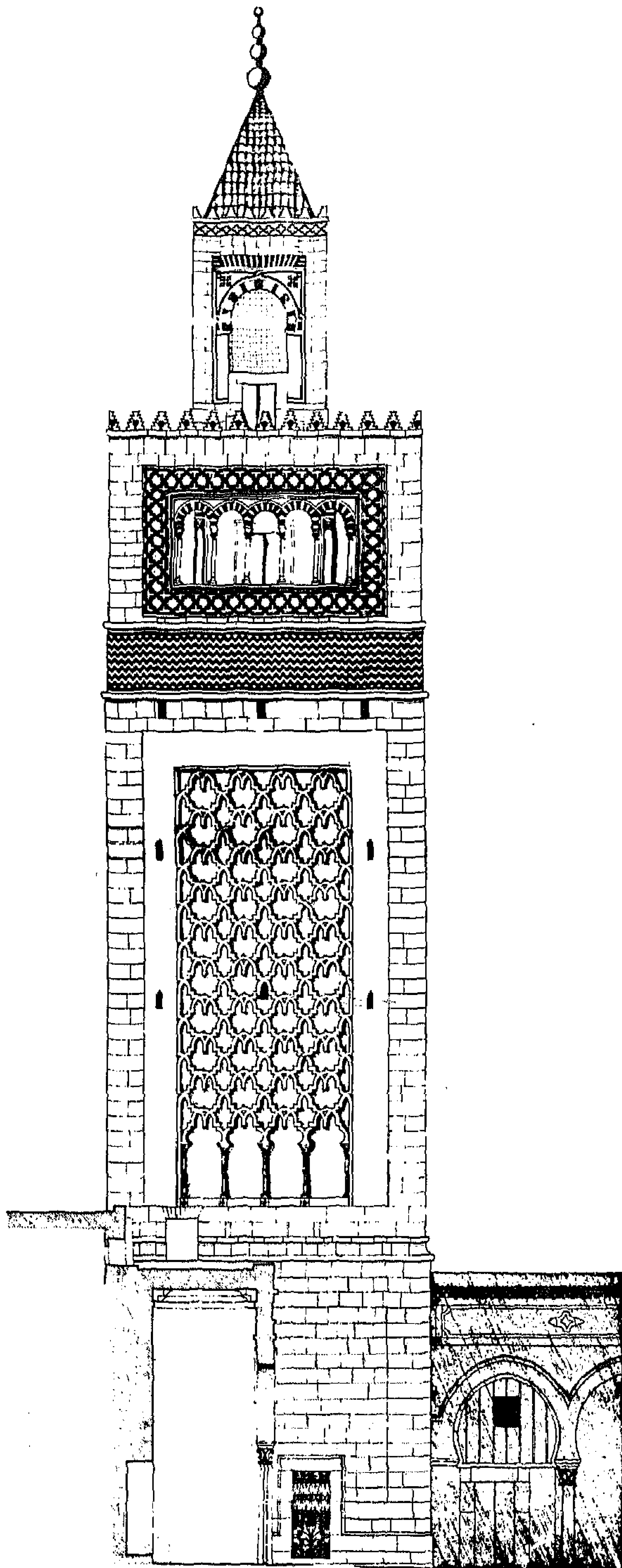
ومما يدل على إسهام الفاتحين العثمانيين في عمران الجامع الشباك المصنوع من الخشب المخروط الكائن بإحدى غرف مقصورة أبي عمرو عثمان وقد كتب عليه ما يلي : « **صنع هذا الشباك في مدة حسين باشا أيده الله ونصره عام خمسة وألف** » (1596 ـــ 1597 م).

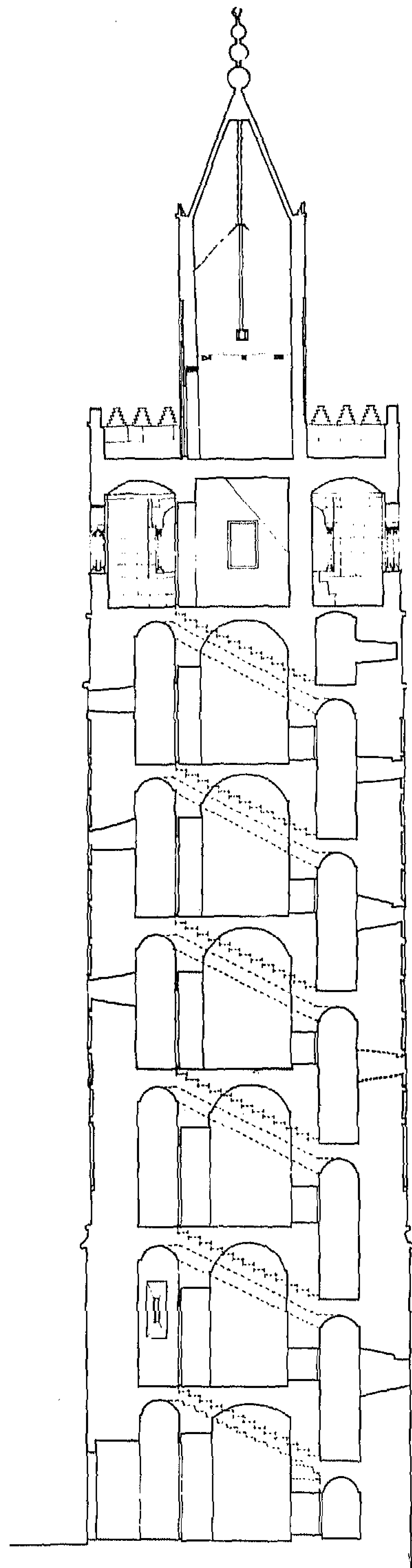
7) جامع الزيتونة في العهد المرادي
(1041 ـــ 1114 هـ/1631 ـــ 1702 م)

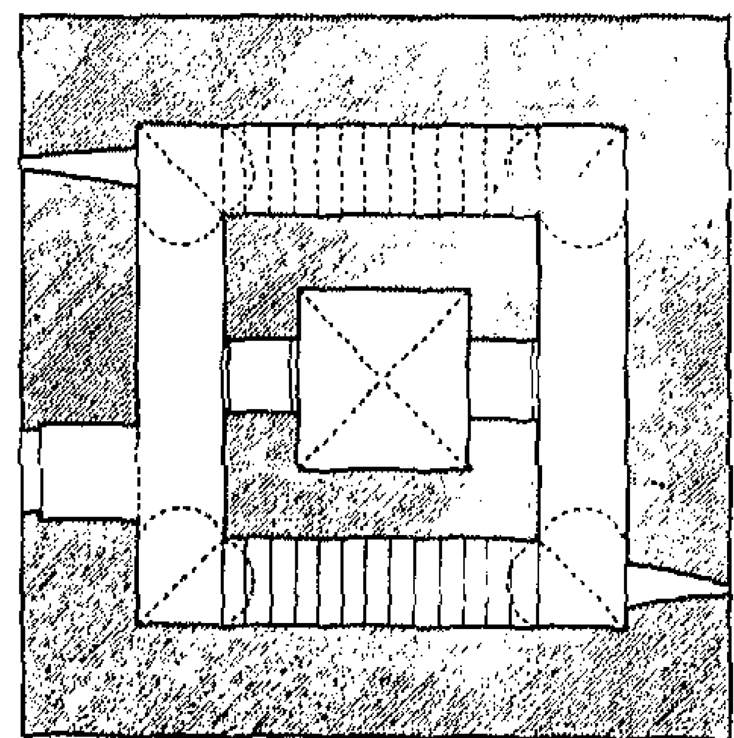
استمرت في مدة البايات المراديين ظاهرة إنشاء الجوامع الحنفية في مدينة تونس فبنى حمودة باشا ابن مراد (1041 ـــ 1076/ 1631 ـــ 1666) جامعه البديع على مقربة من جامع الزيتونة وبه تربته الأنيقة في هندستها وزخرفتها. وتواتر عند الناس أن مهندس الصومعة الفخمة لهذا الجامع المقتبسة من مئذنة جامع يوسف داي، من أسرة النيقرو الأندلسية التي ينتمي إليها أيضا أحد مهندسي صومعة جامع الزيتونة في أواخر القرن الماضي الميلادي.

ثم بنى محمد باي المرادي جامعه المعروف بجامع سيدي محرز لقربه من زاوية هذا الشيخ وانفرد هذا الجامع عن الجوامع التونسية الأخرى بهندسته المتأثرة تأثرا قويا بالقواعد المعمارية التركية (قبة نصف كروية كبيرة ترتكز على ركائز لا على أعمدة وحولها قباب أصغر) وزخرفته على غاية من الفخامة (خزف ورخام، نقش على الجبس).

المعهد القومي للآثار والفنون - ادارة المعالم التاريخية والمواقع الاثرية - تونس : جامع الزيتونة

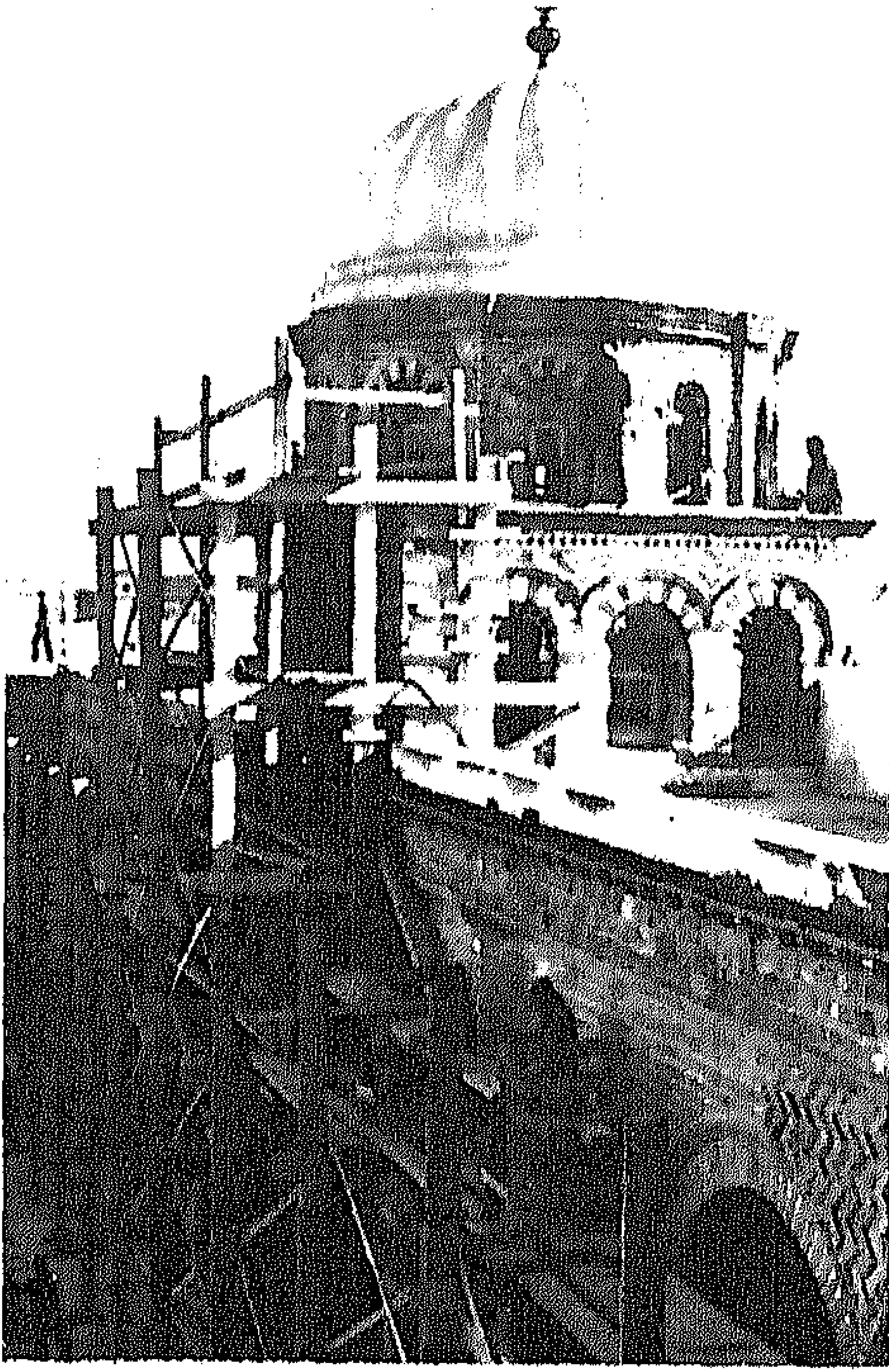


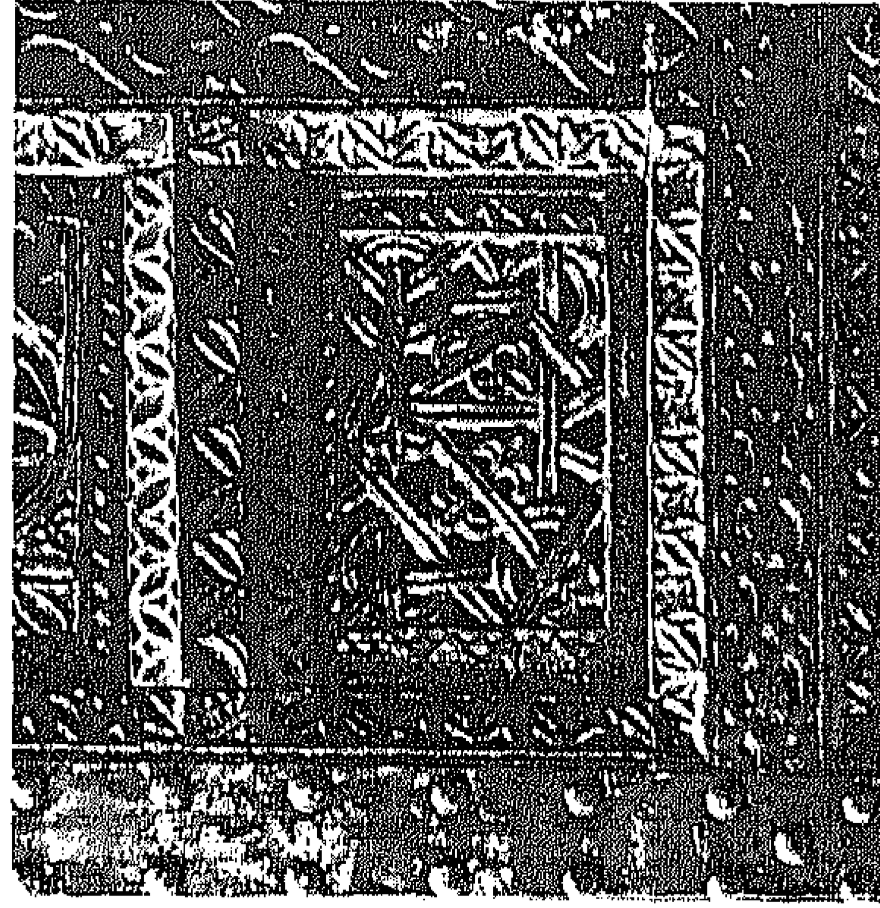




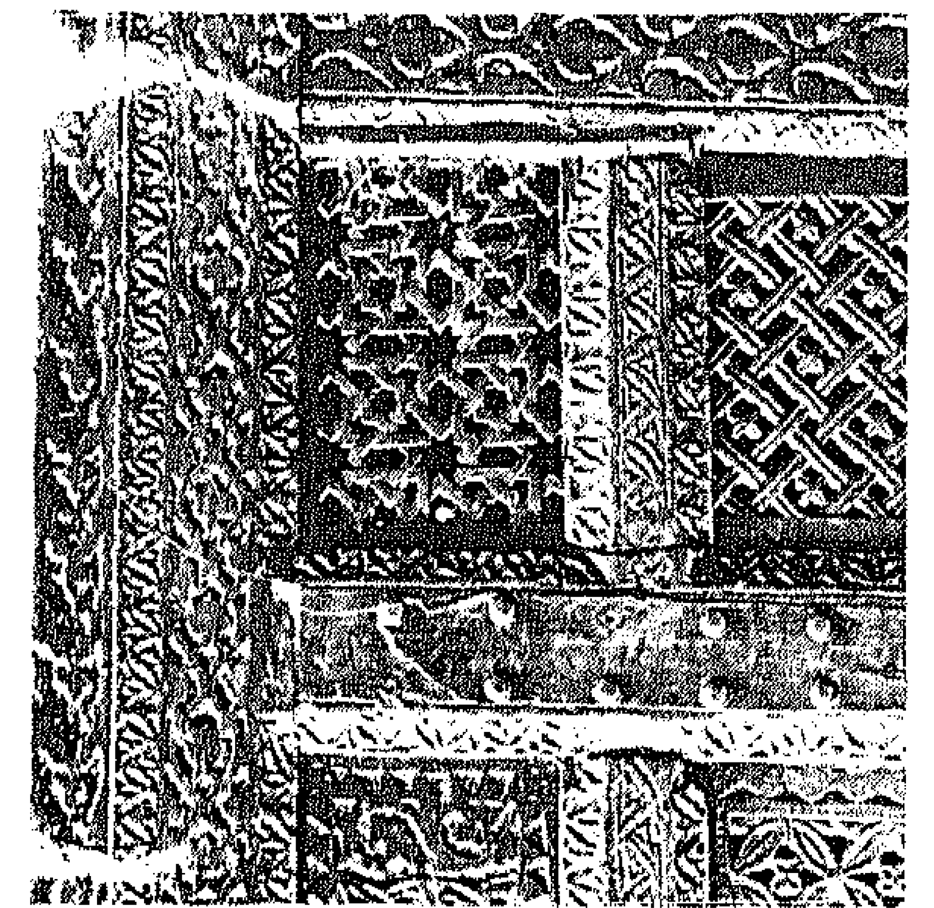
0 1 2 3 4 5

قبة البهو أثناء الترميم





جزئيات من المنبر تبين كيفية التخشيش على الخشب



وقد اعتنى بايات الدولة المرادية وأصحاب السلطة السياسية بالعاصمة (الدايات) بمواضع العلم فإن الداي أحمد خوجة (1050 ـــ 57/ 1630 ـــ 73) هو الذي أحيا المدرستين الحفصيتين الشماعية والعنقية بعد خرابهما أما مراد باي ابن حمودة باشا فقد بنى في سنة 1084/ 1673 المدرسة المرادية بالقرب من جامع الزيتونة في سوق القماش عوض فندق لسكنى الجند التركي.

أمّا فيما يخص الجامع الأعظم جامع الزيتونة فالجدير بالإشارة هو ما قام به أبو محمد حمودة باشا المرادي (المعروف أيضا بمحمد) من أشغال لترميم وتحسين الصومعة الحفصية في سنة 1063 ـــ 1652 كما تشير إليه قصيدة الشريف السوسي التي كانت مرسومة بواجهة الصومعة المجددة التي هدمت في أواخر القرن الماضي الميلادي وعوضت بالصومعة الحالية.

ـــ « تأمل نقوش الحسن صنعت بالأيدي ـــ فلطف البنا ينبيك عن جوهر الفرد

(...)

ـــ فمن مثل مولانا بحضرة تونس ـــ محمد باي ثابت الفصل والمجد

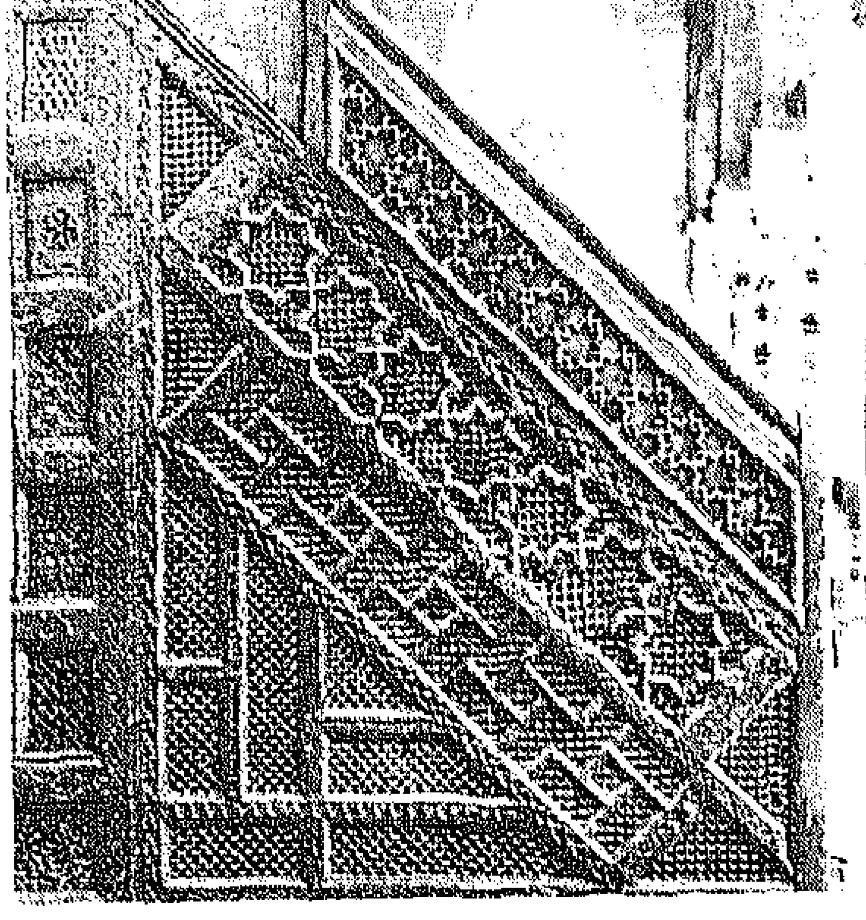
(...)

ـــ ينادي الورى تم البناء فأرخوا ـــ بنائي عليه رونق الملك بالسعد »[40].

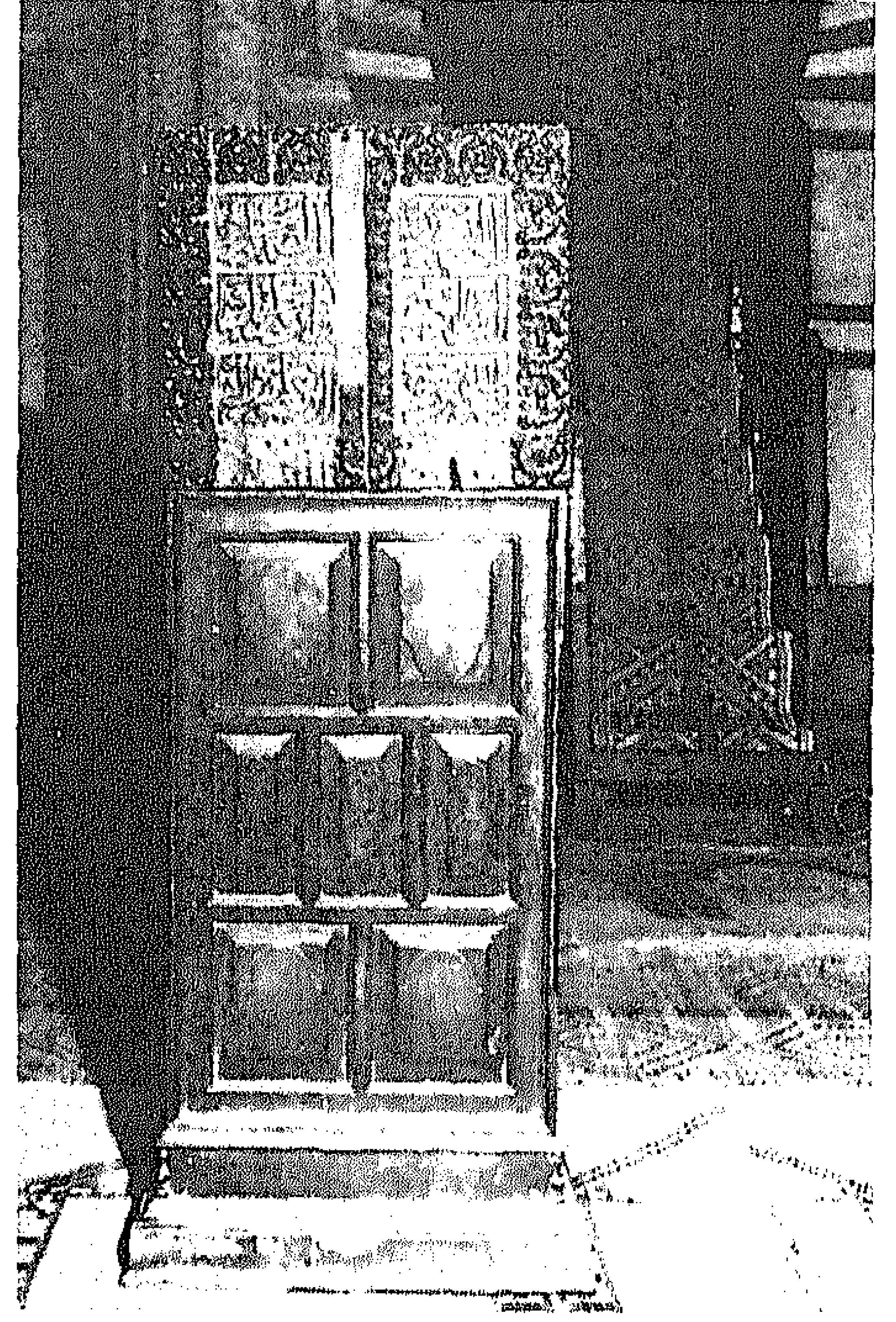
وزاد في ارتفاعها حتى بلغ الثلاثين مترا وجعل في أعلاها أروقة ذات خمسة أقواس في كل واجهة تقي المؤذنين من الحرّ في الصيف ومن البرد في الشتاء.

ويبدو أن هذه المدة والمدة التي سبقتها (أي عهد يوسف داي) اتصفت ببروز دور الأعيان غير رجال الدولة في عمران جامع الزيتونة وبخاصة دور آل البكري (بكسر الباء أو بضمها والأخير هو الجاري على الألسنة) التي توارث أفرادها إمامة الجامع الأعظم والتصرف في شؤونه من سنة 1034 (1624) إلى سنة 1277/ (1812) أي مدة تقارب المائة والتسعين سنة بالحساب الشمسي، حتى أطلق عليهم ابن أبي الضياف لفظ « الدولة البكرية »[41].

40) محمد الحشايشي : **تاريخ جامع الزيتونة** : (تحقيق الجيلاني ابن الحاج يحيى) تونس 1974 ص 19.



المنبر



المنبر وخزانة مقرىء القرآن

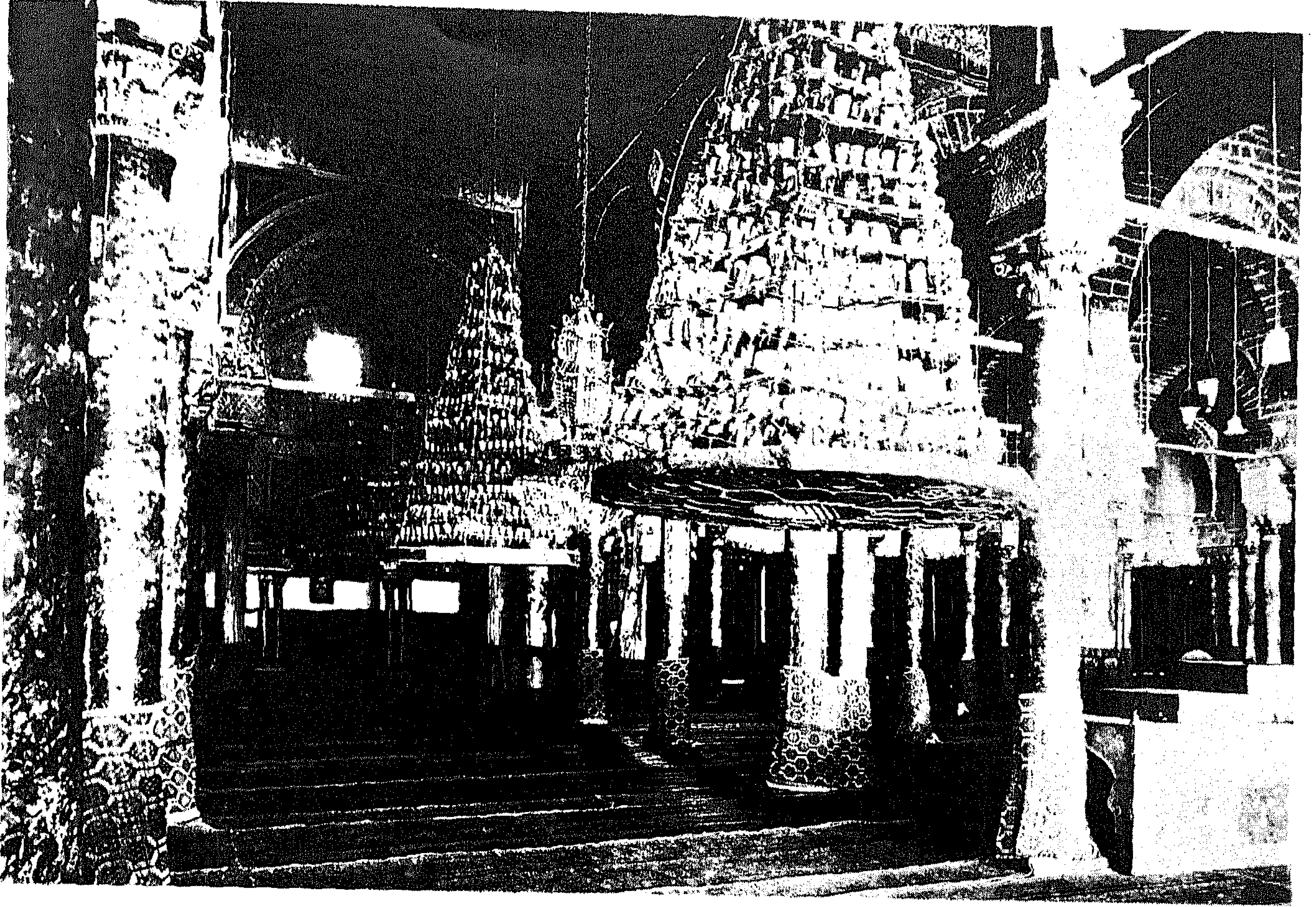
ومن أهم الإنجازات البكرية تجديد وتحسين وتسقيف الرواق الشرقي المعروف بصحن الجنائز بأمر من الإمام تاج العارفين البكري في أواخر دولة يوسف داي وتمت الأشغال في جمادى الأولى 1047 (1637) كما ورد في النقيشة الرخامية التي وضعت داخل الصحن وإليك نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطاهرين الطيبين وأصحابه أنجم المهتدين ممّا أذن الله سبحانه وتعالى برفعه فيسر عمله وأعان عليه بتوفيقه وهديه فتمّ بحوله وتأييده إنشاء هذه المجنبة الشرقية والزيادة المقبولة المستحسنة المرضية المحدثة بصحن الجنائز من أولها الى آخرها وسقفها وكذلك الدرج الطالع الكبير الملاصق للسقاية والدرج الطالع الملاصق للمقصورة المولوية العثمانية(•) وتبليط الصحن المذكور كل ذلك بأمر الشيخ الإمام الهمام شيخ مشائخ الاسلام عمدة العلماء الأعلام وحيد دهره وفريد عصره العالم الرباني أبي عبد الله محمد تاج العارفين العثماني ونظره السّديد أبقا الله ذكره وخلّد سرّه وكذلك أمر حفظه الله تعالى بإحياء السقاية المذكورة وتجديدها وتسديدها بعد اندراسها وهي التي أنشأها المرحوم برحمة الله تعالى أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز عام ثمانية وأربعين وستمائة ثم أحياها بعد ذلك المرحوم برحمة الله تعالى أمير المؤمنين أبو عمرو عثمان سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وردّها لأصلها السّابق لينتفع منها الفقراء والمساكين بالشرب والاستسقاء وقفا مؤبدا جاريا كما كان حالها سابقا. قال الله العظيم على لسان نبيّه الكريم فمن بدّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم كل ذلك ابتغاء ثواب الله سبحانه وتعالى للمتصرفين من عباده المخلصين في جمادى الأولى عام سبعة وأربعين وألف عرف الله بركته المنفق والمتسبّب والسّاعي في شيء منه صنعه محمد الأندلسي ابن غالب ».

---

41) ابن أبي الضياف : **إتحاف** 7 ص 69. اشتهر البكريون بثروتهم المنجرة إليهم من الشيخ أبي الغيث القشاش صاحب الزاوية الشهيرة بالعاصمة وقد قام هو أيضا بالتصرف في إدارة جامع الزيتونة والشيخ أبو الغيث القشاش هو والد زوجة الشيخ تاج العارفين البكري أول من ولي إمامة الجامع من هذا البيت. انظر مزيد التفاصيل في الباب الثالث من هذا الكتاب.

•) المقصورة المولوية العثمانية اشارة الى نسب الأسرة البكرية.

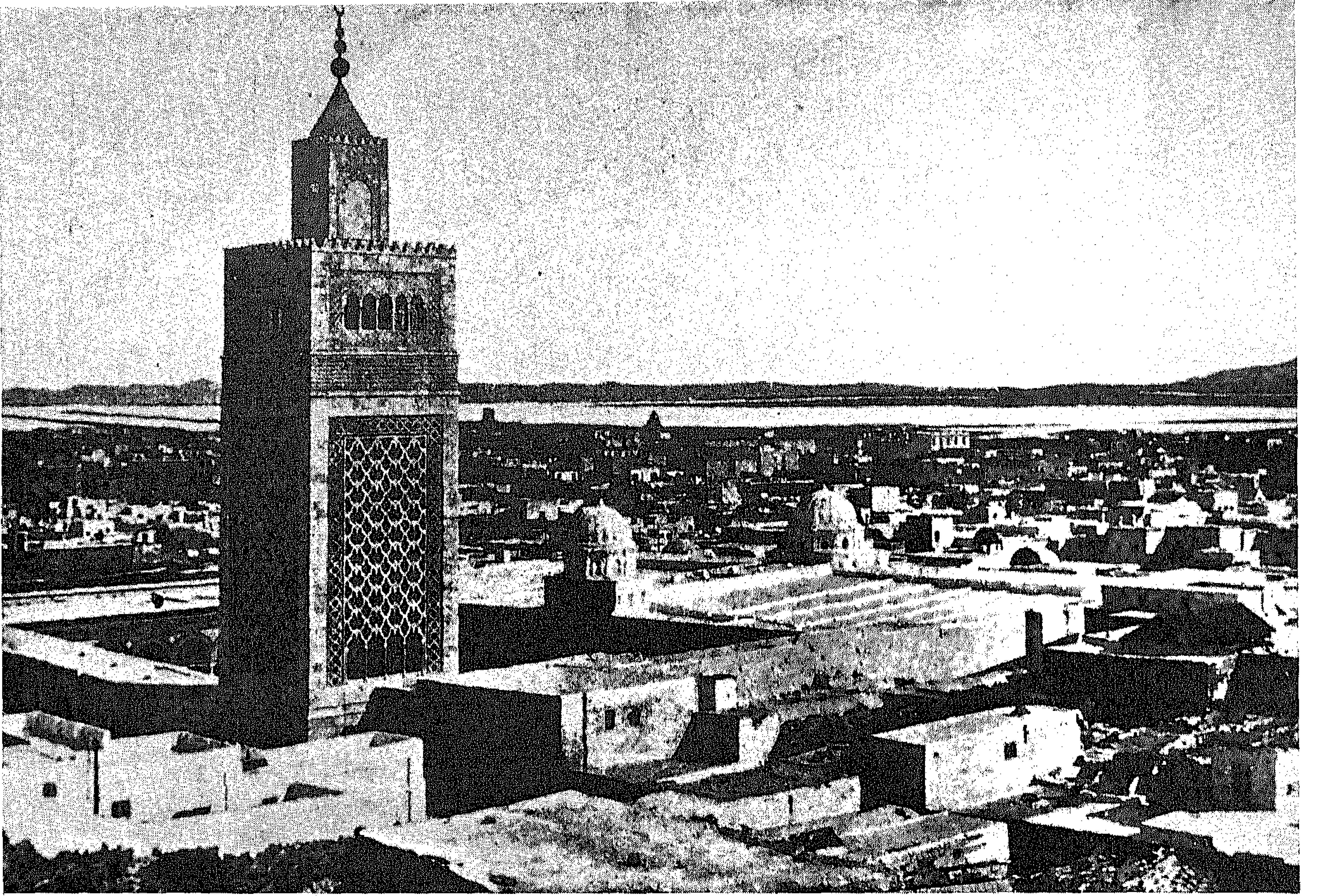


بيت الصلاة والقناديل العتيقة في أواخر الثلاثينات

ويتصف هذا الرواق المزدوج بالتكامل الأنيق بين حجارة « الحرش » المرصفة المبنية بها الأقواس وحجارة « الكذال » الكلسية المكونة للأعمدة والتيجان ذات النمط الحفصي التونسي كما استعملت حجارة الكذال لتبليط أرضية الرواق والمدرج.

واعتنى الإمام تاج العارفين البكري بتزويق بيت الصلاة فأمر بكساء حائط المحراب بالجبس المنقوش بأشكال بديعة على الأسلوب المعروف في الاصطلاح التونسي « بالنقشة حديدة ». ولعل هذا الشيخ هو الذي أخرج من المحراب نقوشا رآها غير لائقة بحرمة المحراب وأمر بوضعها في أماكن مرتفعة من بيت الصلاة حتى لا تلفت نظر المصلّين(42). كما تمّ على عهد البكريين تجديد بعض سقوف الجامع. ويروى أن جدّهم للأم الولي الصالح الشيخ أبا الغيث القشاش جدد سقف بيت الصلاة وقد تواصلت عادة إسهام الأيمة وغيرهم من أعيان سدنة الجامع في عمرانه في العهد الحسيني من ريع الأحباس المخصصة لذلك أو من ماهم الخاص.

42) انظر م. س. زبيس : محاضرة باريس المذكورة **والقباب التونسية**... ص 18.



منظر عام لجامع الزيتونة في مطلع القرن العشرين

8) جامع الزيتونة في العهد الحسيني (1317 ـــ 1377/ 1705 ـــ 1957) :

اهتم حسين باي ابن علي مؤسس الدولة الحسينية ومن توارث بعده العرش اهتماما بالغا بشؤون الدين والعلم فاقوا في ذلك كل من سبقهم منذ الفتح العثماني. وكأنهم أرادوا بعملهم هذا إحياء سنن الدولة الحفصية في عنفوانها.

لم يصرف البايات الحسينيون اهتمامهم لإحداث جوامع حنفية باستثناء حسين باي ابن علي الذي بنى سنة 1139 ـــ 1726 جامعه المعروف بالجامع الجديد ضمن مركب اشتمل ايضا على مدرسة وتربة. بل كانت سياستهم العمرانية الدينية ترمي إلى انشاء مدارس للتعليم وإقامة الطلبة الحنفية والمالكية وأوقفوا عليها أوقافا لفائدة المشائخ المدرسين بها والطلبة كمدرسة النخلة بجوار جامع الزيتونة (1126/ 1714) والمدرسة الحسينية الصغرى (1128/ 1716) ومدرسة الجامع الجديد (1139/ 1726) ومدرسة حوانيت عاشور والمدرسة الباشية (1166/ 1752) والمدرسة السليمانية (1168/ 1754) ومدرسة بئر الحجار (1170/ 1756) والمدرسة الحسينية الكبرى (في حدود 1190/ 1776) وقد ساهم رجال الدولة وذوو البر

والإحسان من أبناء البلاد في هذا المجال بإنشاء المدارس. واستمر ذلك طيلة العهد الحسيني : مدرسة الأغا أحمد، مدرسة أحمد بن متيشة، مدرسة سيدي أحمد الباهي، مدرسة يوسف صاحب الطابع ومدرسة الشيخ ابن ملوكة ثم في النصف الأول من القرن العشرين أحدثت المدرسة الدّغرية والمدرسة الحمزية بالإضافة إلى المدرستين التي أذن بانشائهما محمد الحبيب باشا باي (1922 — 1929).

أمّا اعتناء بايات الدولة الحسينية بجامع الزيتونة فقد توجه بالدرجة الأولى إلى احياء التعليم فيه وتوفير الأسباب لإقامة الشعائر وترتيل القرآن ورواية الحديث على أحسن وجه بإحداث الأوقاف لفائدة المدرسين والقراء وغيرهم وما انفكت هذه العناية تنمو حتى بلغت أوجها في مدة المشير الأول أحمد باشا باي (1253 — 1271/ 1837 — 1855) صاحب تنظيم التعليم في سنة 1261 (1842) وسنتعرض إلى ذلك في الباب الثالث. ولئن لم يكتس إسهام الحسينيين في عمران الجامع الطابع الرائع الذي اكتساه دورهم في ميداني الشعائر والتعليم فإن اهتمامهم به غير ضئيل نذكر من مظاهر هذا الاعتناء جلب الماء إلى الجامع في عهد علي باي (1172 — 1196/ 1759 — 1782)(43). ولا شك أن أهم ما أحدث بجامع الزيتونة في العهد الحسيني هو عملية تعويض الصومعة القديمة الحفصية ثم المرادية التي تداعت للسقوط في سنة 1310 — 1892 بصومعة بديعة تمّ بناؤها بإشراف جمعية الأوقاف في سنة 1312 — 1894 على عهد علي باي (1300 — 1320/ 1882 — 1902). وشكل هذه الصومعة المرتفعة الى 43 م اقتبسه مهندساها الأمينان سليمان النيقرو والطاهر بن صابر من النمط المغربي الأندلسي الذي ظهر في تونس عند بناء جامع القصبة في مبادىء الدولة الحفصية وقد نجح سعيهما إذ جاءت الصومعة على غاية من الأناقة والبهجة والأصالة، أرخها عالم العصر الشيخ سالم بوحاجب بقصيدة نقشت على المرمر ووضعت على حائط قاعدة المئذنة من جهة سوق العطارين طالعها :

« نال فوزا بمنـــــاه كل ساع   كي يرى مشمول فضل ذي اتساع

ومنها :

(...)

إذ باعـــلاء المنـــار تعـــتلي   كلمـــة الله ويمتـــد السمـــاع

أما بيت التاريخ :

ولسان الصدق قد أرخــــــه   لمنــــار الديــــن حق الارتفـــاع

وقد أشرنا فيما سبق إلى دور الوزير مصطفى خزنه دار في تجديد أعمدة الأروقة الثلاثة بصحن الجامع. أما الأيمة وأعيان موظفي الجامع مثل الوكيل فقد حرصوا على تدعيمه وتحسينه كتجديد سقوف بيت الصلاة وأروقة الصحن في عهد الشيخ محمد الشريف والشيخ محمود محسن الأول وغيرهما كما تدل على ذلك النقائش المرسومة على خشب بعض السقوف.

ولئن كان تمويل هذه الأشغال في غالب الحالات من مداخيل أوقاف الجامع المعدة لهذا الغرض فقد يكون أحيانا بفضل تبرع أحد أعيان الجامع بماله الخاص مثل ما قام به الحاج أحمد القسنطيني وكيل الجامع وأحد كبار تجار العاصمة (المتوفى في 1235 — 1820) من تزويق رؤوس أعمدة بيت الصلاة بالنقش ولما شرع في ذلك أنكر عليه أحد الشيوخ قائلا « **تصرف من حبس الجامع في غير مصلحة ومن غير مشورة الأيمة ؟**» فقال له الوكيل « **أنا غير محجور علي في مالي فإذا تبرعت منه لا أستشير إماما ولا غيره** »(44).

وفي الختام نشير إلى عملية إحياء زخرفة قبتي الجامع وتنظيفها سنة 1937 على عهد أحمد باي الثاني.

---

43) حمودة بن عبد العزيز : **الكتاب الباشي**، تحقيق محمد ماضور تونس.

44) أحمد ابن أبي الضياف **اتحاف**، الجزء 7 ص 119.

9) جامع الزيتونة في عهد الجمهورية :

حرصت دولة الجمهورية على غرار النظم السياسية التي سبقتها من لدن الفتح الإسلامي على تدعيم وتحسين الجامع الأعظم جامع الزيتونة وقد تميزت هذه الأعمال بالمراقبة العلمية التي أنيطت بعهدة المعهد القومي للآثار والفنون حتى تكون عمليات التحسين محفوفة بالضمانات اللازمة للمحافظة على التراث ومصحوبة بترميمات وأبحاث.

فمن بين الترميمات تعويض أعمدة تيجان متداعية، حرص المعهد القومي للآثار في النسج على منوال السلف في استعمال الآثار القديمة فعوّضت الأعمدة والتيجان المذكورة بقِطع تمّ اقتناؤها من مواقع رومانية كقرطاج ودقة.

أما الترميمات الأخرى فقد تمثلت في تجديد بعض السقوف وإبراز الزخرفة الأصيلة داخل القبتين وإبراز الرواق الشرقي ومقصورة أبي عمرو عثمان وتهديم قاعة المكتبة العبدلية التي جددت في عهد الصادق باي قصد إرجاع الجناح الأيمن من الرواق على وضعه الاصلي.

أما الحفريات والأسبار فقد أجريت في الخمسينات بقيادة الأستاذ مصطفى سليمان زبيس ثم في الستّينات بقيادة المرحوم محمد الفندري (أسبار في صحن الجامع). أمّا الحملة الثالثة فقد قادها الأستاذ حامد العجّابي في سنة 1975 (الجزء الشرقي، مقصورة أبي عمرو عثمان، مقصورة الإمام).

وتجدر الملاحظة في الختام إلى أن تعويض الثريات والقناديل القديمة بثريات جديدة بغية التحسين والتفخيم قد تسبب في فقدان بعض العينات ذات الصبغة التاريخية والأثرية مثل الثريا الكبيرة المعروفة بالأسيرة أو غيرها — كما أن تهديم ميضاة الحفيان الحفصية يظهر أن لا سبب فيه سوى توسيع الطريق.

أثاث جامع الزيتونة :

أ) **المنبر** : هذا المنبر من الصنع الأغلبي وهو شبيه بمنبر جامع القيروان وإن كان أقل زركشة وإتقانا منه. يقول الدكتور أحمد فكري : « **يتكون منبر القيروان من مائتين واثنين وخمسين لوحة خشبية تنحصر كل منها في إطار زخرفي وتبقّى من منبر الزيتونة أربع وأربعون لوحة إلا أن أجزاء من منبر جامع الزيتونة عوضت في العهد الحفصي** »(45).

ولا شك أنه رمم في العهود الموالية للمدة الحفصية. وتجدر الإشارة إلى أن هذا المنبر يجر على العجلات من الغرفة المعدة له بجانب المحراب إلى مكانه في بيت الصلاة يوم الجمعة على عادة الجوامع المالكية.

ب) **الختمة** : أثاث خشبي مربع معد لحفظ المصاحف التي يعتمدها الشيخ القارىء لترتيل القرآن بالمكان نفسه حسب النظام الذي أشرنا إليه سالفا. وتتركب الختمة من **قطعتين** : قاعدة من صنع حديث وجزء فوقاني مربع بالآيات القرآنية. ويظهر أن صنع هذا الجزء يرجع إلى **عهد قديم** ولعله حفصي.

ج) **التوابيت** : تعني هذه العبارة المصطلحة ثلاثة صناديق خشبية وضعت حذو الختمة لحفظ أسفار الختمة التي كتبها ولي العهد الأمير محمد المسعود الحفصي الذي مات في حياة أبيه أبي عمرو عثمان أوقف عليها أوقافا لفائدة القارىء بها يقرأ كل يوم بعد صلاة الظهر نصف حزب أو ربعه وفي الأعصر الأخيرة تحولت وظيفة تلك التوابيت وصارت محملا لأحذية المصلين أما اليوم فلا وجود لها في بيت الصلاة.

هـ) **خزائن الكتب** : عددها عشرون يرجع تاريخها إلى مدة المشير الأول أحمد باشا باي الحسيني الذي أمر بوضعها داخل بيت الصلاة على يمين المحراب وشماله لتوضع فيها الكتب التي حبسها على جامع الزيتونة في رمضان 1236 — نوفمبر 1840.

45) حسن حسني عبد الوهاب **ورقات**. الجزء الأول ص 120 و 123 وعبد العزيز الدولاتلي : **مدينة تونس في العهد الحفصي**. ص 231.

و) **المعلقة** : تعني هذه العبارة في اصطلاح الجامع الإطار الذهبي الحاوي لنص الأمر الذي أصدره أحمد باشا باي الأول بشأن ترتيب التعليم بجامع الزيتونة في رمضان ـــ 1 ديسمبر 1842، فهو مكتوب بالأحرف الذهبية وقد وضعت هذه المعلقة على الحائط الغربي لبيت الصلاة حذو باب الشفاء.

ي) **الحصر** : لا يعتمد في فرش بيت الصلاة بجامع الزيتونة إلّا على الحصر المصنوعة محليا. ولا توضع الزرابي التونسية القيروانية في المحراب وحوله إلّا في المناسبات كموكب ختم الحديث والمولد وختم الامتحانات. وتتفاعل الحصر تفاعلا مطلقا مع مناخ البلاد في الصيف وفي الشتاء وهي سهلة التنظيف. بحيث لا يجوز تعويضها بالزرابي المنسوجة بالمواد الاصطناعية وغيرها لأسباب صحية زيادة على الأسباب التاريخية والاقتصادية.

وقبل أن نختم هذا الكلام الموجز على أثاث الجامع لا بدّ أن نشير إلى أن الحاجز الخشبي الفاصل اليوم بين ركن النساء وبقية بيت الصلاة لم يكن موجودا وإنما أقيم في عهد قريب مع الملاحظة أن إقبال النساء على الجامع كان نادرا جدّا نظرا لنشاط الجامع المكثف زمن كان معهدا للتعليم.

القسم الثاني

إقامة الشعائر بجامع الزيتونة

يمتاز جامع الزيتونة على بقية مساجد العاصمة بجملة من الخاصيات أولها أنه أقدم المعالم التي رفعت لإعلاء كلمة الله في هاته المدينة ومنها أنه صار رمزا لرسوخ المذهب المالكي وبخاصة بعد الفتح العثماني وظهور المذهب الحنفي من جديد في الديار التونسية. ويمتاز أيضا جامع الزيتونة بتعمير أرجائه في الليل والنهار بتلاوة القرآن ورواية الحديث بفضل تنظيمات دولية وتحابيس خيرية زيادة عن النشاط المكثف بحلقات الدروس.

واقتضت مكانة جامع الزيتونة الرفيعة أن تميز أيضا على سائر الجوامع بأهمية عدد أيمته وسدنته ووفرة التراتيب والمراسم والعادات الخاصة بهم.

كما اقتضت مكانة الجامع انفراده بإحياء بعض المواكب والاجتماعات الدينية.

وقبل أن نستهل حديثنا عن تراتيب جامع الزيتونة عبر العصور يجدر بنا التذكير بأن بناء هذا الجامع متقدم على ظهور مذاهب السنة بافريقية فكانت الصلوات تقام فيه على ما وصل للمؤمنين بتونس من اجتهاد الصحابة والتابعين(1) والظاهر أن ترتيب مناسك الجامع على مقتضى المذهب المالكي يعود إلى عصر الشيخ سيدي علي بن زياد الذي أدخل موطأ الإمام مالك رضي الله عنه إلى تونس ولا شك أن قيام الإمام سحنون بمهام قضاء إفريقية قد عزز هذا الاتجاه في العهد الأغلبي. واستمر جامع الزيتونة قائما على قواعد المذهب المالكي بدون انقطاع إلّا أنّا نجهل ما وقع لهذا الجامع في العهد الفاطمي هل تغيرت تراتيبه على مقتضى المذهب الشيعي المتمذهبة به تلك الدولة أم لا. وغاية ما في علمنا ما ذكره بصفة إجمالية إبن حماد في تاريخه عند حديثه على دولة عبيد الله المهدي قائلا : **« وكان ممّا أحدث عبيدالله أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان وأمر بصيام يومين قبله وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة وأسقط من صلاة الصبح « الصلاة خير من النوم » وزاد حي على خير العمل محمد وعلى خير البشر...»**(2) وممّا يدل على عزم الدولة العبيدية على فرض الطقوس الشيعية ومقاومة الناس لذلك في مدينة تونس ما ورد في كتاب **ترتيب المدارك « وكان بتونس صقلبي أمر الناس الّا يكبروا على الميت إلّا خمس تكبيرات فقال له المشارقة (يعني أهل الشيعة) : أبو كسية (يعني محرز بن خلف) يكبر أربعا ولا يؤذن حي على خير العمل ولا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة ولا يسلم تسليمتين ويؤذن الصلاة خير من النوم فأرسل وراءه فدخل عليه محرز وحول الصقلبي المشارقة فلم يسلم فقال له الصقلبي : السلطان يأمر بكذا وأنت لا تفعل أمر السلطان. احذر من السيف ! فقال له : الصراط أحذر من السيف ومن السلطان وأمره »**(3).

1) محمد ابن الخوجة : **معالم التوحيد**... الطبعة الثانية ص 41.

2) ابن حماد : **اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم** (تحقيق وترجمة المستشرق فون دار حيدان) الجزائر 1927 ص 15 — 16 من النص العربي.

3) انظر : الهادي روجي ادريس : **مناقب الجبنياني ومحرز بن خلف، تونس 1959، ص 155 وترتيب المدارك وتقريب المسالك** للقاضي عياض. (الطبعة الثانية).

نظام الجامع في العهد الحفصي :

تطور نظام الجامع في العهد الحفصي تطورا يدل على مدى ارتقاء مدينة تونس عاصمة الدولة الحفصية وعلى حرص ملوك هذه الدولة لتعمير جامعها العتيق جامع الزيتونة بإقامة الشعائر حسب تراتيب راقية.

فلا بد من التذكير هنا بأن العهد الحفصي شهد تعدد جوامع الخطبة بحيث فَقَدَ جامع الزيتونة انفراده بأمر الجُمعة. أما صلاة العيدين فقد صارت تقام بالمصلّى المتسع الذي أحدثه أبو زكرياء الحفصي، معدد الجوامع خارج سور المدينة وكأنه أراد بذلك الإبقاء على وحدة أهل العاصمة التي لم يتيسر الإبقاء عليها في الجمعة نتيجة ارتفاع عدد سكانها واتساع اطرافها(4).

ولئن فقد جامع الزيتونة هذا الدور فإن مكانته الرفيعة لم تتغير بل زادت بفضل امتيازات تختص به وتجعله يرتفع على بقية الجوامع. ومن أهم هذه الامتيازات عناية أولي الأمر بشأن إمامة الجامع وخطبته وحرصهم على أن لا يتقدم إليهما إلا الراسخون في العلم والمشهورون بالفضل. كما اعتنى أمراء الدولة الحفصية بتعمير أرجاء الجامع بترتيل القرآن فرتبوا الأوقاف لفائدة القراء والقائمين بالشعائر.

تراتيب وعادات جارية في العهد الحفصي :

رغم انتمائهم إلى المذهب الموحدي لم يتشدد ملوك بني أبي حفص في فرض هذا المذهب على الأهالي التونسية نظرا للتخفيفات التي سرعان ما اكتستها نظريتهم الموحدية. إلّا أن بعض الطقوس المنبثقة من تلك النظرية قد تسربت في التراتيب القائمة يومئذ فكان الإعلان عن صلاة الصبح يقع بتونس في حدود سنة 802 هـ / 1400 م حسب الأسلوب الموحدي وهو (الصبح ولله الحمد) كما ذكره الإمام البرزلي(5) ومن التأثيرات الموحدية كيفية الاستشهاد في خطبة الجمعة(6) وكان عمر بن عبد الرفيع قاضي الجماعة بتونس وخطيب جامعها الأعظم جامع الزيتونة لا يقرأ في الخطبة قوله تعالى « **يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا** » (العشر الآيات) لعذر يمنعه من طول الوقوف ويقرأ عشرا غيرها فهدده الوزير الحفصي ابن تافراجين بالعزل فالتزم قراءتها بعد(7). وكان الإمام ابن عرفة يعمل بهذا الأسلوب الموحدي لأنه يرى أن جريان العرف بقراءتها كالشرط المدخول عليه فلا ينبغي ترك قراءتها.

ومن العادات القائمة بجامع الزيتونة في العهد الحفصي ــ وإن لم يختص بها أيضا ــ أسلوب النداء إلى صلاة الجمعة بالتأهيب المستعمل منذ عهد قديم في الإسلام والتحضير على غرار ما يقع به العمل في القيروان وقد اختلف علماء العصر في حكم ذلك فالإمام ابن عرفة اعتبره بدعة حسنة بينما رأى أحد الأيمة الذين سبقوه في التحضير مصيبة قال ابن عرفة إن هذا الإمام سألته امرأة أن يدعو لولدها الأسير وذكرت عظيم مصابه في الأسر واتفق أن سألته والمؤذنون يحضرون فقال « **الذي أصاب الناس في هذه البدعة أشد ممّا أصاب ولدك** »(8).

والجامع الزيتونة عادات يعتمدها الأيمة وإن كانت أشد من حكم المذهب المالكي في هذا الشأن، منها تحجيرهم للجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في الليلة الماطرة أو الشديدة الظلام أو عند كثرة الطين في الأزقة(9).

واختص جامع الزيتونة في ذلك العصر بعادة جرى بها العمل بدون استمرار نظرا لاختلاف الأيمة في أمرها وهي عادة **النقارة** (عبارة على دف من الجلد يضرب عليها) ظهر استعمالها مدة الشيخ عبد الله بن البراء التونسي إمام الخمس بجامع الزيتونة لأنه « **كان إذا أتى للجامع أكثر ما يجلس باصطبل بإزاء باب الجنائز**

4) محمد الفاضل ابن عاشور **ومضات فكر** الجزء الثاني ص 250.
5) انظر روبار برشفيك تعريب حمادي الساحلي، **المصدر المذكور** الجزء الثاني ص 313.
6) **المصدر نفسه** الجزء الثاني ص 314.
7) **الحلل** الجزء الأول ص 576.
8) **الحلل** الجزء الأول ص 560 برنشفيك ــ الساحلي ــ الجزء 2، ص 314.
9) ابن ابي زيد القيروان : **الرسالة**، الجزائر 1945 ص 82 وبرنشفيك ــ الساحلي الجزء الثاني ص 313.

فإذا رآه المؤذن هناك أقام الصلاة وقليل جلوسه في الدويرة (يعني المقصورة المعدة للإمام) (...) » فربما دخل المؤذن الشك في حضور الإمام فيضرب سدنة الجامع على النقارة إعلاما بحضوره وكان ذلك بقلة وندور[10].

وعلى ذكر استعمال الآلات نشير هنا إلى عادة خاصة بشهر رمضان كانت جارية في العهد الحفصي وهي عادة استعمال البوقات التي كانت تدق في جامع الزيتونة وغيره من الجوامع الكبيرة للإعلان على وقت الإمساك وقد وافق الإمام ابن عرفة علي ذلك باعتبارها لا تشبه الآلات الموسيقية المعدة للملاهي[11] وعلى ذكر دويرة الإمام نذكر عادة بعض الأيمة في مطالعة كتب الأدب فيها كمثل الإمام ابن عبد البراء المذكور الذي كان يجلس لرواية مقامات الحريري مع ما فيها من المثالب « اذ ليس للدويرة حكم الجامع »[12].

والظاهر أن ملوك الدولة الحفصية لا يحضرون في جامع الزيتونة إلّا نادرا كعادتهم في أداء صلاة الجمعة فيه عند رجوعهم من المحلة[13] أو حضورهم في موكب ختم الحديث الذي سنتعرض إليه بعد حين.

أمّا الاجراءات التي اتخذت لزيادة الترفيه على المصلين فمن أهمها ما أحدثه السلطان أبو عمرو عثمان وهي إقامة قلاع على صحن الجامع كل يوم جمعة في فصل الصيف ليقي الناس من حر الشمس. قال العبدري في رحلته : « **دائر صحنه (يعني جامع الزيتونة) مسقف ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدار وشدت إليها حبال متينة في حلق من حديد متينة فيها وفي السقوف شدًّا محكما فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظل جميع الفضاء** »[14].

وفيما يتعلق بالصلاة على الجنازة فقد ذكرنا سابقا إنشاء صحن معد لذلك في الجانب الشرقي للجامع في العهد الحفصي احتراما للقاعدة السنية التي تستنكر حمل جثث الأموات إلى المساجد. ومن ذلك التأسيس جرت العادة بإقامة صلاة الجنازة في هذا الصحن ما عدى بعض الحالات تقع فيها الصلاة أمام باب البهو.

ويبدو أن من العادات التي أحدثت في العهد الحفصي عادة رصد هلال الشهر من أعلى جامع الزيتونة في مكان معدّ لذلك يعرف بمجنبّة الهلال ويقع ذلك كل شهر بحضور قاضي الأهلة. وعندما يثبت وجود الهلال يذهب القاضي لإعلام السلطان بذلك وقد استمرت هذه العادة إلى آخر العهد الحسيني يقدم القاضي المالكي إلى الجامع ويجلس بالمحراب ريثما يثبت دخول الشهر القمري فيعلم بذلك الباي.

قراءة القرآن ورواية الحديث : اعتنى ملوك بني أبي حفص بتعمير جامع الزيتونة بترتيل القرآن ورواية الحديث فأحدثوا لهذا الغرض حلقات وحِصصا أوقفوا عليها العقارات والأراضي حتى تكتسي منشآتهم صبغة مؤبدة ويستفيد القائمون بها بمداخيل قارة. فأقام السلطان أبو العباس أحمد (772 — 796/ 1370 — 1393) قراءة أسباع القرآن أو حزب السبع (وقيل حزب الأسبوع) الذي يرتل فيه جماعات من القراء السبع من القرآن يوميا ويقع الختم في كل يوم جمعة بالمقصورة الكائنة غربي جامع الزيتونة. وأوقف السلطان على هذا الحزب أوقافا نافعة. ثم أحدث ابنه السلطان أبو فارس عبد العزيز (796 — 837/ 1394 — 1434) عادة قراءة صحيح البخاري في كل يوم بعد صلاة الظهر بجامع الزيتونة وقراءة كتاب الشفاء للقاضي عياض وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ عبد العظيم المنذري بعد العصر وأوقف لذلك وقفا للقيام بها. وفي عام 869 (1464 م) أمر السلطان أبو عمرو عثمان بترتيل القرآن بجامع الزيتونة قبل صلاة الصبح وقبل صلاة الظهر والعصر بالختمة العظيمة الشأن المهدية من الأندلس ورتب لذلك أربعة من القراء أصواتهم حسنة وأوقف عليهم أوقافا ضمنت لهم دخلا سنويا ممتازا وتجدر الإشارة إلى أن هذه الختمة وقع تركها في وقت ما ويقول الوزير السراج إن نائب الجامع في عصره (القرن الثاني عشر الهجري — الثامن عشر الميلادي) أخبره بوجودها مهملة في مقصورة من مقصورات الجامع[15].

---

10) الزركشي : **تاريخ الدولتين...** ص 61.

11) برنشفيك — الساحلي « الجزء الثاني » ص 322 — 323.

12) **الحلل**، الجزء 2 ص 589.

13) برنشفيك — الساحلي الجزء 2 ص 315.

14) العبدري زار تونس في سنة 688 هـ 1289 م، ذكره السراج في **الحلل** الجزء 1 ص 560.

15) الزركشي، ص 139 — 140، ابن ابي دينار ص 149 **الحلل** ص 609 — 610.

كما اكتست عناية الأسرة الحفصية بالجامع الأعظم صبغة أخرى تمثلت في قيام ولي العهد محمد المسعود ابن أبي عمرو عثمان بنسخ الختمة القرآنية في عدة مجلدات ذكرناها آنفا عند الحديث عن أثاث جامع الزيتونة. وبالإضافة إلى الأوقاف المحدثة من طرف الملوك الحفصيين حظيت تلاوة القرآن بالجامع بعناية بعض المحسنين من الخواص الذين تبرعوا من مالهم كمثل الإمام ابن عرفة الذي أوقف رباعا تفرق أكريتها على القراء بجامع الزيتونة في آخر كل شهر نحو الإثنين والعشرين دينارا(16).

أمّا من الناحية التشريفاتية فقد حرص الملوك الحفصيون على إعطاء مواكب أختام صحيح البخاري أبّهة تدل على رفعة شأن رواية الحديث عندهم، فكان السلطان يحضر بنفسه موكب ختم الحديث الذي يقام بجامع الزيتونة في شهر رمضان ومن مراسم هذا الموكب أن الدعاء عقب الختم يقوله قاضي الأنكحة(17).

الإمامة والخطابة في العهد الحفصي :

لم يكن في العهد الحفصي بجامع الزيتونة غير أمامين : الإمام الخطيب وإمام الصلوات الخمس. وربما جمعت الخطتان في شخص واحد كابن عرفة والغبريني والمسراتي وابن عقاب والونشريسي. ومن أيمة الخمس من ينتقل فيما بعد إلى الخطابة ومنهم من لم ينتقل.

الأيمة الخطباء : اتفق المؤرخون على الدرجة الرفيعة التي بلغت إليها خطابة جامع الزيتونة في العهد الحفصي إلا أنّا لا ندري هل كانت رفعة شأنها نتيجة عناية الحفصيين وإحياء الحركة العلمية في عهدهم أم هي مجرد استمرار وضع قديم نُسب فضلُ إحداثه إلى الدولة الحفصية بسبب قلة ما لدينا من الأخبار حول إمامة جامع الزيتونة في الحقب التي سبقت الحقبة الحفصية.

ولا شك أن ارتقاء مدينة تونس إلى مرتبة قاعدة ملك قد زاد في شأن جامعها الأعظم وبالتالي في عناية أولي الأمر بمنصب الخطابة فيه ومهما كان الأمر فإن المطلع على قائمة أسماء خطباء جامع الزيتونة في العهد الحفصي يدرك منزلتها المجيدة في تاريخ هذا المعلم : ناهيك بذكر الإمام ابن عرفة وتلميذيه أبي مهدي عيسى الغبريني وأبي القاسم البرزلي. وجرت العادة عند الخطباء باستخلاف من يثقون به عند الاقتضاء ينوب عنهم في سائر مهامهم. فقد استخلف الإمام ابن عرفة مثلا لما قام بفريضة الحج تلميذه الغبريني في الصلاة وفي الفتوى واستخلف في الخطبة تلميذه أيضا الشيخ محمد البطريني.

ومن خاصيات الخطابة بجامع الزيتونة في العهد الحفصي قيام بعض أصحابها بخطة قضاء الجماعة وهم على حسب ما وصل إلينا من أخبار خطباء الجامع في ذلك العهد : ابن عرفة والغبريني وأبو القاسم القسنطيني وابن عقاب. ومن الخطباء من ولي القضاء ثم استعفى وأبعّد عنه ثم ولي الخطابة كمثل أحمد القلشاني وحفيده محمد ومحمد الرصاع. وهنالك من ولي قضاءً فرعيا مع الخطابة كمثل الشيخ عبد الله البحيري الذي كان خطيبا بالجامع الأعظم وقاضي الأنكحة بتونس وكذلك الخطيب أحمد القسنطيني.

ويروى عن الإمام ابن عرفة كلامٌ يدل على أن الجمع بين الإمامة والقضاء لم يستحسنه عرف تونس لأنه مظنة أن لا يرضى الخصوم الصلاة وراء من هو محل نفورهم أو غضبهم(18). بل يصل الغضب إلى حد يؤدي إلى ارتكاب جريمة فالشيخ أبو القاسم القسنطيني قاضي الجماعة وإمام خطيب بجامع الزيتونة قد قتل سنة 1442/846 بسكّين(19). وتجدر الإشارة إلى أن خطيب الجامع، زيادة على قيامه بإمامة الصلوات الخمس وولايته القضاء، قد تضاف إليه مهمة أخرى وهي الفتيا ومسمّاها أن يجلس صاحب هذه الخطة بالجامع بعد صلاة الجمعة لإفادة السائلين فيما يحتاجون فيه لأهل العلم من أمور دينهم(20). ومن الخطباء

---

16) عبد اللطيف المرداسي التونسي (القرن العاشر الهجري) **الذخيرة السنية في شرح الأطعمة السنية ص 77.**

17) يقول روبار برنشفيك. على الأقل خلال القرن الخامس عشر للميلاد **المصدر المذكور** الجزء ص 323. **والحلل** الجزء 1 ص 608 — 609.

18) **الحلل**، المجلد الأول ص 573.

19) **اتحاف**... الجزء 7، ص 62.

20) ابن ابي دينار، **المؤنس**، ص 276.

الذين قاموا بأعباء هذا الصنف من الفتيا محمد بن عرفة وأبو القاسم البرزلي وأبو عبد الله الرصاع. وقد يكون هذا المنصب بين يدي غير الخطيب فالشيخ محمد القلشاني مثلا كان خطيبا بجامع القصبة ومفتيا بجامع الزيتونة وتجدر الملاحظة إلى أن هذه الفتيا هي غير خطة الفتوى القضائية كما أنها لا تختص بجامع الزيتونة بل كانت قائمة بالجوامع الأخرى كجامع الهواء وجامع القصبة وجامع أبي محمد وجامع باب الجزيرة. والظاهر أن صاحب خطة الفتوى في الجوامع يقتصر على إرشاد الناس شفهيا أما الفتيا بالقلم في الجوامع فهي من صنف آخر، ذكر الزركشي وجودها بجامع التوفيق (جامع الهواء)(21).

وكانت خطة الخطابة بجامع الزيتونة لا تخلو من أخطار. فقد يكون صاحبها عرضة لغضب السلطة السياسية نظرا لرفعة شأنها ومدى تأثير من يتكلم من أعلى منبر جامع الزيتونة على نفوس الناس. ذكرنا في الصفحات السابقة التهديدات التي وجهها الوزير ابن تافراجين. أما السلطان أبو عمرو عثمان فقد أمر سنة 863 هـ (1458 — 1459 م) بتوقيف الشيخ أحمد القسنطيني وعزله عن جميع خططه من قضاء الأنكحة ومن الخطابة بجامع الزيتونة والفتيا به « والدعاء عقب ختم البخاري بالمضرب السعيد عادة قضاء الأنكحة »(22) ولم يمر على تسميته خطيبا الّا بضعة ايام. وبعد أربعة أشهر ونيف ورد الأمر من السلطان برجوعه لسائر وظائفه.

وكان معظم خطباء الجامع على درجة عالية من العلوم الدينية والشرعية واللغوية ناهيك بأيمة المذهب المالكي في عصرهم : ابن عرفة والغبريني والبرزلي وبالعلماء الأعلام أحمد القسنطيني وعمر القلشاني وابن عقاب والبحيري ومحمد بن قاسم الرصاع. وكانت دروس هؤلاء الشيوخ تُلقى إمَّا بالجامع أو في غيره من الأماكن كالمدارس فالشيخ ابن عرفة كان يدرس بالجامع وبالمدرسة التوفيقية... والشيخ ابن عصفور يلقي دروسه بمدرسة ابن تافراجين وابن عبد السلام يجلس لبث العلم بالمدرسة الشماعية ومدة قليلة بالمدرسة العنقية(23). وللخطباء جامع الزيتونة النظر في شؤونه المتصلة بالشعائر، طبعًا، وكذلك ما يحدث فيه من المنشآت العلمية فلما أحدث السلطان أبو عبد الله مكتبته بالجناح الشرقي للجامع جعل النظر عليها للإمام ابن عصفور(24).

أيمة جامع الزيتونة غير الخطباء : لقد سبق أن قلنا إن من خطباء جامع الزيتونة من كان إمامًا به في الوقت نفسه إلّا أن الفصل بين الخطتين قد ورد. فمن الأيمة من كان خطيبا بجامع آخر من الجوامع المالكية وإمامًا للخمس بجامع الزيتونة فهذا ابن عبد البراء التنوخي كان إماما بالجامع الأعظم وخطيبا بجامع القصبة وهذا محمد المسراتي تولى إمامة جامع الزيتونة وخطبة جامع القصبة أيضا ومنهم من يقتصر على إمامة الخمس بالجامع مثل أبي اسحاق البسيلي والشيخ أبي الحسن اللحياني وغيرهما.

ومن الخطباء من كان إماما بجامع الزيتونة ثم ارتقى إلى الخطابة كمثل ابن عرفة الذي ولي الإمامة في سنة 755/ 1354 ثم أضيفت له الخطبة سنة 772 ثم الفتيا بالجامع في السنة الموالية وكذلك الشيخ محمد المسراتي كان إماما ثم أضيفت له الخطابة بعد وفاة الخطيب عمر القلشاني في سنة 847/ 1444.

اشتهر عدد كبير من خطباء وأيمة جامع الزيتونة في العهد الحفصي بميلهم إلى البساطة بل إلى الزهد زيادة على علمهم ومواضبتهم في القيام بمهامهم. فمنهم الإمام الخطيب ابن عبد الستار (المتوفى في 749/ 1348 — 1349) كان على غاية من الورع والتواضع يخطب يوم الجمعة بثياب صلاته فإذا كان من الغد لبس جبّة خشنة وجعل على ظهر حماره الرشاء وساقه بيده خارجا لجنانه الذي منه يعيش ويخدمه بيده. أما الإمام ابن عرفة فقد كان يقوم في جامع الزيتونة العشر الأواخر من شهر رمضان في كل عام حتى عجز قرب وفاته. وهو الذي قال فيه تلميذه أبو مهدي عيسى الغبريني « لم يُر ولم يُسمع بمثل سيدي ابن عرفة في ثلاثة : الصيام والقيام وتلاوة القرآن » كما كان متواضعا في لباسه يقال إن أهل تونس هم الذين أنكروا عليه الدخول

21) **تاريخ الدولتين** ص 133 و**الحلل** 1، ص 609.
22) **الحلل**، 1، ص 608.
23) **الحلل** الجزء 1، 594 و 610 و الزركشي **تاريخ الدولتين**... ص 58.
24) ابن ابي دينار : **المؤنس** ص 150.
25) **الحلل**، 1، ص 596 و 607.

للجامع والخروج منه حافيا فابتكر المداس من الحلفاء يمشي بها في المسجد للخروج إلى صلاة الجنازة[26] ومن الخطباء الذين اشتهروا بصلاحهم وورعهم وزهدهم وميلهم للخمول الشيخ محمد ابن أبي بكر الونشريسي المغربي المتوفى في 853 هـ (1449).

قائمة خطباء جامع الزيتونة في العهد الحفصي[27]

يجدر بنا أن ننتبه إلى عدم تسلسل هذه القائمة لانقطاع ذلك أولا : ما بين ظهور الدولة الحفصية وسنة 772 هـ ثم بالنسبة للفترة الممتدة من 904 إلى الفتح العثماني سنة 981 هـ.

(...)

ــ أبو محمد عبد الحميد ابن أبي الدنيا الطرابلسي : قاضي الجماعة بتونس. ولي خطابة جامع الزيتونة. توفي سنة 684 هـ (1285 ــ 1286).

(...)

ــ أبو موسى هارون الحميري. توفي في 726 أو 729.

ــ أبو اسحاق ابراهيم بن الحسن بن علي بن عبد الرفيع الربيعي (637 ــ 733 / 1239 ــ 1333) قاضي تونس وخطيب جامع الزيتونة. وقد ذكرنا اسم هذا الشيخ لما تحدثنا عن أشغال الترميم في العهد الحفصي.

ــ أبو عبد الله بن عبد الستار التميمي التونسي توفي سنة 749/ 1348 ــ 1349 كان عالما صالحا درّس التفسير والأصول والفروع والحديث في إحدى مدارس العاصمة تسمى مدرسة الكتبيين[28].

(...)

ــ محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي : لقبه الشيخ إسماعيل التميمي « **بالشيخ الإمام شيخ الاسلام علامة الدنيا وحائز قصب السبق في الفنون بلاثنيا العابد الصوام القوام مجد المائة الثامنة أبو عبد الله ابن الشيخ العالم الصالح المتبرك به جار الله سيدي محمد أيضا شهر ابن عرفة الورغمي التونسي** » ولد في 716 (1316 ــ 1317) وتوفي في 803 (1400) تولى إمامة جامع الزيتونة في سنة 755 بعد وفاة الامام ابراهيم البسيلي ثم الخطابة في 772 ثم الفتيا في 773. حج في 792 ــ 793 (1389/1390/1391) له من التآليف مختصر الفقه ومختصر في المنطق وفي أصول الدين وفي النحو وعدة تقريرات له ايضا دروس في التفسير وصلتنا برواية الأبّي والبسيلي والسلاوي[29].

ــ أبو مهدي عيسى الغبريني : تلميذ ابن عرفة قاضي الجماعة وإمام خطيب بجامع الزيتونة. توفي في 815 (1412). من أشهر تلاميذه ابن ناجي.

ــ أبو القاسم بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن المعتل البرزلي القيرواني التونسي تلميذ ابن عرفة وأحد أيمة المذهب المالكي. صاحب **الحاوي للفتاوي والنوازل** توفي في 841 (1437) وقيل 843 أو 844.

---

26) **الحلل**، ص 566 و 574.

27) اعتمدنا في إنشاء هذه القائمة على الوثيقة المكتوبة بخط العالم الشيخ إسماعيل التميمي والتي أفاد بها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الأول الشيخ المؤرخ أحمد ابن أبي الضياف وقد ذكر ذلك في قسم التراجم من تاريخه (الجزء السابع) والوثيقة محفوظة بخزانتنا الخاصة وقد أضفنا إلى قائمة التميمي إرشادات التقطناها من بعض المصادر **كرحلة التجاني**، (تونس 1958) والزركشي وابن الشماع وابن أبي دينار والوزير السراج ومحمد مخلوف **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، القاهرة 1349 ومحمد ابن الخوجة : **معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**.

28) **الحلل**، I، ص 610.

29) انظر أطروحة سعد الغراب : **ابن عرفة والمالكية في افريقية في القرن الثامن الهجري** (مرقونة)، وتحقيق حسن المناعي لتفسير ابن عرفة برواية الأبّي (نشر بتونس سنة 1407 في جزئين).

ـــ أبو القاسم الوشتاتي القسنطيني : إمام الجامع وخطيبه ومفتيه وقاضي الجماعة وقد تعرضنا سابقا إلى ظروف قتله سنة 846. وذكر **صاحب ابتسام الغروس في مناقب سيدي أحمد ابن عروس** أن الشيخ محمد القلشاني الآتي ذكره كان يتثاقل عن الصلاة خلف الشيخ أبي القاسم لمنافسة كانت بينهما ولعله يشير إلى الوحشة الناتجة عن كلام أبلغه القسنطيني إلى السلطان في شأن مقالة نسبت للشيخ أحمد شقيق عمر القلشاني أدت إلى اعتقال الشيخ أحمد مدة شهرين[30].

ـــ أبو حفص عمر ابن الشيخ العالم القاضي أبي عبد الله محمد ابن الشيخ العالم ابن محمد القلشاني (773 ـــ 847/ 1371 ـــ 72 ـــ 1443 ـــ 44). قاضي الجماعة وخطيب الجامع الأعظم ومفتيه صاحب شرح الطوالع للبيضاوي في علم الكلام ومختصر ابن الحاجب في علم أصول الفقه.

توفي بالطاعون سنة 847 وقيل 848. وُلي إماما معه الشيخ محمد المسراتي (سماه الزركشي القلجاني والجاري على ألسنة أهل تونس النطق بالراء : القرشاني).

ـــ محمد المسراتي القيرواني التونسي. أضيفت له الخطابة بعد وفاة الشيخ عمر القلشاني. فقيه ومدرس. توفي سنة 850 (1446 ـــ 47).

ـــ أبو عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم بن عقاب الجذامي التونسي : عالم محقق قاضي الجماعة وإمام جامع الزيتونة وخطيبه ومفتيه وشيخ المدرسة المنتصرية توفي في 851 (1447 ـــ 48).

ـــ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الونشريسي المغربي. عدل وإمام جامع الزيتونة وخطيبه، اشتهر بصلاحه توفي في 853 ـــ 1449.

ـــ أبو محمد عبد الله سليمان البحيري : راوي الحديث وقاضي الأنكحة بتونس. تقدم إلى الخطابة والفتيا بجامع الزيتونة وولي معه الإمامة الشيخ أبو الحسن اللحياني ثم الشيخ أبو الحسن الجباس توفي في 858 ـــ 1454.

ـــ أحمد القلشاني : الشيخ العالم شارح مدونة سحنون ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر ابن الحاجب. أخو الشيخ عمر ولي قضاء قسنطينة ثم قضاء الجماعة بتونس ثم تنازل عن الخطة لحفيده محمد واقتصر على الفتيا وخطابة الجامع توفي سنة 863 ـــ 1459.

ـــ أحمد المسراتي : اشتهر هذا الإمام بفضله أضيفت له الخطابة بعد وفاة الشيخ أحمد القلشاني وهو الذي صلّى على الولي الصالح سيدي أحمد ابن عروس في يوم مشهود. توفي 882 (1477 ـــ 1478).

ـــ محمد بن عمر القلشاني : قاضي الجماعة مدة سبع عشرة سنة. رحل إلى القاهرة ثم عاد إلى تونس فسمي خطيبا ومفتيا بجامع الزيتونة ثم صرف توفي في 890 (1485).

ـــ محمد بن القاسم الأنصاري التلمساني التونسي الرصاع : اشتهر بعلمه وبصلاحه. المدرّس والقاضي والمفتي. تولى قضاء المحلة السلطانية ثم قضاء الأنكحة ثم قضاء الجماعة ثم تنازل عنه واقتصر على الفتوى وإمامة جامع الزيتونة وخطبته توفي في 894 (1488 ـــ 1489) له من التآليف شرح على الأسماء النبوية. وأفرد من كتاب مغني اللبيب لابن هشام الشواهد القرآنية ورتبها وتكلم عليها وشرح حلول ابن عرفة وله تأليف في إعراب كلمة الشهادة وتأليف في الفقه وشرح البخاري وشرح في التفسير وله أيضا فتاوى بعضها في المعيار للونشريسي والمازنية وله فهرسة (طبعت بتونس).

ـــ أبو البركات محمد بن محمد القريشي ابن عصفور : كان مدرسا بمدرسة ابن تافراجين ولي النظارة على الأوقاف سنة 875 هـ. صاحب الشيخ العالم البركة سيدي منصور ابن جردان ويقال إنه كان يقطن بعلو بالجامع. توفي سنة 904 (1498 ـــ 1499) وكان أبوه الفقيه محمد المتوفى في 862 ناظرا على الأوقاف أيضا.

---

30) **ابتسام الغروس** : مخطوطة المكتبة الأحمدية ص 417 والزركشي **تاريخ الدولتين** ص 124. **وكفاية المحتاج**.

والإمام ابن عصفور المذكور هنا هو غير العالم النحوي ابي الحسن علي بن موسى الحضرمي الأشبيلي عرف بتونس بابن عصفور المتوفي سنة 597 هـ (1200 ـــ 1201).

سدنة الجامع في العهد الحفصي : لجامع الزيتونة في ذلك العصر سدنة يقومون بمختلف الأعمال الضرورية لحفظ النظام وإقامة الشعائر على الوجه المطلوب كما هو الشأن بالنسبة لسائر المساجد في مختلف العصور إلّا أنّ جامع الزيتونة كان يمتاز بعدد كبير من الخدمة العاملين به والمرتبين حسب سلم وتراتيب تناسب مقام هذا الجامع.

ويشرف على سدنة الجامع من مؤذنين ومكلفين بقم المسجد وفرشه واستصباحه ناظر يسمى في ذلك العهد بالمزوار(31) وهي لفظة بربرية دخلت اللهجة التونسية ومعناها شيخ ومقدم ورئيس.

ولا شك أن لمختلف هذه الرتب ألقابا خاصة لا نعرف منها إلا القليل مثل المؤذنين والقراء طبعًا. وكذلك لقب « صاحب السجادة » الذي كان يطلق على مدرس القراءات بجامع الزيتونة(32).

إقامة الشعائر في العهدين التركي والمرادي :

دخلت البلاد التونسية في أواخر الدولة الحفصية مرحلة اضطرابات تسببت في عجز السلطة السياسية على القيام بدورها في الإشراف على إقامة الشعائر وتعمير المساجد. وقد نتج عن هذا العجز ظهور أمر اتصف به العهدان التركي والمرادي وهو دور المبادرات الفردية في القيام بمصالح جامع الزيتونة والتصرف في شؤونه.

وكان الشيخ الولي المعتقد سيدي أبو الغيث القشاش (959-1031 / 1551-1622) أول من قام بهذا الدور(33) فزيادة على ما اشتهر به من العناية الفائقة بأحوال اللاجئين الأندلسيين ومن بذل الجهد في افتداء الأسارى المسلمين من النصارى، أخذ الشيخ أبو الغيث يتصرف في إدارة العديد من الزوايا والمساجد وكان جامع الزيتونة من بين تلك المجموعة قام الشيخ أبو الغيث القشاش بتسيير أحواله مدة عامين تقريبا. ويظهر أن تصرفه كان مطلقا فله النظر على مداخيله وأيمته وسدنته مع حق التعيين والعزل ويقال إنه زاد في أوقاف الجامع زيادة مكنته من إعادة سقفه وتوفير راتب شهري للأيمة والمؤذنين. وورد في كتاب مناقب الشيخ أبي الغيث أنه استعان ببركاته في مقاومة بعض القادحين في تصرفه والمنكرين عليه استبداده بأمر الجامع. قال مؤلف المناقب : « **حدثني من أثق به قال كان الشيخ المسراتي إماما بجامع الزيتونة بإذن الشيخ سيدي أبي الغيث القشاش وله راتب على إمامته في الجامع معلوم وله ماجل (صهريج) من الماء في جامع الزيتونة معلوم للإمام إن اشتهى شرب منه أو يبيعه زمن القحط من العطش فلما كانت سنة من السنين عدم الماء بتونس من قلة المطر وعطش الخلائق فكان المسراتي أمر ببيع الماء الذي له في الماجل فباعه (...) ثم أراد أن يبيع ماجلا آخر فقال له المؤذنون إن هذا الماجل الذي أمرت ببيعه ما لك فيه شيء لأنه للفقراء والمساكين لو كان سمع سيدي أبو الغيث لا يطيب لك بيعه فقال لهم سيدكم أبو الغيث يريد يعمل تونس كلها في بطنه. ثم إنه وصل الخبر إلى الشيخ فغضب فقال المسراتي أنا أبيعه وأنا إمام الجامع والشيخ ماله مدخل فيه فلما جاء وقت صلاة الظهر ركب بغلته وأتى الجامع فلما صلّى**

---

31) وكانت تطلق ايضا هذه العبارة على صاحب الشرطة في العهد الحفصي واستمرت في العهد الحسيني مع تغيير في مشمولات الخطة إلى أن أبطلها مصطفى باي الحسيني سنة 1252 ـــ 1835 انظر : **إتحاف 4** ص 207.

32) يذكر الزركشي هذا اللقب بدون ان يشرح مسماه بينما وردت في **ذيل بشائر أهل الايمان** لحسين خوجة (القرن 12 هـ ـــ 18 م) لفظة « صاحب سجادة القراءة » في حديثه عن الشيخ حسن العامري القاري المقري المواضب على قراءة التجويد واستفاد منه كثير من المسلمين (الطبعة الثانية ـــ تونس ليبيا ـــ 1395)، ص 212.

33) معظم الأخبار المتعلقة بدور الشيخ أبي الغيث في هذا المضمار وردت في كتاب **مناقب سيدي ابي الغيث القشاش** للمنتصر القفصي. ولا يخفى أن هذا الصنف من التآليف يصعب فيه التمييز بين الأحداث الواقعية والأساطير الّا أنها تكتسي أهمية إخبارية لا بأس بها وبخاصة بالنسبة للتاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي رغم اتصافها بطابع المبالغة.

34) انظر : توفيق البشروش : **Les élites tunisiennes du pouvoir et de la dévotion**, thèse d'Etat, Paris 1981 Tom I pp. 65 - 87

ورجع على بغلته فسقط فتكسرت رجلاه فما قام من تلك الطيحة حتى مات »[35].

ولما توفي الشيخ أبو الغيث القشاش خلفه على زاويته وأملاكه الطائلة صهره زوج ابنته الشيخ العالم علي تاج العارفين العثماني البكري الذي ولي إمامة جامع الزيتونة وخطبته بإشارة من الإمام الخطيب أبي يحي الرصاع[36]. وبولاية تاج العارفين استهل عهد البكريين على رأس جامع الزيتونة توارث أعضاء هذه الأسرة منصب الخطابة مدة 194 سنة مستبدين بأمر الجامع متصرفين في شؤونه تصرفا مطلقا[37] وكان البكريون على غرار ما قام به أبو الغيث القشاش يولون الأيمة والنواب عنهم في الصلاة والخطبة وهم الذين يعينون الوكلاء على الجامع[38].

وكان الشيخ تاج العارفين عالما من الدرجة الرفيعة اشتهر بفضله وكرمه وهو أول إمام من لدن الفتح العثماني تعاطى الحديث رواية ودراية[39].

أيمة جامع الزيتونة وسدنته في العهد البكري :

كان في أول الأمر افراد الأسرة البكرية يقومون بإمامة الخمس بجامع الزيتونة إلى جانب قيام عميدهم بالخطابة فالشيخ أبو الغيث الثاني مثلا كان إماما للخمس زمنَ كان أبوه علي إماما خطيبا[40]. ويستخلف البكريون علماء وفقهاء ينوبون عنهم في إقامة الخمس وخطبة الجمعة عند الاقتضاء. ولما عجز أفراد الأسرة البكرية على القيام بصلاة الجمعة بعد وفاة الشيخ علي بن أبي بكر بن تاج العارفين (المتوفى في 1223 هـ 1808 — 1809 م) صار نائب الخطيب أو الخليفة يقوم بأعباء الخطبة المنبرية بصفة قارة.

ويقوم الأيمة النواب بوظائف أخرى لها علاقة بالجامع كالإشراف على القرّاء أو الشهادة على الأحباس وغير ذلك.

واشتهر معظم هؤلاء الأيمة في زمانهم بعلمهم وتدريسهم علم القراءات والتجويد والفقه واللغة وغيرها. ومن اشهر أيمة جامع الزيتونة بالنيابة أفراد أسرة العامري. فالشيخ علي العامري كان نائبا عن البكريين في الإمامة ومدرسا بالمدرسة العنقية وتولى بعده ابنه الشيخ أبو الفضل العامري إماما نائبا وشيخا على القراء ثم خلفه أخوه الشيخ حسن نائبا وشاهدا على أوقاف الجامع وشيخ القراء. وكان هذا الشيخ عالما في القراءات يدرسها بالجامع الأعظم بلقب « صاحب السجادة » أو « صاحب سجادة القراءة ». أخذ عليه خلق كثير وهو المجيز في علم القراءات في زمنه بجامع الزيتونة[41].

وبعد وفاته خلفه في سنة 1123 (1711 — 1712) ابنه الشيخ حمودة العامري نائبا في الصلوات الخمس وفي الجمعة. وبالإضافة إلى مهامه الشعائرية كان الشيخ حمودة يدرس الفقه والنحو وبخاصة علم القراءات والتجويد بمقصورة جامع الزيتونة. كما اشتهر بفضله وصلاحه[42].

أما فيما يتعلق بسدنة الجامع فالظاهر أن نظام الشعائر استمر على الوجه الذي كان عليه في العهد الحفصي كما استمر تعمير أرجاء الجامع بتلاوة القرآن حسب التراتيب الموضوعة من طرف الملوك الحفصيين بل وقع تعزيزها بإحداث أحزاب أخرى كالحزب الذي رتبته الأميرة المحسنة عزيزة عثمانة (المتوفاة في 1080 —

---

35) مخطوط المكتبة الأحمدية ص 55.

36) لما مرض الشيخ الرصاع مرض الموت سنة 1034 — 1035 استشير فيمن يصلح للإمامة وقيل له هل يصلح ابنك فقال ابني صغير لا يصلح فقيل له فالشيخ براو فقال يصلح إلّا أنّ اهل المدينة تأنف منه لكونه ليس منهم فقيل له فالشيخ الغماد فقال جوهرة عليها ران فقيل له فالشيخ تاج العارفين فقال جوهرة ما مستها يدان حسين خوجة. **الذيل لكتاب بشائر أهل الايمان** الطبعة الثانية، ص 185.

37) **الحلل** الجزء 2، 610 — 622 **وإتحاف**... الجزء 7، ص 60 و 69.

38) ورد في النقائش الراجعة للعهد البكري : « تم كذا باذن من الشيخ الامام (...) على يد وكيله... » (فالوكيل منسوب للإمام لا للجامع. انظر أيضا ما جاء في نص أمر ولاية أحد البكريين في زمن الباي محمد الرشيد الحسيني في الصفحات الموالية.

39) ابن ابي دينار : **المؤنس**... ص 299 — 300.

40) **الحلل**... المجلد الثاني، ص 600.

41) **الذيل**... (الطبعة الثانية) ص 212.

42) **الذيل**... (الطبعة الثانية) ص 242 و **الحلل** 216، ص 391 **وشجرة النور**. ص 323.

1669) إلّا أن العهدين التركي والمرادي تميزا على العهد الحفصي باتساع مشمولات الأيمة الخطباء أفراد الأسرة البكرية.

أختام رواية الحديث بالجامع الأعظم في العهدين التركي والمرادي :

لقد سبق أن أشرنا إلى قراءة كتب الحديث بالجامع الأعظم وما قام به الشيخ تاج العارفين البكري من إحياء أسلوب الدراية وكان هذا الشيخ يلقي درسه في الثلاثة أشهر رجب وشعبان ورمضان ويختمه في اليوم السادس والعشرين من شهر الصيام. قال ابن أبي دينار « كان مجلسه بالجامع الأعظم من اجل المجالس وتحضره الأجلاء من أهل العلم وتدور بينهم المباحث »(43).

وبعد وفاته نسج ابنه الشيخ أبو بكر على هذا المنوال. إلّا أن ممارسة الحديث دراية أبطلت بعد وفاة هذا الشيخ لقصور من جاء بعده من أيمة الأسرة البكرية عن القيام بذلك فلم يبق من تناول الحديث في جامع الزيتونة مدة الشيخ علي بن أبي بكر البكري إلا الرواية المجردة لصحيح البخاري والشفاء للقاضي عياض يرويان بحضور الإمام في الأشهر الثلاثة المذكورة. ويظهر أن الرواية انقطعت تمامًا مدة وجيزة ثم رجعت في حدود 1090 (1679 — 1680) بفضل الشيخ علي الغماري ولعله المزوار وقتئذ(44). فاستمرت عادة رواية الحديث لغرض التبرك من ذلك الوقت إلى يومنا هذا.

ويحظى يوم الختم وهو السادس والعشرون من رمضان بإقامة موكب خاص يفتتح بقراءة سور من القرآن من سورة الملك إلى سورة النباء إلى آخر سورة من قصار المفصّل ويختم بتلاوة آية الكرسي وآخر البقرة وبالصلاة على النبي ﷺ ثم يقرأ الراوي آخر الجامع الصحيح للبخاري وآخر الشفا وقد أشار ابن أبي دينار إلى ما وقع في عصره (القرن الحادي عشر — القرن السابع عشر الميلادي) من مزيد الاختصار في الرواية والسبب في ذلك حسب رأيه يعود إلى قصور الكثير من المنتصبين للرواية ومحبتهم للمباهاة « وليقال فلان من الرواة »(45) وتجدر الإشارة إلى ان قراءة الحديث ومواكب الأختام كانت تقام أيضا في بقية الجوامع والمساجد في أيام معلومة.

وفيما يتعلق بنظام الجامع وظروف إقامة الشعائر فيه يظهر أن الاضطرابات السياسية التي هزّت البلاد التونسية في عهد المراديين وبخاصة من سنة 1086 هـ / 1675 إلى سقوط دولتهم في 1114 هـ /1702 كان لها تأثير على سير شؤون الجامع أدّى أحيانا إلى اضطراب وتقلص في تطبيق تراتيبه بل إلى إبطال إحدى الصلوات اليومية. ذكر الوزير السراج الواقعة التي نشأت من جراء حقد بعض المقرّبين لرمضان باي المرادي (1108 — 1110 / 1696 — 1698) على الشيخ العالم حمودة فتاتة فقام المقرّب بدسائس تسببت في إبعاد الشيخ حمودة من قصر باردو بعد ما كان من أخص أصدقاء الباي. ولما انتصب هذا الشيخ لتدريس البخاري بجامع الزيتونة وذاع صيته وازدحمت الناس لسماع تعاليقه على معاني الأحاديث تغير المقرّب من ذلك فاتصل بالإمام الشيخ أبي الغيث ووسوس له أن إقبال الناس على الشيخ حمودة ربما يؤدي إلى ولايته إمامة الجامع واقترح عليه أن ينهى الشيخ فتاتة على مواصلة درسه ويهدده بترك صلاة العصر إن لم يمتثل فتمادى الشيخ حمودة فتاتة في بث دروسه وبطلت صلاة العصر يوما حتى اضطر الشيخ إلى نقل درسه من الزيتونة إلى جامع آخر. وكان ذلك في سنة 1109 — 1698(46).

كما أن حرية تصرف البكريين في الجامع لم تعن عدم تدخل السلطة السياسية في شؤون الجامع واتخاذ الأوامر في شأن خطة الإمامة. يذكر الشيخ اسماعيل التميمي في قائمة تراجمه لأيمة جامع الزيتونة أن عليًّا البكري عزل من قبل أحد البايات المراديين وعوض بأحد أفراد آل الرصاع ثم أعيد لخطته بعد مدة.

---

43) **المؤنس**... ص 299 — 300.
44) **المؤنس**... ص 300 **الذيل** (الطبعة الثانية) ص 214.
45) **المؤنس**... ص 300 و 301.
46) **الحلل**، 2، ص 600.

قائمة الخطباء في العهدين التركي والمرادي :

ــ أبو عبد الله محمد الأندلسي : كان إماما خطيبا في عهد الفتح العثماني يعني في حدود سنة 981 ــ 1574 وكان يدرس التفسير والفقه والنحو وغير ذلك.

ــ أبو يحيى الرصاع : من أحفاد الشيخ محمد بن قاسم الرصاع إمام جامع الزيتونة في العهد الحفصي. كان والد الشيخ أبي يحيى وزيرا لحمودة الحفصي. ولي الإمامة والخطابة من سنة 1017 (1608) في دولة عثمان داي إلى وفاته سنة 1034 (1624 ــ 25) او 1035. كان يدرس التفسير بالجامع وولي الفتيا ثم سلم فيها لأجل الجامع وهذا الشيخ هو الذي أشار بتعيين الشيخ تاج العارفين البكري إمامًا خطيبا بجامع الزيتونة.

ــ علي تاج العارفين البكري : صِهر الشيخ الولي أبي الغيث القشاش خلفه بعد وفاته على زاويته المشهورة بالثروة والكرم والتي لقبت بعد وفاة الشيخ القشاش بالزاوية البكرية ونسبة البكريين (العثماني البكري) تشير الأولى إلى اتصالهم بسيدنا عثمان بن عفان والثانية إلى اسم جدهم الشيخ العالم أبي بكر دفين المنيهلة في ضواحي تونس. أحيا في جامع الزيتونة سنة الشيخ أبي الغيث القشاش من التصرف في إدارة شؤون الجامع والسعي في تحسينه.. يجلس للنظر في أمور الجامع في الحجرة الشرقية المعروفة في عهده وعهد سلالته بالمقصورة المولوية العثمانية. كان عالما محدثا فاضلا.

ــ أبو بكر الشيخ علي تاج العارفين البكري : نسج على منوال أبيه واشتهر منذ شبابه بعلمه ونجابته. كان يمارس كتب الحديث درايةً بحضور أشهر علماء العصر. تولى الإمامة والخطابة بعد وفاة أبيه.

ــ أبو الحسن علي بن أبي بكر بن تاج العارفين البكري : خلف والده في منصبي الإمامة والخطابة وكان خطيبا جَهْوري الصوت مؤثرا اشتهر أيضا بكرمه وعلو همته وهو آخر من قام بأعباء الخطبة الجمعية من آل البكري.

إقامة الشعائر في العهد الحسيني :

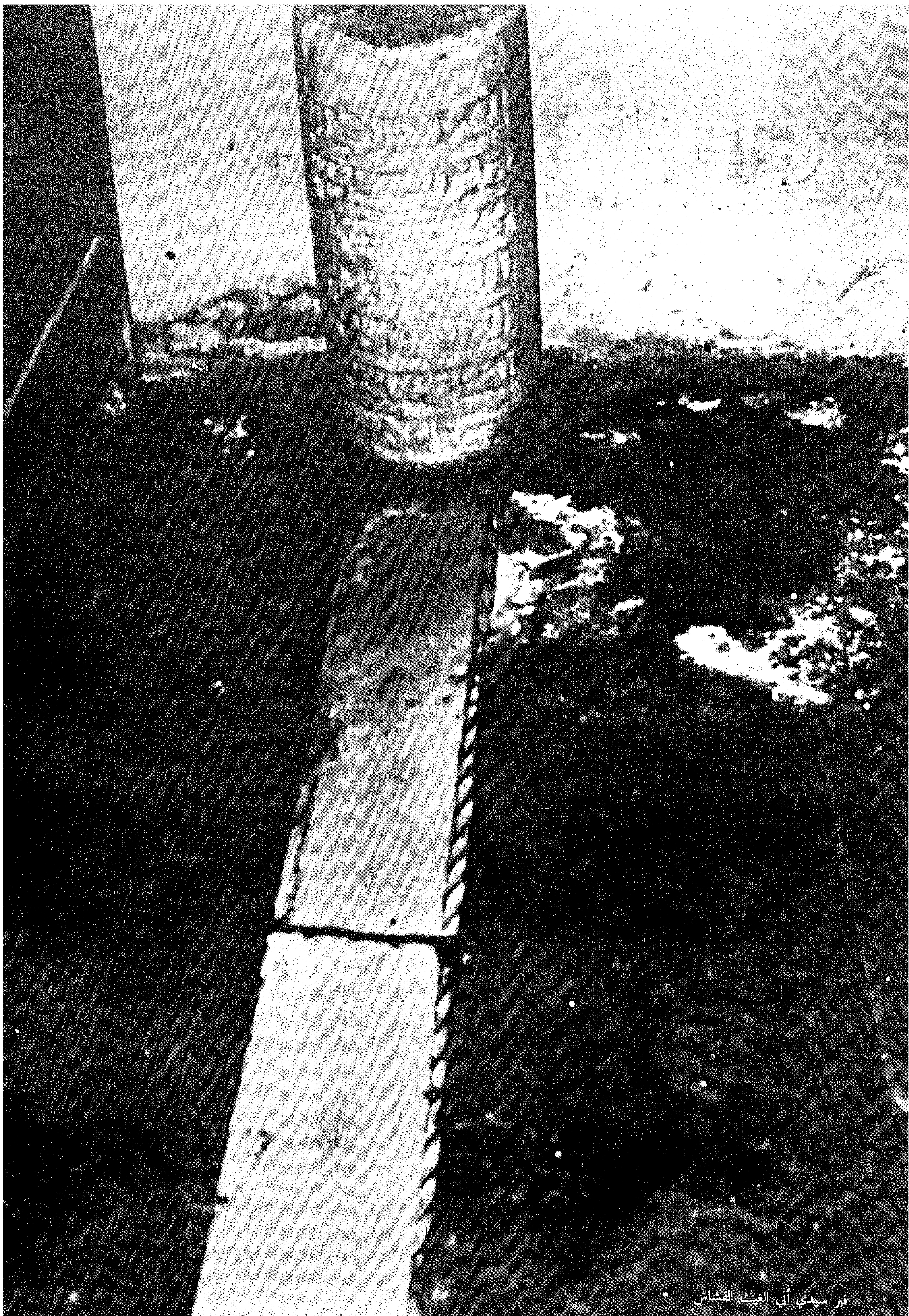
استمر جامع الزيتونة في بداية هذه الدولة على عادته من تداول الإمامة بين أفراد الأسرة البكرية إلّا أن عدم تأهلهم أو صغر سنهم أدّى إلى اضطراب في إقامة الشعائر وبخاصة خطبة الجمعة « حتى كاد أن يندرس منبر الجامع ولم يكن شيئا مذكورا » (ابن أبي الضياف).

هذا ولا شك أن امتيازات الأسرة البكرية وثروة زاويتهم أثارت عداوة بعض الناس وغيرة الأمراء وأصحاب النفوذ. يحكى أن الداهية يونس باي ابن علي باشا مرّ يومًا بدار البكري ورأى أمامها الخيل المسومة وآثار النعمة وجمال إقبال الدنيا فتمنى لو كان من أبناء الزاوية البكرية فتعجب أصحابه من ذلك فقال لهم « **شاركونا في لذة العيش واستأثروا عنا بلذة الأمن**[47] » فاغتنم الوشاة مثل تلك الفرصة لتحيير غضب الأمير ونصب المكايد للبكريين. وشى أحد حسدتهم إلى علي باشا (1147 ــ 1169 / 1735/1756) أن الشيخ عثمان البكري يتفاخر بمحاكاة الملوك في خيله وسرجه فغضب الباشا وعزل الشيخ من الإمامة مدة.

والظاهر أن علي باشا ــ وكان شديد التسلط ــ أراد أن يزيل عادة استقلال البكريين في إدارة شؤون الجامع ولما سقطت دولته ورجع الملك لابن عمه محمد الرشيد باي ابن حسين بن علي (1169 ــ 1172 / 1756 ــ 1759) سعى الرشيد في إحياء عادة البكريين السالفة وكان يريد بذلك الإنكار على فعل الباشا زيادة على رغبته في إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه مدة أبيه باني البيت الحسيني.

فبمجرد جلوسه على العرش أصدر أمرا جدد فيه ولاية الشيخ عثمان البكري إمامة جامع الزيتونة على الأسلوب السالف الذكر وإليك نص هذا الأمر بعد فاتحته :

47) **إتحاف**....الجزء 7، ص 60.



قبر سيدي أبي الغيث القشاش



أيمّة جامع الزيتونة أمام قصر باردو (سنة 1941) من اليمين الى اليسار المشائخ : عبد الكبير الشريف، الصادق الشريف، محمد حمدة الشريف، محمود محسن، مصطفى محسن

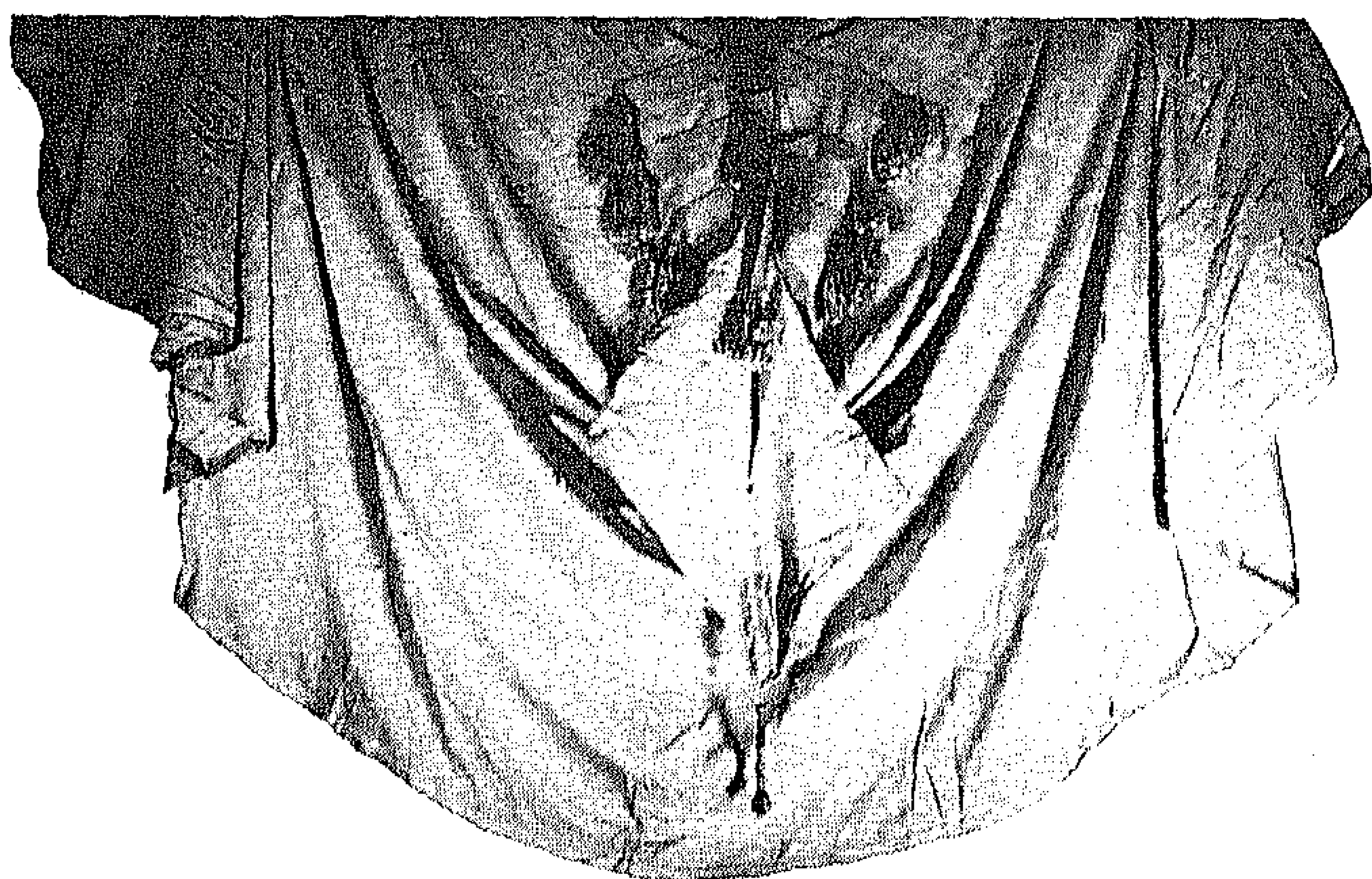
« أما بعد فإننا أولينا على بركة الله تعالى وحسن عونه المكرم الأجل العالم العلم الأكمل الزكي الأفضل سلالة الصالحين وبقية العلماء العاملين محبنا الشيخ الفاضل ابا عمرو السيد عثمان البكري العثماني وجعلناه إماما خطيبا بالجامع الأعظم جامع الزيتونة داخل محروسة تونس يصلي به الجمعة والعيدين وجعلنا له النظر على جميع أموره وكافة أسبابه وشؤونه عموما وإطلاقا شمولا واستغراقا على مقتضى ما بيده من الأوامر السابقة لأسلافه الكرماء وسحبنا نظره في الولاية والعزل على الخليفة ووكيل الأحباس والمزوار وسائر خدمة الجامع من مؤذنين ووقادة وغيرهم بحيث يكون جميع أمر الجامع المذكور تحت نظره وإشرافه وأجريناه على عادة أسلافه في الرواتب والعوائد(48) والرواية والدراية فله مالهم وعليه ما عليهم من غير معارض له في ذلك ولا منازع ولا مخاصم ولا مدافع ولا يد فوق يده ولا مشارك له في النظر مبجلا مكرما موقرا معظما مرموقا بعين الاحترام كما له منا مزيد الاحترام والبرور والتوقير مدى الدهور اوائل شهر ربيع الأول النبوي سنة 1170 » (1756)(49).

إلّا أن تطور الزمان وعزم البايات الحسينيين على إعطاء دفع جديد للنشاط الديني والعلمي في الإيالة تسبب رغم حرص محمد الرشيد على إبقاء الأمور على العادة السالفة في تغييرات هامة في حياة جامع الزيتونة التي ماانفكت تتواصل منذ دولة الباي حمودة باشا الحسيني (1196 ــ 1229 / 1782 ــ 1814) وما من شك أن مظاهر الانحطاط التي اخذت تواكب سلوك البكريين ساعدت على تحقيق هذا التطور.

48) جمع عادة : وهي مقادير من المواد الغذائية والأقمشة ونحوها يقدمها الباي إلى اعيان رجال العلم والدين بصفة منتظمة على وجه الهدية إجلالا لمناصبهم.

49) **معالم التوحيد** : (الطبعة الثانية) ص 66 ــ 67.

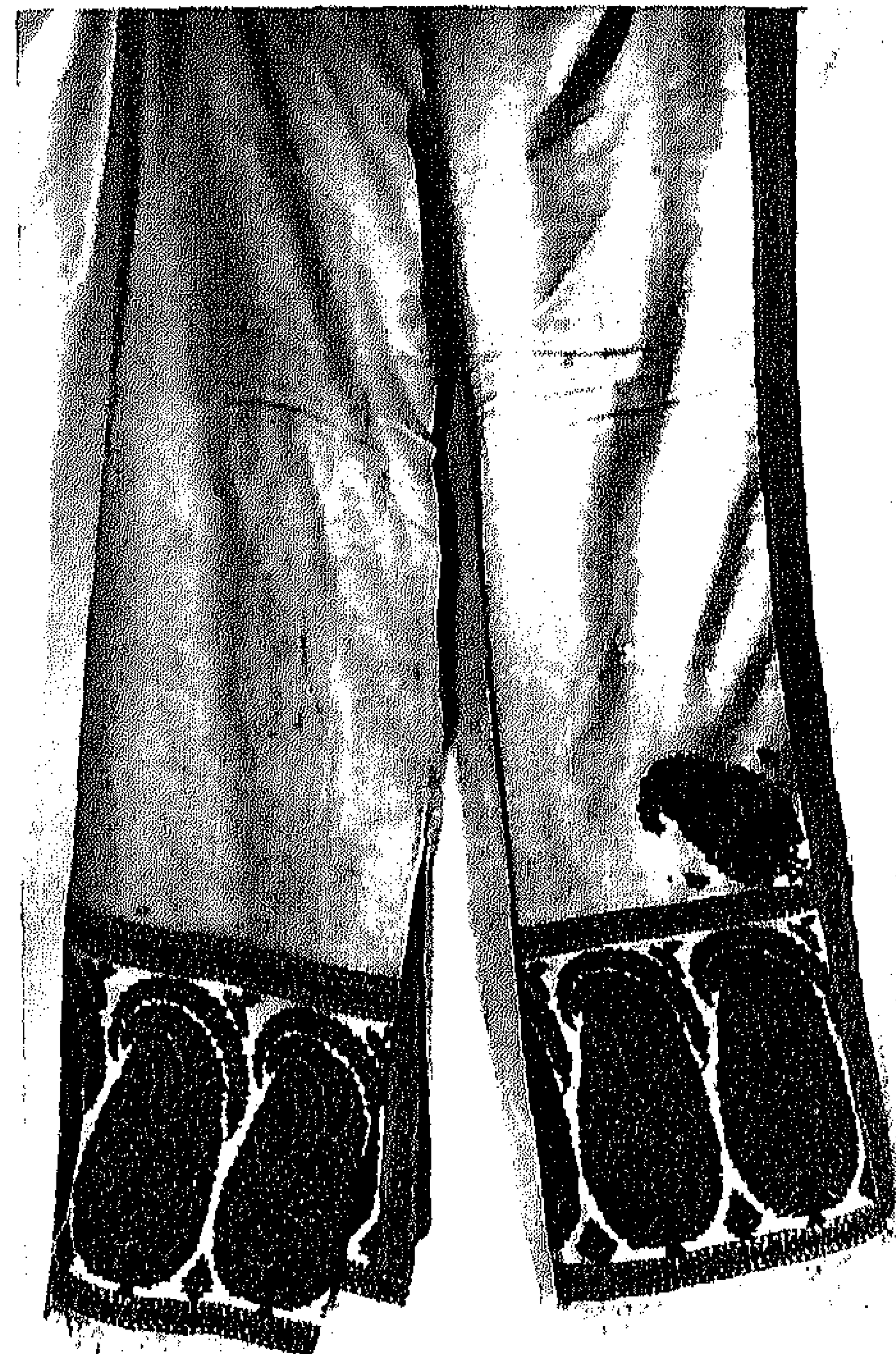
الكابّة





« البدن »

الثان



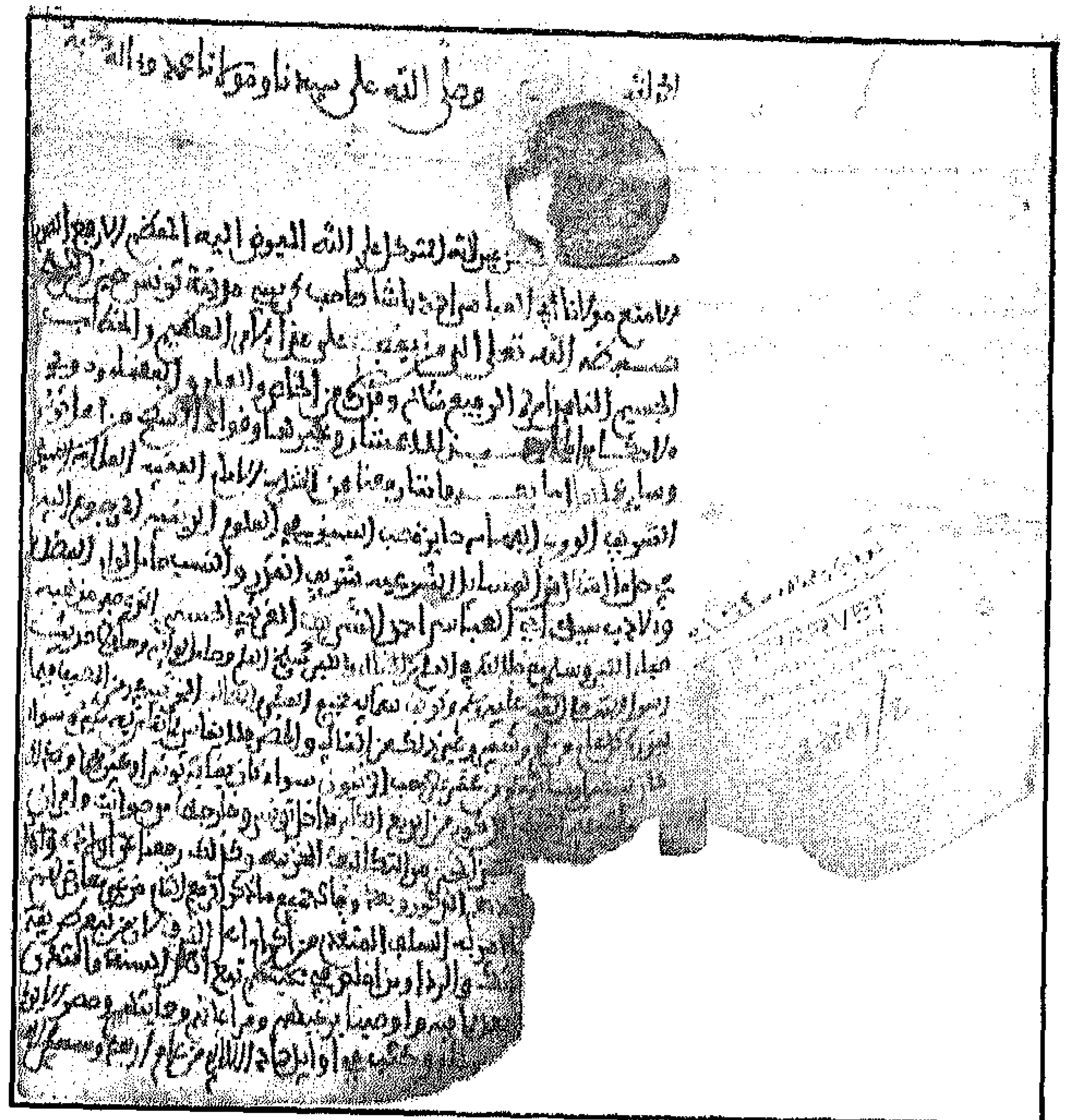
وقد ظهرت عناية الدولة الحسينية بشؤون جامع الزيتونة منذ عهد مؤسسها حسين باي ابن علي (1117 ـ 1153/ 1705 ـ 1740) الذي اعتمد طريقة الاعتناء بالأهالي وبخاصة الأوساط العلمية كوسيلة لتدعيم دولته وحظي جامع الزيتونة في نطاق هذه السياسة بمكانة خاصة تمثلت في إحداث دروس قارة وتوفير المرتبات لأصحابها. أما في ميدان الشعائر فقد رتب الباي حسين بن علي في سنة 1117 (1706) حزبين يرتل فيهما القرآن الكريم كل يوم وعين الشيخ العالم الشهير محمد زيتونة شيخا عليهما(50).

كما اعتنى أفراد الأسرة الحسينية وأعيان الدولة في أزمنة مختلفة بالإسهام في تعمير الجامع بتلاوة القرآن فأسست الأميرة تركية ابنة الباشا علي بن محمد حزبا لهذا الغرض وأوقف الوزير يوسف صاحب الطابع (المتوفى في 1230 ـ 1815) أوقافا لإقامة حزب لترتيل القرآن وغيرهما من الأحزاب التي تم ترتيبها بفضل المحسنين من كبار الدولة.

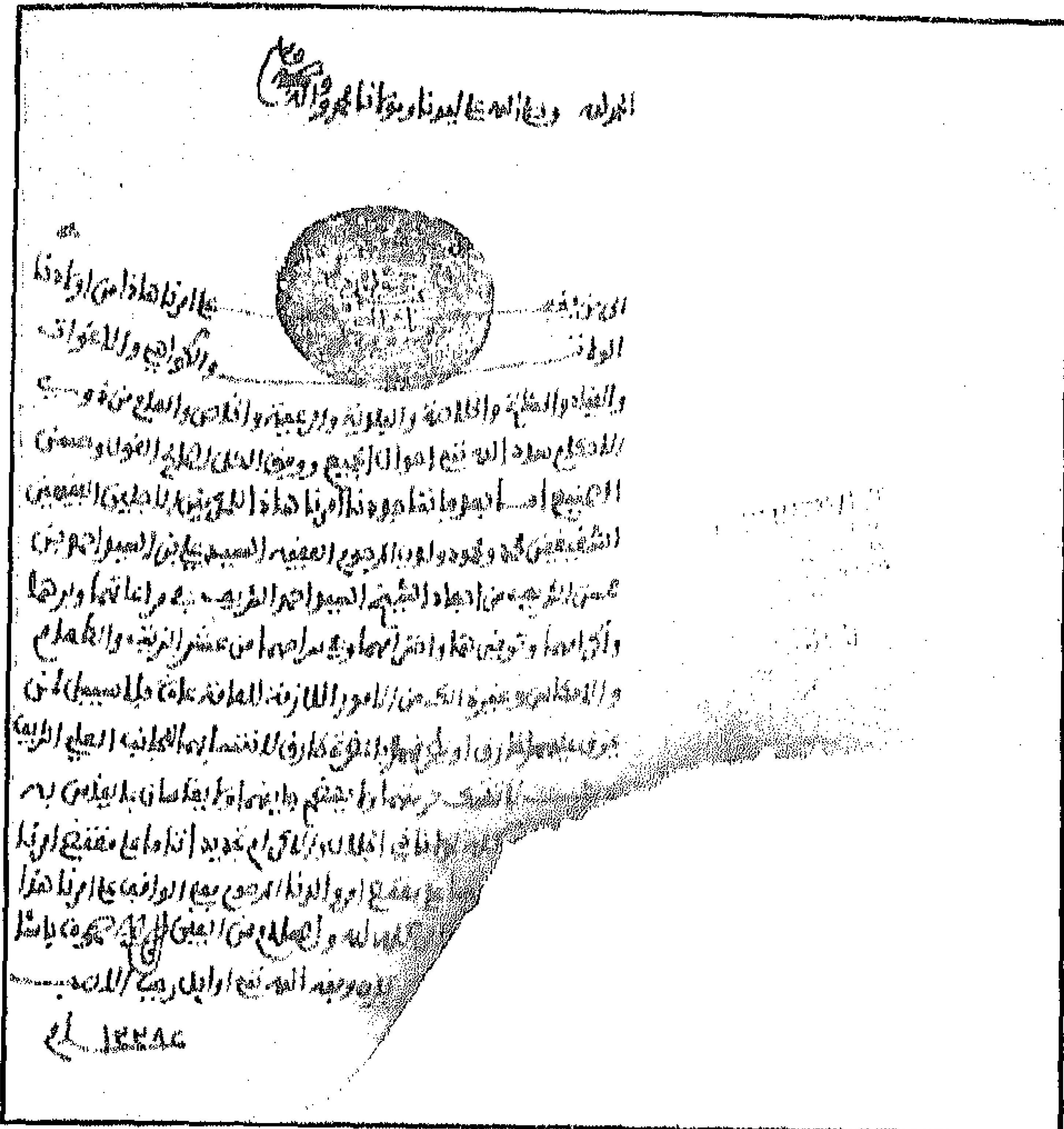
الخطباء والأيمة في العهد الحسيني :

اتصف العهد الحسيني بإدخال تراتيب جديدة على الهياكل المناطة بها عهدة إقامة الشعائر بجامع الزيتونة ومن أهم تلك التراتيب الجديدة الزيادة في عدد الأيمة وتوزيع مختلف أصناف الإمامة بكيفية تضمن مبدئيا إقامة الصلوات بدون اضطراب وقد تمت هذه التحسينات بصفة تدريجية امتدت إلى القرن العشرين الميلادي

50) الحلل، 3، ص 103.



أمر أحمد باشا صاحب كرسي مدينة تونس في إعفاء الشيخ أحمد الشريف من اداء الضرائب إكراما لنسبه الشريف سنة 1064 هـ. (1653 — 1654)



أمر من حمودة باشا للشيخين محمد ومحمود محسن في إعفائهما من دفع الضرائب 1228 هـ. (1813)

حتى صار سلم أيمة جامع الزيتونة وسدنته سلما مرتبا ومحكما وضع تحت نظر الإمام الخطيب. أما في مبادي الدولة الحسينية فكان سير الأمور يعاني من مظاهر انحطاط الأيمة البكريين وصغر سن ورثة منصب الخطبة منهم فبعد وفاة الشيخ علي البكري في سنة 1123 — 1711 خلفه ابنه الشيخ أبو الغيث الذي تورط في قضية الشيخ حمودة فتاتة لما كان إمام الخمس مدة أبيه. والظاهر أنه لم يكن من أهل العلم ولا متأهلا للمنبر ولما توفي في عهد الباشا علي ترك ولدين صغيرين عثمان وحمودة فعين الباشا الشيخ العالم المدرس حمودة الريكلي الأندلسي إماما ولما بلغ الشيخ عثمان البكري سن الرشد تولى الإمامة والخطابة وكانت فيه أهلية كاد أن يجدد بها طريقة أكابر البكريين إلّا أن سطوة علي باشا وغيرته تسببت في عزله، كما ذكرناه سالفا، وتعويضه بالشيخ الفقيه غيث غلاب. ثم ولي الشيخ عثمان إماما خطيبا مرة ثانية والبلاد متصفة وقتئذ بمناخ سياسي متوتر بسبب النزاع القائم بين الباشا وابني عمه محمد الرشيد وعلي. وبعد انتصار ذينك الأخوين وجلوس أولهما محمد الرشيد على أريكة الملك بادر بإحياء العادة البكرية السالفة كما ذكرناه سابقا إلّا أن الشيخ الحاج حمودة البكري الذي خلف أخاه عثمان بعد وفاته سنة 1176 (1762) أظهر عجزا تاما في القيام بالخطة حتى قيل إنه صعد على المنبر فلم يفه ببنت شفة وتعطلت صلاة الجمعة في ذلك اليوم.أما من جاء بعد وفاته وهم ابنه أبو الغيث وقريبه الشيخ تاج العارفين الثاني ثم علي بن أبي الغيث فقد كانوا أيضا من القاصرين فلما توفي الشيخ علي سنة 1227 — 1812 اغتنم الباي حمودة باشا الفرصة لإحياء مجد جامع الزيتونة حتى يكون محرابه ومنبره في درجة تليق برفعة شأنه خصوصا وأن الدولة الحسينية وقتئذ في عنفوان شبابها وسوق العلم في البلاد زاخرة بالعلماء الفضلاء الذين تتوفر فيهم جميع الشروط للقيام بمهمة الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم. فلما تكلم الناس في تقديم الشيخ أبي الغيث وهو صغير لا يبلغ الحلم للإمامة عوض أبيه قال حمودة باشا « **لا تبقى إمامة جامعنا الأعظم ملعبة بين الجهال والأطفال وأقدّم من لا يتكلم في تقديمه مسلم وهو شيخ الشيوخ الجامع بين شرفي النسب والاكتساب أبو محمد حسن ابن الامام الشيخ عبد الكبير الشريف** ». فاولى الشيخ حسنا الشريف الإمامة والخطابة « فأعطى القوس باريها وقدم للمحراب صاحبه وللمنبر فارسه »(51).

51) **اتحاف**، 3، ص 57.

واستمرت الإمامة إلى يومنا هذا بين يدي أفراد أسرة الشريف واخوانهم آل محسن. وتنحدر الأسرتان من الجد الجامع الشيخ العالم سيدي أحمد الشريف الشهير بإمام جامع دار الباشا (المتوفى في 1092 هـ) ولم يتوقف التسلسل إلّا في ثلاث حالات وهي إمامة الشيخ ابراهيم الرياحي وإمامة الشيخ صالح النيفر وفي عهد الجمهورية إمامة الشيخ البشير النيفر.

أمّا فيما يتعلق بالأيمة غير الخطباء فمن المعلوم أن عددهم كان اثنين : إمام ثان ويسمى الخليفة يقوم بالصلوات الخمس وينوب عن الخطيب في صلاة الجمعة عند الاقتضاء وإمام نائب يسمّى أيضا الإمام الثالث. ولصلاة التراويح في شهر رمضان إمام خاص بها يسمى إمام التراويح.

وقد استقام هذا الترتيب مدة طويلة بفضل نظام حياة الأيمة الخلفاء الذين كان يرتكز على الإقامة الطويلة بالجامع في النهار وحتى في الليل. قال ابن أبي الضياف إن القيام بخطة إمامة الصلوات الخمس لم تثقل على الشيخ محمّد الطاهر بن مسعود لأن مقره في غالب اليوم بجامع الزيتونة[52]. وورد في رسالة وجهها الإمام الخطيب الشيخ محمود محسن إلى الوزير الأكبر في سنة 1280 (1863) ما يبرز أهمية انقطاع هؤلاء الشيوخ لخدمة الجامع في نجاعة ترتيب الأيمة والاستقرار في إقامة الصلوات يقول الشيخ محسن : « **استمر الشيخ غيث غلاب خليفة بالجامع مدة 50 سنة يقوم بالصلوات الخمس وينام بمقصورة الجامع مواضبا غاية المواضبة ثم خلفه بعد وفاته سنة 1199 (1784 ــ 1785) الشيخ محمد السويسي ونسج على منواله ينام بالمقصورة حتى يسهل عليه القيام بصلاة الصبح ثم خلفه الشيخ محمد الطاهر بن مسعود إلّا أنه لاينام بالمقصورة ثم الحاج عمر بن المؤدب وكان لا يذهب لداره بالأشهر. ثم تولى صاحب الرسالة (الشيخ محمود محسن) فنسج على منوال أسلافه** »[53].

غير أن هذا الاستعداد لا يتوفر في سائر الأيمة فالشيخ محمد البنا الإمام الثاني اشتكى في رسالة موجهة إلى محمد باشا باي سنة 1271 (1256) من ثقل الخطة زيادة على قيامه بالتدريس والقضاء ثم الفتيا : « **إن إمامة الجامع الأعظم جامع الزيتونة قد عسر علي القيام بشأنها من جهة عدم المعين، ذلك لأن أيمة الجامع المذكور كانوا منذ نحو عشرين عاما أربعة رابعهم إمام التراويح وهو ينوب الأيمة عند المانع (...) والآن انعدم هذا الرابع لكون إمام التراويح الآن غير مأذون في النيابة مع أن العادة أن الإمام الأول لا يصلي إلا الجمعة إن تيسر له والإمام الثالث كثيرا ما يعرض له ما يمنعه من الإمامة وينحصر أمر الإمامة في الثاني (...) وربما أفضى الحال إلى إبقاء الجامع من غير صلاة (...) وإذا ظهر لسيادتكم عدم ولاية إمام معين فالمطلوب أن ترفع لي يدي من الإمامة...**»[54].

والظاهر أن الدولة لم تنكب على الأمر فترتب على ذلك تهاون واضطراب في إقامة الصلوات مثل ما وقع في المدة التي وجهت فيها رسالة الشيخ محمود محسن، نتيجة عدم التناسق بين الإمام الثاني والإمام الثالث المكلف بإقامة الصبح والمغرب والعشاء فلما تعذر عليه الحضور ذات يوم لصلاة العشاء ذهب أحد سدنة الجامع إلى دار الإمام الثاني يطلب منه الحضور إلى الجامع فأبى واضطرت الناس لتقديم الشيخ الطاهر السقاط أحد أفاضل المصلين للمحراب فلما بلغ الخبر إلى الباي أمر بتعيين الشيخين المدرسين محمد الشاذلي بن صالح وعلي العفيف لينوبا الأيمة عند التغيب (وكان وقتئذ الشيخ محمود محسن يؤم الناس في صلاتي الظهر والعصر، وإثر ذلك استقر الأمر على الزيادة في عدد أيمة جامع الزيتونة من ثلاثة إلى أربعة يتداولون إقامة الصلوات الخمس الأسبوع تلو الآخر باستثناء الإمام الأول ويسمّى دور الإمام في اصطلاح الجامع بـ «الجِمْعة» («الجمع») وقد يكون الإمام الرابع إمامًا للتراويح في الوقت نفسه كمثل الشيخ أحمد القروي ثم الشيخ محمد بن مصطفى محسن[55] ثم زيد في عدد الأيمة فصاروا في أوائل القرن العشرين أربعة يعضدهم نائبان ثم وقع الاقتصار على نائب واحد يسمى النائب أو الإمام الخامس.

52) **اتحاف**، 7، ص 108.
53) **وثائق ارشيف الحكومة التونسية**، الملف 716 مكرر. الوثيقة رقم 2، شوال 1250.
54) **وثائق ارشيف الحكومة التونسية**، الملف 716 مكرر الوثيقة رقم 9 ذي القعدة 1271.
55) **وثائق ارشيف الحكومة التونسية** الملف 717 الوثيقة 9 بتاريخ 1295 (1878).

ويقع اختيار الأيمة غالبا من بين الفقهاء الّذين يدرّسون بالجامع والملازمين له. وبعد انخراطه في سلك الأيمة يرتقي الإمام من الدرجة إلى الأخرى عند شغور المنصب بوفاة من قبله وعند وفاة الإمام الأول يولي الباي الإمام الثاني باستثناء الشيوخ حسن الشريف ومحمد الشريف وابراهيم الرياحي الذين وقعت تسميتهم أيمة خطباء وهم غير منخرطين في زمرة أيمة جامع الزيتونة.

وبعد وفاة الشيخ إبراهيم الرياحي تقدم الإمام الثاني الشيخ محمود محسن إماما أوّل وخطيبا واستقرت القاعدة بعد ذلك.

لباس الخطباء : يرتدي خطباء جامع الزيتونة وأيمته لباسا خاصا بصلاة الجمعة والعيدين والمواكب الرسمية يسمى في الاصطلاح التونسي : « **القيافة** » وتتألف القيافة من **الملّوسة** (وهي جهاز أسطواني أجوف يلتف عليه نسيج ابيض) عوضا عن **الكشطة** (العمامة) البيضاء **والشان** (الطيلسان من الحرير الهندي) كما يتألف من قطعة تسمى **البدن** عوضا عن الجبة. ثم يضع الإمام على كتفيه **الكابة** وهي عبارة على برنس مطروز بالخطوط الحريرية : ويحتذي **الكلاسط** (الجوارب) وقطعتين من الجلد : هما **البشمق والريحية** وعند الدخول إلى الجامع يترك الإمام بمشقه ويبقي الريحية في رجليه.

وتجدر الملاحظة أن قيافة الأيمة هي أيضا اللباس الرسمي لأعيان المجلس الشرعي من المالكية.

موارد الأيمة : لقد سبق أن أشرنا إلى أن العديد من الأيمة كانوا يتعاطون مهنا أخرى إلى جانب قيامهم بالإمامة فمنهم من كان مدرسا أو عدلا أو تاجرا او متوليا خطة من الخطط الشرعية كالقضاء والفتيا أو رئاسة أهل الشورى. أما المرتبات التي يتقاضونها على وجه القيام بالإمامة فمعظمها وارد من مداخيل العقارات المحبسة لفائدتهم من طرف الأهالي جيلا بعد جيل فهناك أحباس على الإمام الخطيب وأخرى على الإمام الثاني أو الثالث كما تتأتى من فواضل مداخيل أحباس الجامع. ففي حدود سنة 1290 (1873 — 1874) مثلا كان الإمام الثاني والثالث وإمام التراويح يأخذون من فاضل أوقاف الجامع 45 ريالا شهريا. أمّا النائب فيتقاضى 5 ريالات يوميا[56].

ومن أهم موارد عيش الخطباء والأيمة ما رتبته الدولة الحسينية لفائدتهم من الامتيازات كتعيين خطباء الجامع على رأس أوقاف عامة يتصرفون في شؤونها بعنوان ناظر ويتمتعون حسب القاعدة بفاضل ريعها ومن ذلك تكليف المشائخ الأيمة من آل محسن بالنظر على أوقاف زاوية السيد الصاحب أبي زمعة البلوي بالقيروان[57]. كما كانت الدولة تأمر بإجراء مرتبات شهرية لبعض الأيمة من فواضل هذا الوقف.

ومن بين التراتيب القائمة في العهد الحسيني لتوفير أسباب العيش للأيمة توزيع مقادير من الدارهم أو غالبا من الزيت والقمح والأقمشة موسميا أو سنويا على وجه الهدية تقديرا لشأن الأيمة ورجالات الشرع من مفتيين وقضاة وتسمى هذه العطايا القارة « العوايد » فالعوايد التي تمنح للإمام الأول في شهر رمضان مثلا كانت ألف ريال في حدود سنة 1273 (1856 — 1857) زيادة على العوايد التي أحدثها أحمد باشا باي الأول من قمح وزيت ودراهم توزع مرتين في السنة[58] وكثيرا ما كان يضاف إلى تلك العوايد عطايا استثنائية تمنح في المواسم والأعياد الدينية كرمضان والعيدين أو على وجه المساهمة من الباي بمناسبة زفاف أحد أفراد أسرة الأيمة أو إعانة على بناء دار وغير ذلك من المناسبات فقد تفيدنا رسالة موجهة من الشيخ الإمام محمد بن الطاهر محسن إلى الوزير الأكبر خير الدين في ربيع الثاني 1292 (1875). « **إن الدولة العلية أدام الله عزها عودتنا بإعطاء ستة الاف ريال لكل من تزوج من عائلتنا** ».[59] كل ذلك بقطع النظر على الهدايا المختلفة مثل إعطاء دابة او عربية او غير ذلك.

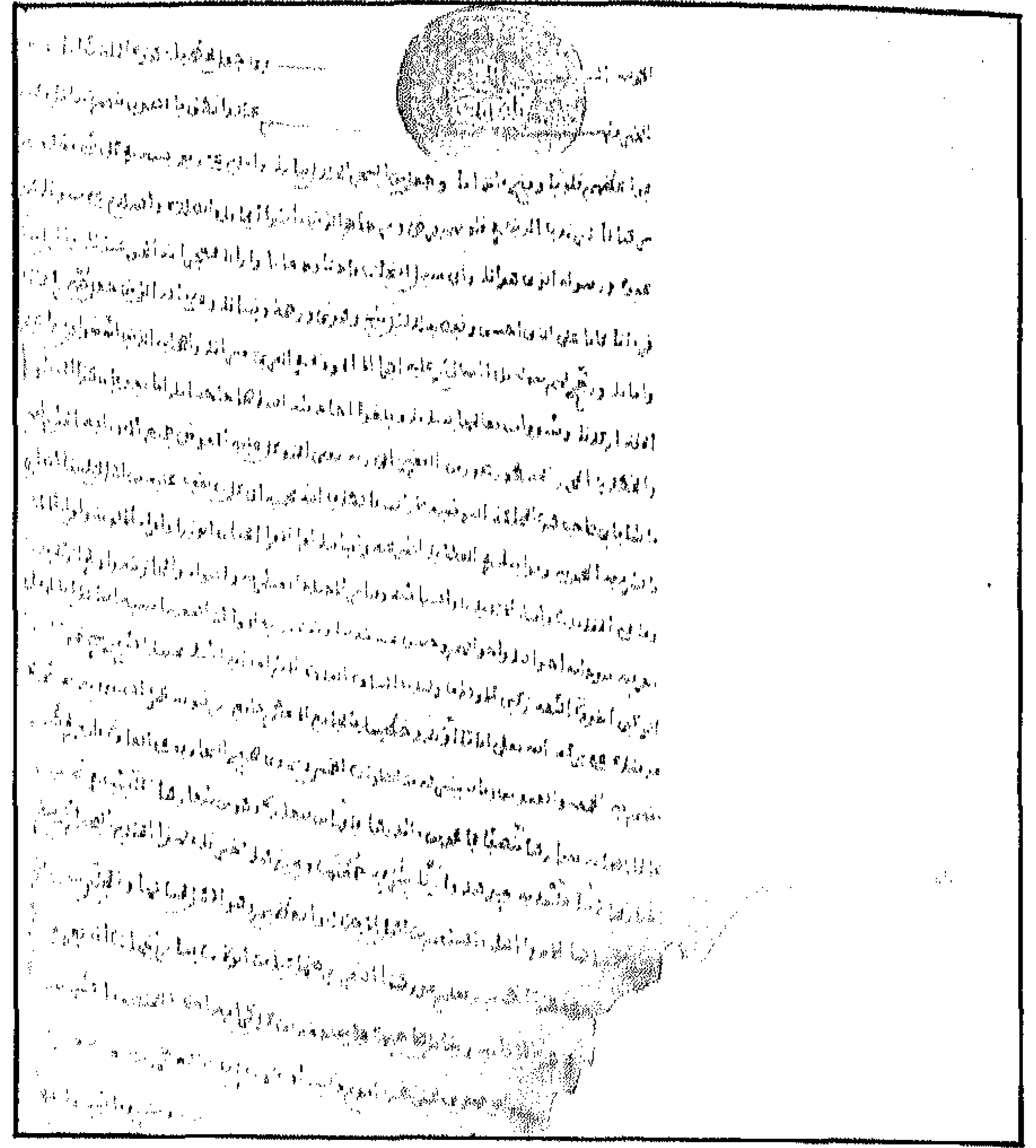
---

56) **ارشيف الحكومة التونسية** : الملف 717 الوثائق 3 و 6 و 19.

57) **ارشيف الحكومة التونسية** ومحمد السنوسي، **مسامرات الظريف بحسن التعريف**، الطبعة الأولى ص 254 — 255.

58) **ارشيف الحكومة**... ملف 716 مكرر الوثيقة رقم 21.

59) **ارشيف الحكومة** ملف 717 الوثيقة رقم 717 الوثيقة رقم 7.



أمر تسمية الشيخ محمود محسن الأول إماما أولا وخطيبا بجامع الزيتونة أواخر رمضان المعظم سنة 1266 هـ (1850 م.) بإمضاء أحمد باشا باي



زاوية سيدي ابراهيم الرياحي

وتجدر الاشارة الى التسهيلات والامتيازات التي يتمتع بها اكابر الأيمة خصوصا اذا كانوا من الأشراف اجلالا لهم من قبل ارباب الدولة. وتتراوح تلك التسهيلات من مجرد الرخصة بالإقامة في القصر الملوكي بحمام الأنف لغرض الراحة والاستحمام الى التحصيل على ملكية ارض زراعية (هنشير)[60] كما يتمتع الأيمة المنتمين الى آل الرسول ﷺ من اسرتي الشريف ومحسن باعفاءات جبائية قارة تعظيما من الدولة لنسبهم على غرار الاعفاءات التي كانت تعطى الى نخبة من أهل العلم والشرع تقديرا لشأنهم.

وختاما نشير إلى الصلة القائمة بين الجامع والأسواق المجاورة له وتعاطي بعض الأيمة نشاطات تجارية في أحد الدكاكين إلى جانب مهامهم الشعائرية وتدريسهم حسب العادة الجارية يومئذ في مجتمعات المدن الإسلامية المتمثلة في الاتصال المتين بين الأنشطة العلمية والدينية والتجارة.

قائمة الخطباء في العهد الحسيني :

ـــ الشيخ أبو الغيث البكري : تولى الإمامة والخطابة بعد وفاة أبيه الشيخ علي سنة 1123 (1711) وقد سبق أن تحدثنا عليه فنقتصر هنا على ذكر مشاركته في السفارة التي وجهها محمد باي المرادي إلى الجزائر قصد التفاوض سنة 1106 (1695) أثناء الحرب بين تونس والجزائر[61]. والشيخ أبو الغيث وقتئذ إمام ثان وسبب تعيينه في السفارة وجاهة أسرته وشهرة زاويتهم بالكرم والفضل والبركة.

ـــ الشيخ محمد حمودة الريكلي الأندلسي : تقدّم إماما خطيبا مستقلا بعد وفاة الشيخ أبي الغيث في عهد علي باشا والسبب الظاهري في خرق عادة تداول البكريين على منبر جامع الزيتونة هو صغر سن ولدي الشيخ أبي الغيث عثمان وحمودة.

60) ارشيف الحكومة الملف 716 مكرر الوثيقة 43 وغيرها.

61) الحلل 2 ص 579 ويظهر ان الوزير السراج ارتكب غلطا لما وصفه بالإمام الخطيب ولعله أراد أن يقول الإمام الخطيب في مدة تأليفه لكتاب الحلل.

كان الشيخ حمودة الريكلي عالما مدرسا بجامع الزيتونة والمدرسة المرادية وراويًا للحديث في مسجد آخر وولي منصب قاضي تونس مدة علي باشا. اشتهر بفضله وميله إلى الخمول وشجاعته. وقد ورد في تاريخ ابن أبي الضياف خبر واقعة الشيخ الريكلي مع الباشا أثناء مسامرة دار الحديث فيها على الحجاج بن يوسف وإسرافه في قتل العلماء فذكر علي باشا معجبا بنفسه ــ تعظيمه للعلماء وبذل الحسنات إليهم فشكره الحاضرون. أمّا الشيخ حمودة الريكلي فقال له : **وما يمنعك أن تفعل معنا ذلك لأن طبع العالم لا يقتضي بغض أهل العلم من حيثية العلم والعلماء المتقدمون كانوا يغيّرون المنكر على الملوك ولهم صاغية من اذان العامة وأمّا نحن فلم نفعل شيئا من ذلك وهل غيّرنا عليك شيئا مما أنت فيه من سفك الدماء وسلب الأموال فلأي شيء تقتلنا ولا عداوة بيننا** » فلما انتهى الشيخ من الكلام غادر الباشا المجلس وعلى وجهه آثار الغضب فخاف الحاضرون على الشيخ وأنكروا عليه عدم اكتراثه إلا أن الباشا لما استدعى الشيخ الريكلي للمثول بين يديه رآه ثابت الجأش يمشي نحوه بغير اكتراث قام إليه وعانقه وكساه وقال له « **مثلك من تفتخر الملوك بمجالسته** »[62] توفي الشيخ محمد حمودة الريكلي سنة 1161 (1748).

ــ الشيخ عثمان البكري : تقدم للإمامة والخطابة بعد أن أتم تكوينه العلمي وسعى لاكتساب الفضائل وتدرب على أخلاق الرئاسة حتى استلفت نظر الباشا علي فعزل الشيخ الريكلي وقدّم الشيخ عثمان إلى خطة آبائه وقد ذكرنا سابقا أزمة الشيخ عثمان البكري مدة علي الباشا وتعويضه بخليفته الشيخ أبي الغيث غلاب اماما خطيبا بالجامع مدة قليلة.

ــ الشيخ أبو الغيث غلاب : لا نعرف عن هذا الشيخ إلا شيئا قليلا منه ملازمته لخدمة الجامع مدة تقارب الخمسين سنة توفي سنة 1199 (1784).

ــ الشيخ عثمان البكري : عاد للإمامة والخطابة بعد مدة مختصرة وجدد له محمد الرشيد باي أمر ولايته على الأسلوب الذي ذكرناه سالفا فاغتنم الشيخ عثمان هذه الفرصة لعزل خليفته في الإمامة الخطيب السابق ابي الغيث غلاب ثم أعاده إلى منصبه. توفي الشيخ عثمان البكري سنة 1176 (1762).

ــ الشيخ الحاج حمودة البكري ابن الشيخ أبي الغيث : ولي بعد أخيه عثمان ولم تكن فيه قابلية. ولما توفي ولي بعده ابنه.

ــ الشيخ ابو الغيث البكري الذي استعان بقريبه الشيخ تاج العارفين.

ــ الشيخ علي البكري[63] لم تتوفر في هذا الشيخ شروط خطة الخطابة ولا الإمامة وكان محجورا عليه يحضر رواية الحديث بالجامع وهو صامت والمشائخ بين يديه ينوبونه في القراءة توفي سنة 1277 (1822).

ــ الشيخ حسن الشريف : ينتمي هذا الشيخ إلى أسرة شريفة استقرت بمدينة تونس منذ أمد بعيد، وهو من أحفاد الشيخ العالم الفاضل أحمد الشريف المشهور بإمام مسجد (أو جامع) دار الباشا المتوفى سنة 1090 (1679) وقيل 1092. يقول صاحب **الذيل لبشائر أهل الايمان** في ترجمة الشيخ أحمد الشريف : « **يقبّل يده كل من لاقاه مقبولا عند الملوك لا تُرَدُّ شفاعته** »[64].

أما الشيخ حسن فهو ابن عبد الكبير بن أحمد بن محمد بن أحمد إمام جامع دار الباشا ابن أبي محمد الحسن بن ولي الله أبي الحسن علي بن أبي محمد حسن بن أبي العباس أحمد بن أبي الفضل أبي القاسم بن أبي عبد الله محمد بن أبي هاشم قريش بن أبي مهدي عيسى بن أبي زيد عبد الرحمان بن أبي سعيد خلف ابن الشيخ الصالح الولي أبي الحسن علي بن أبي الرياح فرج بن أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي العرب اسماعيل بن أبي عبد الله محمد بن أبي العرب اسماعيل بن أبي محمد جعفر الصادق بن أبي عبد الله الحسين بن أبي الحسن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم اجمعين[65].

---

62) **اتحاف**، 2، ص 120، **الذيل** (الطبعة الثانية) ص 262، **معالم التوحيد** (الطبعة الثانية) ص 66.
63) **اتحاف**، 7، ص 60 ــ 61 و 69.
64) **الذيل** ص 187.
65) **الحلل**، 2، ص 487.

وقد أضاف الشيخ حسن إلى شرف النسب الشرف المكتسب : أخذ العلم عن أبيه وعن أجلّاء علماء عصره ثم تصدر للتدريس وانتفع به أعيان العلماء منهم الشيخ إبراهيم الرياحي والشيخ بيرم الثالث والشيخ محمد البحري بن عبد الستار والشيخ محمد بن الخوجة والشيخ محمد بن ملوكة وغيرهم.انخرط برهة في سلك كتاب الدولة مدة الباي حمودة باشا الحسيني لبراعته في صناعة الإنشاء. قال المؤرخ أحمد ابن أبي الضياف في ذكر صفاته: « **كان حليما واسع الصدر إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله تراه أشد ما يكون أتى يوما من داره إلى الجامع وقت الظهرين فتعلقت بثيابه امرأة يجرها تركيّ من الجند إلى بيته في فندق العطارين كرها، فمسك الجنديُ ورغب منه أن يتركها فتساكر الجندي وأبى فخلع الشيخ برنسه وافتك المرأة منه قهرا وحمله بنفسه إلى الداي (وهو حاكم العاصمة يومئذ) (...) وقال له : هذا المحارب يبقى في محبسك إلى أن يبلغ خبره إلى الأمير ورجع للجامع ولما بلغ الخبر للباي أمر بقتل الجندي خنقا في الحين** »(66).

وأخبار علو همته ورقة قلبه وأسلوب درسه المركز على تدريب التلامذة على المباحثة مشهورة. وّلي الإمامة والخطابة سنة 1227 ــ 1812 كما ولي الفتيا. توفي من جراء طاعون سنة 1234 ــ 1819 وحضر حسين باي جنازته ونزل إلى قبره وتزاحم أعيان القوم على حمل نعشه تبركا. ترك حاشية على القطر وحاشية على شرح الشيخ ميارة للامية الزقاق وله تأليف غير تام سمّاه معين المفتي. أمّا خطبه الجمعية فيتداولها الأيمة إلى يومنا هذا.

ــ الشيخ محمد الشريف : هو أخو الشيخ حسن. قدمه الباي إمامًا وخطيبا بعد وفاة أخيه، وشيخا على مدرسة حوانيت عاشور ومدرسا بجامع الزيتونة وتولى خطة شاهد الديوان وهي من الخطط النبيهة يومئذ ولم يتولّ الإمامة بالجامع قبل تسميته إماما خطيبا. اشتهر بفصاحته وعفته وتواضعه وهو الذي طلب منه المشير أحمد باشا باي أن يكون أول من يدخل إلى قصره الجديد بباردو تبركا فأجابه لذلك.

توفي الشيخ محمد الشريف في سنة 1255 (1839) وشهد أحمد باي جنازته.

ــ الشيخ إبراهيم الرياحي : هذا الشيخ هو أشهر علماء تونس في أواسط العهد الحسيني وسبب شهرته واعتقاد الناس فيه سعة علمه وارتقاؤه إلى أرفع الخطط الشرعية وفضله ومقامه في الطريقة التجانية التي أخذها عن أحد أجلاء شيوخها ثم عن الشيخ أحمد التجاني نفسه وولاية الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم جامع الزيتونة. كما اشتهر بنجاحه في القيام بالسفارات المهمة لدى الباب العالي وسلطان المغرب.

تزايد الشيخ إبرهيم بن عبد القادر الرياحي بن ابراهيم الطرابلسي المحمودي ببلدة تستور في الشمال الغربي التونسي وهاجر إلى العاصمة في طلب العلم وأخذ عن أعلام أمثال الشيخ صالح الكواش وحسن الشريف والشيخ إسماعيل التميمي والشيخ عمر المحجوب والشيخ محمد الطاهر بن مسعود. ثم تصدر للتدريس وشاع صيته إلّا أن ضيق العيش جعله يفكر في الخروج من تونس فلما بلغ هذا الخبر إلى يوسف صاحب الطابع وزير حمودة باشا الحسيني، أسرع في معالجة أسباب عزم الشيخ على مغادرة البلاد فأعطى له أمرا في خطة التوثيق واشترى له دارا والتزم له بنفقة التزوج. فانشرح صدر الشيخ وانفتحت أمامه أبواب المعالي وازدادت شهرته بين الناس عندما رفض خطة القضاء التي أراد أن يوليه إياها حمودة باشا سنة 1221 (1806) رفضا بلغ به إلى الخروج إلى زغوان لاجئا بزاوية سيدي علي عزوز ولم يرجع إلا بعد تعيين الشيخ إسماعيل التميمي قاضيا. فعاد الشيخ إبراهيم إلى بث العلم ودرس بالجامع الذي أنشأه الوزير يوسف صاحب الطابع بحيّ الحلفاوين وأوقف عليه أوقافا هامة لفائدة المدرسين به. وتقدم الشيخ إبراهيم رئيسا لأهل الشورى من المفتين المالكية (باش مفتي المالكية) في عهد حسين باي (1824 ــ 1835) وفي مدة الباشا مصطفى باي (1835 ــ 1837) أنابه الباي للقيام بفريضة الحج ثم قدّمه المشير أحمد باشا باي للإمامة والخطبة بجامع الزيتونة بعد وفاة الشيخ محمد الشريف سنة 1255 (1839) وهو أول من جمع بين خطتي الرئاسة المذهبية والإمامة بالجامع الأعظم بحيث كان له النظر على الجامع في إقامة الشعائر وجانب من الإشراف عليه

---

66) **الاتحاف**، 7، ص 71.

كمعهد تعليم لأن الباش مفتي هو أحد النظار الأربعة المشرفين على التعليم الزيتوني من لدن ترتيب أحمد باي سنة 1258 ـــ 1842 وكان لخطب الشيخ إبراهيم الرياحي المنبرية ومواعظه تأثير كبير على معاصريه حتى صارت أنموذجا يقتدي به الأيمة الخطباء إلى الوقت الحاضر[67]. ومن أشهر تلك الخطب الخطبة التي ألقاها سنة 1261 (1845) في الإنكار عن المظالم التي تسبب فيها أحكام صدرت من الباي في الميدان الجبائي[68]. والشيخ إبراهيم هو أول من قرأ السيرة النبوية يوم المولد في موكب يحضره الباي بجامع الزيتونة.

توفي الشيخ إبراهيم الرياحي بالمرض الوبائي سنة 1266 (1850) ودفن بتربته الكائنة بالقرب من نهج الباشا وقبره مزار وزاويته تعمر كل أسبوع بإقامة الوظيفة التجانية.

وترك الشيخ إبراهيم من التآليف حاشية على شرح الفاكهي في علم النحو وحاشية على شرح الخزرجية في العروض وصلوات على النبي ﷺ وديوان خطب وديوان شعر وأجوبة عن مسائل مختلفة ورسالة في الرد على من تهجّم على الشيخ أحمد التجاني.

ـــ الشيخ محمود محسن : ينتمي هذا الشيخ الى آل البيت الأشراف وهو أحد أحفاد الشيخ سيدي أحمد الشريف إمام جامع دار الباشا فهو محمود بن علي بن أحمد بن محمد بن أحمد الشريف. أخذ العلم عن أعلام منهم الشيخ حسن الشريف والشيخ الطاهر بن مسعود ثم تصدر للتوثيق يشهد بين الناس وتولى الشهادة على أوقاف الحرمين الشريفين ثم عينه حسين باي إماما ثالثا بالجامع الأعظم ولما توفي الشيخ محمد الشريف كان محمود إماما ثانيا ولم يأنف من تعيين الشيخ إبراهيم الرياحي الى منصب الإمامة الأولى والخطبة بل سلم له واعترف بفضيلته وزاد هذا الإنصاف وهذه المروءة في إجلال الشيخ إبراهيم الرياحي وسائر الناس لهذا الشيخ الفاضل.

يحكى أن الشيخ إبراهيم لما شرع في تبييض داره حجّر على العملة تناول المكان الذي يضع فيه الشيخ محمود محسن يده عند زيارة الشيخ الرياحي والتحدث معه أمام باب الدار.

وكان الشيخ محمود شديد المحافظة والتحري في ميدان الشعائر حتى أنه منع المجلس البلدي من تزويد ميضاة السلطان وميضاة الحفيان بالماء الوارد في الأنابيب المعروف بماء زغوان لأنه مغصوب.

ذكر ابن أبي الضياف أن أحمد باشا كان يعرف منزلته ويجله على عادته في حب آل البيت ويجيب من يواشيه بأن الشيخ محسن لا يحبه : « إن أحبني فهو من سعادتي وإن كانت الأخرى فما أفعل مع ابن علي وفاطمة »[70] توفي الشيخ محمود محسن سنة 1284 (1868) وصلّى عليه أمام باب البهور بجامع الزيتونة وحضر الباي جنازته.

ـــ الشيخ محمد بن محمد محسن : هو حفيد الشيخ سيدي محمود للأخ وصهره وخليفته في الإمامة. أخذ من العلم ما لا بد منه ثم أقبل على التجارة بسوق العطارين ووزّع أوقاته بين العمل من كد يمينه والتعبد وتلاوة القرآن. تقدم لصلاة التراويح «فوصلت تلاوته الخارجة من قلبه إلى قلوب السامعين والموعظة اذ صدرت من أهلها أثّرت في الحين» (ابن أبي الضياف) ثم صار إماما ثالثا للخمس فإماما ثانيا فإماما أوّلا وخطيبا بعد وفاة عمه. وسمي عضوا بالمجلس الاكبر سنة 1277 ـــ 1860. توفي سنة 1289 ـــ 1872 وأوصى أن يكون دفنه حذو الشيخ سيدي الزلاج.

ـــ الشيخ صالح النيفر : كان إماما ثالثا ثم صار إماما ثانيا ولما توفي الشيخ محمد محسن تقدم للخطبة فجمع بينها وبين خطة باش مفتي المالكية وهو ثاني خطباء جامع الزيتونة في هذا الوضع بعد الشيخ إبراهيم الرياحي. كان هذا الشيخ عالما مدرسا بالجامع الأعظم، تولى النظر على بيت المال. ولما تأسس مجلس

---

67) نشر الشيخ عمر حفيد الشيخ إبراهيم الرياحي مجموعة من خطب جده في الجزء الثاني من كتابه **تعطير النواحي بترجمة سيدي ابراهيم الرياحي**، تونس 1320، ص 63 ومايليها.

68) انظر نص هذه الخطبة في **اتحاف**... الجزء الرابع ص 81 ـــ 82.

69) **اتحاف**، 7 ص 82، والجزء 8 ص 158 ـــ 159، انظر ايضا **تعطير النواحي**... الجزء الثاني ص 2.

70) **اتحاف**، 8 ص 159.



خروج جنازة الشيخ محمود محسن من جامع الزيتونة
بعد الصلاة على الجنازة

الجنايات والأحكام العرفية سنة 1277 — 1860 كان الشيخ صالح من أعضائه ثم تقدم لرئاسته مدة قصيرة طلب إثرها الإعفاء من أعباء تلك الخطة وسافر لأداء فريضة الحج. توفي سنة 1290 — 1874.

— الشيخ محمد الشريف : هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الكبير الشريف. تولى الإمامة الثالثة سنة 1284 (1867 — 68) والإمامة الثانية سنة 1289 وانخرط في سلك المفتيين سنة 1289 وقدّمه الباي وكيلا على زاوية سيدي أبي سعيد وناظرا على جبل المنار حيث ضريح الشيخ أبي سعيد. كما تقدم نقيبا للأشراف بعد وفاة الشيخ محمد البشيري. توفي الشيخ محمد الشريف سنة 1307 — 1889.

— الشيخ أحمد الشريف : انخرط في سلك المفتيين ثم ارتقى إلى رئاسة المفتيين من المذهب المالكي وهو إمام ثان بجامع الزيتونة ثم تقدم للإمامة الأولى والخطبة بعد وفاة ابن عمه. اشتهر بفضله وحسن سلوكه محفوفا بمحبة الخاص والعام. ولي نقابة الأشراف. توفي سنة 1337 — 1919.

— الشيخ محمد حمده الشريف : هو ابن الشيخ أحمد وخليفته. نسج على منواله في العبادة والتقوى. تقاسم نقابة الاشراف مع الشيخ محمد الطاهر الشريف شيخ الطريقة العيساوية. توفي الشيخ حمده الشريف في سنة 1951.

— الشيخ محمود محسن : هو محمود بن محمد بن مصطفى محسن. كان إماما ثالثا ثم صار إماما ثانيا وناب عن الشيخ حمده الشريف في صلاة الجمعة. ثم تقدم إماما أول وخطيبا. كان متواضعا غاية التواضع مع وجاهة كاملة. سمي عضوا بمجلس إدارة جمعية الأوقاف. توفي في سنة 1953.

— الشيخ مصطفى محسن : هو ابن الشيخ محمود محسن وخليفته ناب عنه على المنبر أيضا. ارتقى في سلم الإمامة فانخرط في سلك الأيمة بعنوان إمام رابع ثم صار إماما ثالثا فإماما ثانيا.

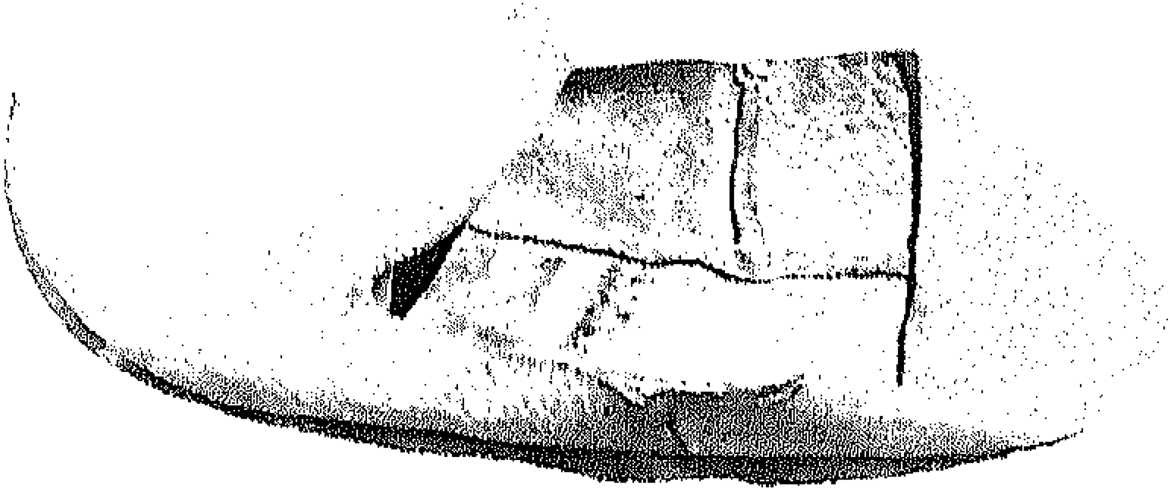
ولما توفي والده الشيخ محمود محسن تقدم إماما أول وخطيبا ونقيبا للأشراف. كان مثابرا في المحافظة على العادات والتراتيب شديدا في ذلك مع نفسه ومع غيره لا يصعد إلى المنبر إلا مرتديا الزي المعد للجمعة والأعياد والمواكب « (القيافة)» ولما أجريت عمليات الترميم في الستينات وقف بالمرصاد حتى ألزم مرة العملة على تفتيش محجن عتيق كان معدا لتعليق فانوس الإمام وأمرهم بترجيعه في مكانه بعد أن أزالوه غفلة. كما حجر استعمال مضخّم الصوت لِمَا رأى في إدخاله من الذريعة للاستخفاف بالتقاليد نظرا للعصر. توفي الشيخ مصطفى محسن سنة 1980.

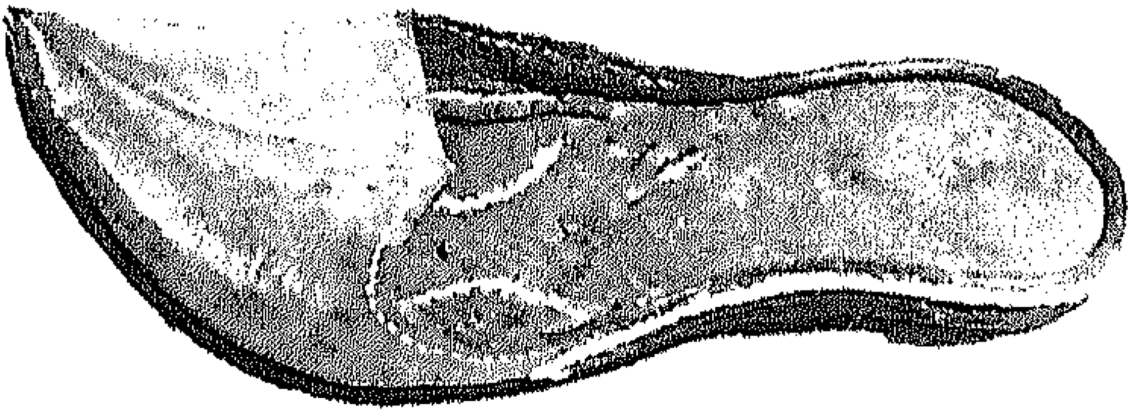
الأيمة الخلفاء (يسمى الواحد منهم الخليفة والجاري على الألسنة : الإمام الثاني).

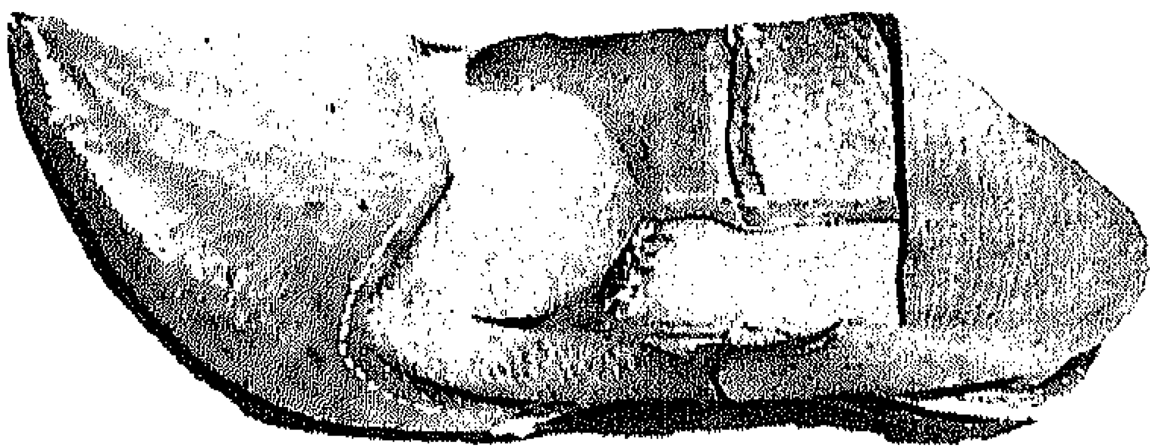
— حمودة العامري : من علماء العصر الحسيني الأول، مدرس بالجامع الأعظم كان هذا الشيخ ينوب عن الإمام الأول عن الخمس والخطبة في عهد الباي حسين بن علي.

— أبو الغيث غلّاب : قدمه علي باشا إماما أول ثم تأخر وبقي إماما ثانيا ممتزجا بالجامع الأعظم امتزاجا كاملا.

الريحية، البشمق، طريقة استعمالهما









مزوال الجامع السيد علي اللبان مرتديا الجبة «السّميش» والبرنس الأبيض والزمالة

ــ محمد السويسي : عالم فقيه درس بالجامع الأعظم، تولى القضاء مدة طويلة توفّي في سنة 1204 (1789 ــ 1790).

ــ محمد الطويبي : مدرس بجامع الزيتونة تقدم لخطة القضاء مع إمامة الجامع الأعظم لما توفي الشيخ محمد السويسي كان خليفة البكريين في الخمس والجمعة توفي سنة 1217 (1803).

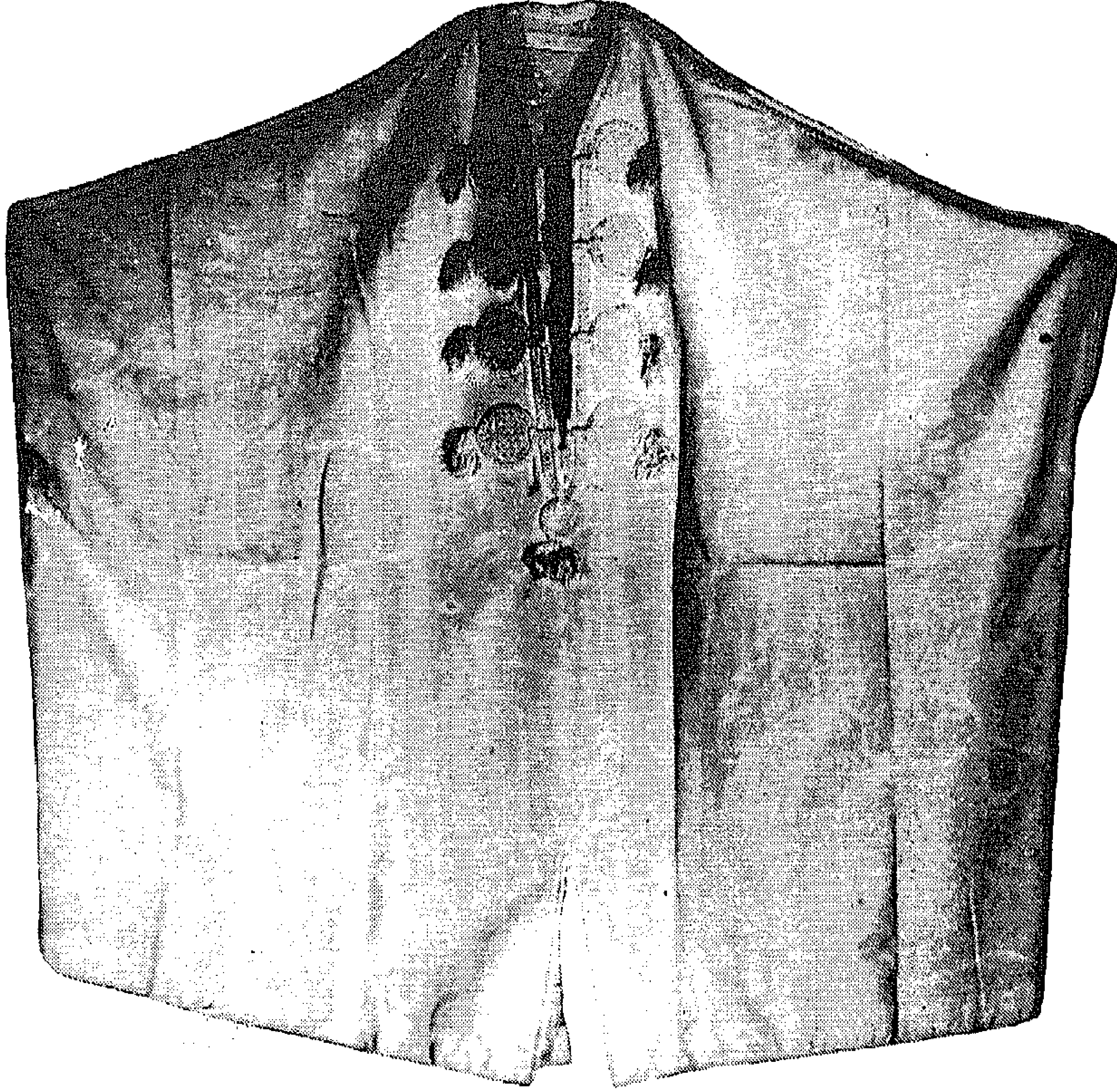
ــ عمر المحجوب : هذا الشيخ هو ابن العالم المتضلع في الفقه المالكي الشيخ قاسم المحجوب. تصدر الشيخ عمر للتدريس. كان عالما موثقا أديبا ثم انخرط في سلك أيمة جامع الزيتونة برتبة إمام ثالث أيامَ كان الشيخ الطويبي إماما ثانيا. ثم تقدم لخطة القضاء وقد كان الباي يكلّفه أحيانا بالإنشاء وفي ديوانه. ناب عن الإمامين في الخطبة.له رسالة بديعة في الرد على الوّهابية. توفي في 1222 (1807)[71].

ــ محمد الطاهر بن مسعود : هذا الشيخ من أبرز علماء العهد الحسيني وعلم من أعلامه. تصدر للتدريس بالمدرسة السليمانية وبجامع الزيتونة بث فيهما علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والبيان والمنطق والأصول. تخرج عليه عدد كبير من العلماء. له شرح على رسالة السمرقندي في علم البيان. تقدم إماما بجامع الزيتونة عوضا عن الشيخ عمر المحجوب في سنة 1221 أو 1222 (1806 ــ 1807). أصيب بالطاعون وهو يصلي الصبح بجامع الزيتونة وتوفي بعد قليل في سنة 1234 (1818).

ــ عمر ابن المؤدب : تقدم إماما ثالثا بالجامع لما انصرف عن هذا المنصب الشيخ الزاهد المتصوف محمد العيوني سنة 1220 (1805). وكان الشيخ عمر ملازما للجامع. موزعا أوقاته بين الإقامة به والقيام

71) انظر نصها في اتحاف...، 3، ص 64 ــ 75.

الجبة «بالسْمِش»



بمهامه بصفته شيخ الطريقة الشاذلية والناظر على مقام الشيخ سيدي أبي الحسن الشاذلي ومغارته. تقدم إماما ثانيا بجامع الزيتونة توفي سنة 1245 (1829).

ــ محمود محسن : (انظر قائمة الخطباء).

ــ محمد البنا : تولى هذا الشيخ القضاء ثم الفتيا وتقدم إماما ثانيا بجامع الزيتونة له ديوان خطب. توفي سنة 1283 (1866 ــ 67).

ــ صالح النيفر : (انظر قائمة الخطباء).

ــ محمد الشريف : (انظر قائمة الخطباء).

ــ علي العفيف : هو الشيخ علي ابن الشيخ الفقيه أبي القاسم العفيفي أو العفيف. ولي الشيخ علي مدرسا بالجامع الأعظم ومفتيا ثم تقدم إماما ثالثا بجامع الزيتونة سنة 1289 (1872 ــ 73) ثم إماما ثانيا لما ترقى الشيخ محمد الشريف إلى الإمامة الأولى والخطابة بعد وفاة الشيخ صالح النيفر. توفي في سنة 1292.

ــ أحمد بن محمد الشريف : (انظر قائمة الخطباء).

ــ حمودة بن محمد محسن : قام بإمامة التراويح بعد وفاة الشيخ ابن سليمان تقدم بعد أبيه شيخا على مشائخ قراء حزب السبع[72] :

72) ارشيف الحكومة... الملف 717 الوثيقة رقم 30 (1290).

تعيين مؤذن (1370 — 1951)

تعيين قار بحزب السبع — (1260 — 1844)

— محمد حمده الشريف (انظر قائمة الخطباء).

— محمود محسن (انظر قائمة الخطباء).

— مصطفى محسن (انظر قائمة الخطباء).

— محمد الصادق الشريف : هو الشيخ محمد الصادق ابن الشيخ محمد أحمد الشريف. كان مريضا غير قادر على القيام بالخطبة لما توفي الشيخ مصطفى محسن بحيث تعذرت تسميته إماما أول وخطيبا.

الأيمة الذين لم يرتقوا إلى الإمامة الثانية لأسباب مختلفة وغالبا بسبب وفاتهم

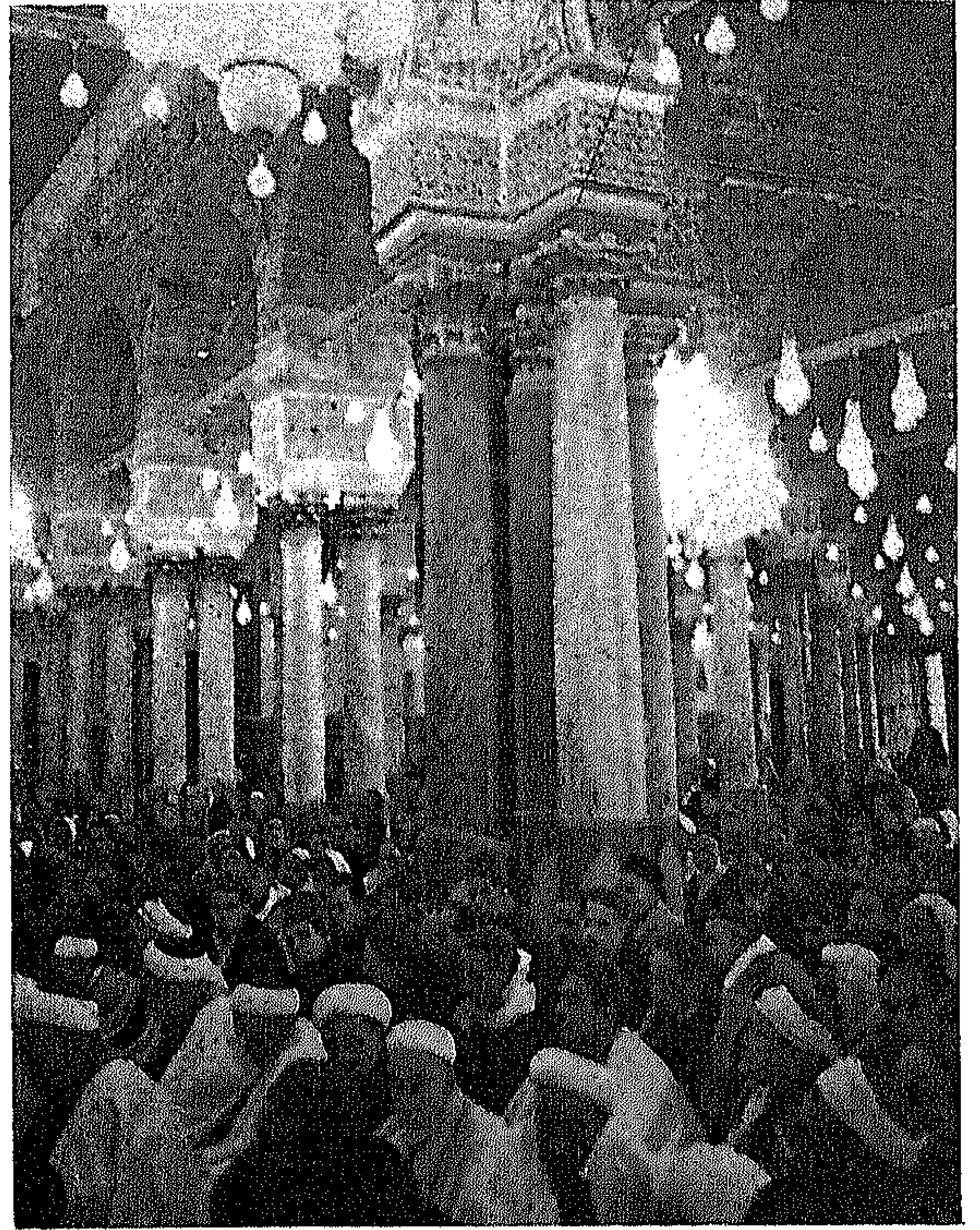
— الشيخ علي محسن الأكبر : ابن أحمد بن محمد بن محسن ابن الشيخ أحمد الشريف إمام جامع دار الباشا. وهو والد الشيخ الإمام محمود محسن تقدم إماما ثالثا بالجامع الأعظم زمن البكريين. اشتهر بفضله وصلاحه كان معتقدا محببا إلى الناس « **بحيث لا ينطق أحد اسمه إلا مقرونا بالسيادة** » (ابن أبي الضياف) توفي في سنة 1209 (1795).

— الشيخ محمد العيوني : كان متصوفا غلبت عليه نزعة الزاهدين المجذوبين واختار العزلة والانفراد فابتعد عن الامامة الثالثة توفي سنة 1220 (1805).

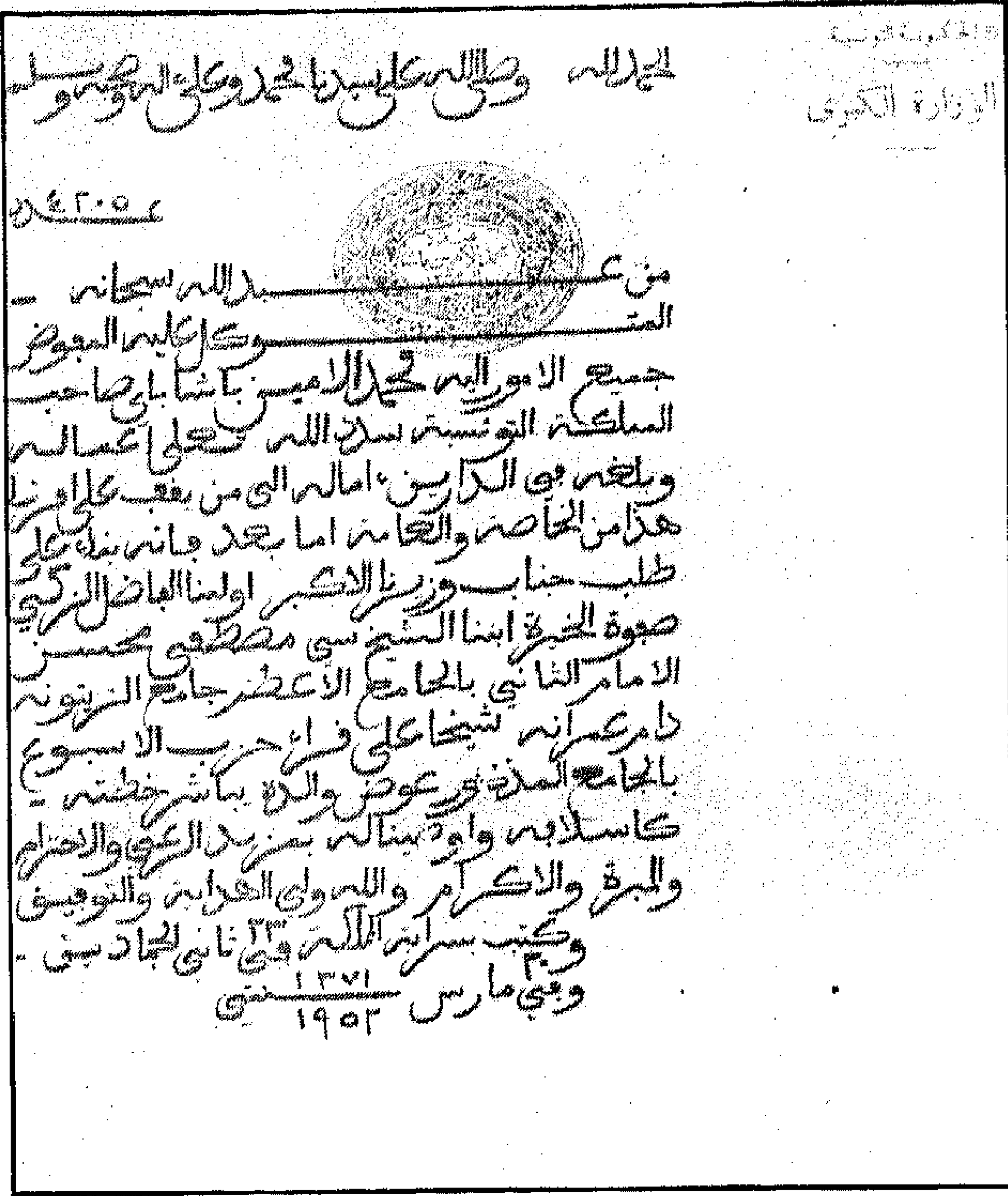
— محمد الشاذلي ابن المؤدب : هذا الشيخ هو ابن الإمام عمر بن المؤدب خلف أباه في رئاسة الطريقة الشاذلية. قدمه الباي قاضيا مالكيا سنة 1241 — 1826 وبقي في هذه الخطة الى سنة 1243 ثم ولي الفتيا وهو إمام ثالث بجامع الزيتونة فأبى أن يمشي خلف الشيخ الإمام الثاني محمود محسن فأمره الباي باحترام تراتيب الجامع ونظرا لكون مقام الفتيا لا انعكاس له على مراسم أيمة الجامع. توفي سنة 1263 — 1847.

— علي القروي : كان إماما ثالثا وشيخ الختمة(73).

73) ارشيف الحكومة... الملف 717 الوثيقة رقم 19 (1295).



المزوال (على يسار الصورة) وخلفه في الصف الثاني مشائخ الدول في أحد مواكب ختم الحديث بالجامع الأعظم.



الحكومة التونسية
الوزارة الكبرى

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

عدد ٤٢٠٥

من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الامور اليه محمد الامين باشا باي صاحب المملكة التونسية سدد الله تعالى اعماله وبلغه في الدارين آماله الى من يقف على امرنا هذا من الخاصة والعامة اما بعد فانه بناء على طلب جناب وزيرنا الاكبر اولينا الفاضل الزكي صفوة الخيرة ابنا الشيخ سي مصطفى محسن الامام الثاني بالجامع الاعظم جامع الزيتونة دام عمرانه شيخا على قراء حزب الاسبوع بالجامع المذكور عوض والده [illegible] كاسلافه [illegible] بمزيد الرعي والاحترام والمبرة والاكرام والله ولي الهداية والتوفيق وكتب بسراية الملك في ٢٣ ثاني الجمادين ١٣٧١ وفي ٢٠ مارس ١٩٥٢ سنتي

أمر في تسمية الإمام الثاني شيخا على قراء حزب «الاسبوع» بجامع الزيتونة. جمادى الثانية 1371 — مارس 1952.

— محمد بن الطاهر محسن : هو الشيخ محمد بن الطاهر ابن الشيخ الإمام محمود تقدم إماما للتراويح ثم إماما ثالثا، توفي في 1911.

— محمد بن مصطفى محسن : تقدم إماما للتراويح، وإماما رابعا، توفي في 1911.

— محمود بن حمودة محسن : كان إماما ثانيا ثم إماما رابعا فثالثا. توفي في 1928.

— الهادي الشريف : تقدم إماما للتراويح ثم إمامًا ثالث مع بقائه على خطة إمامة التراويح توفي في 1935.

— علي محسن : ابن الشيخ محمد بن مصطفى محسن. انخرط في سلك الأيمة بصفة نائب. ادركته المنية سنة 1934 وهو إمام رابع.

— محمد بن مصطفى بن محمود محسن : تقدم نائبا بعد وفاة جدّه الإمام الأول الشيخ محمود في سنة 1953. ودام انخراطه في سلك أيمة الجامع إلى سنة 1957.

وقد سبق أن ذكرنا أنّ بسبب وقوع شيء من الاضطراب في نظام إقامة الصلوات عيّن الباي سنة 1280 (1863) الشيخين المدرسين محمد الشاذلي بن صالح وعلي العفيف بالنيابة عن أيمة جامع الزيتونة يصليان بالناس عند الاقتضاء. وفي سنة 1294 — 1877 مدة إقامة الشيخ محمد محسن سمي إمام التراويح الشيخ محمد بن الطاهر محسن نائبا ثانيا مع إبقائه إماما للتراويح ثم عوضه في أداء هذه الصلاة الشيخ محمد ابن مصطفى محسن ولما صار هذا الأخير إماما رابعا خلفه في إمامة التراويح ابنه الشيخ محمود محسن.

ويظهر أن النيابة كانت تبطل أحيانا ثم تعود كما كانت تنحصر في شخص واحد أو توزع على اثنين.

ففي سنة 1329 — 1911 مثلا، كان سلك أيمة جامع الزيتونة على النحو التالي :

الإمام الأكبر : أحمد الشريف
الإمام الثاني : حمودة محسن
الإمام الثالث : محمد بن الطاهر محسن

الإمام الرابع : محمد بن مصطفى محسن
إمام التراويح : محمود بن محمد بن مصطفى محسن
النائب الأول : حمده الشريف
النائب الثاني : محمد بن حمودة محسن

بينما كان في سنة 1347 (27 — 1928) علي النحو التالي :

الإمام الأكبر : حمدة الشريف
الامام الثاني : محمود محسن
إمام ثالث وإمام التراويح : الهادي الشريف
الإمام الرابع : علي بن محمد بن مصطفى محسن

أما سنة 1354 (1935 — 1936) فكان كما يلي :

حمده الشريف : إمام أكبر وخطيب
محمود محسن : إمام ثان وخطيب بالنيابة
محمد الهادي الشريف : إمام ثالث مع التروايح
مصطفى محسن : إمام رابع
الصادق الشريف : نائب الأئمة.

وبعد ارتقاء الشيخ محمود محسن إلى خطة إمام أكبر وخطيب في سنة 1951 صار سلم أيمة جامع الزيتونة على النحو التالي :

— الإمام الأكبر والخطيب : الشيخ محمود محسن
— الإمام الثاني : الشيخ مصطفى بن محمود محسن
— الإمام الثالث : الشيخ الصادق الشريف
— الإمام الرابع وإمام التراويح : الشيخ عبد الكبير الشريف
— النائب : الشيخ أحمد بن حمدة الشريف.

ولمّا ارتقى الشيخ مصطفى محسن إلى الإمامة الكبرى والخطابة سنة 1953 صار سلم الأيمة على النحو التالي :

— الإمام الأكبر والخطيب : الشيخ مصطفى محسن
— الإمام الثاني : الشيخ الصادق الشريف
— الإمام الثالث وإمام التراويح : الشيخ عبد الكبير الشريف
— الإمام الرابع : الشيخ أحمد الشريف
— النائب : الشيخ محمد بن مصطفى بن محمود محسن.

سدنة جامع الزيتونة في العهد الحسيني :

— **المِزْوَال** : كان يسمى في العهد الحفصي المزوار ولا ندري ما هو سبب تغيير التسمية وهل واكب تغيير الاسم تغيير في المشمولات. أمّا في العهد الحسيني فتتمثل خطة المِزْوال — ويسمى أيضا وكيل البيت — في النظر على سائر شؤون الجامع في ميدان الشعائر ويراقب مواضبة المؤذنين والقرّاء وسائر خدمة الجامع وله النظر على وكلاء الأحباس الخاصة بسدنة الجامع. وهو المباشر لإزالة ما يقع بالجامع مما لا ينبغي. والمزوال متصل بذات الإمام الخطيب يرجع بالنظر إليه، لا يكون الخطيب بالجامع إلّا المزوال معه ماثلا بين يديه وسنتعرض إلى ذلك بالتفصيل عند الحديث عن مراسم الجامع.

وخطة المزوال من الخطط النبيهة في العاصمة لا يتولاها الا من تتوفر فيه شروط منها العفة والديانة والأصالة فمن الأسر التي تداول أفرادها تلك الخطة آل القصار وآل عويج.



الإمام الشيخ مصطفى محسن
محفوفا ببعض وقادة الجامع

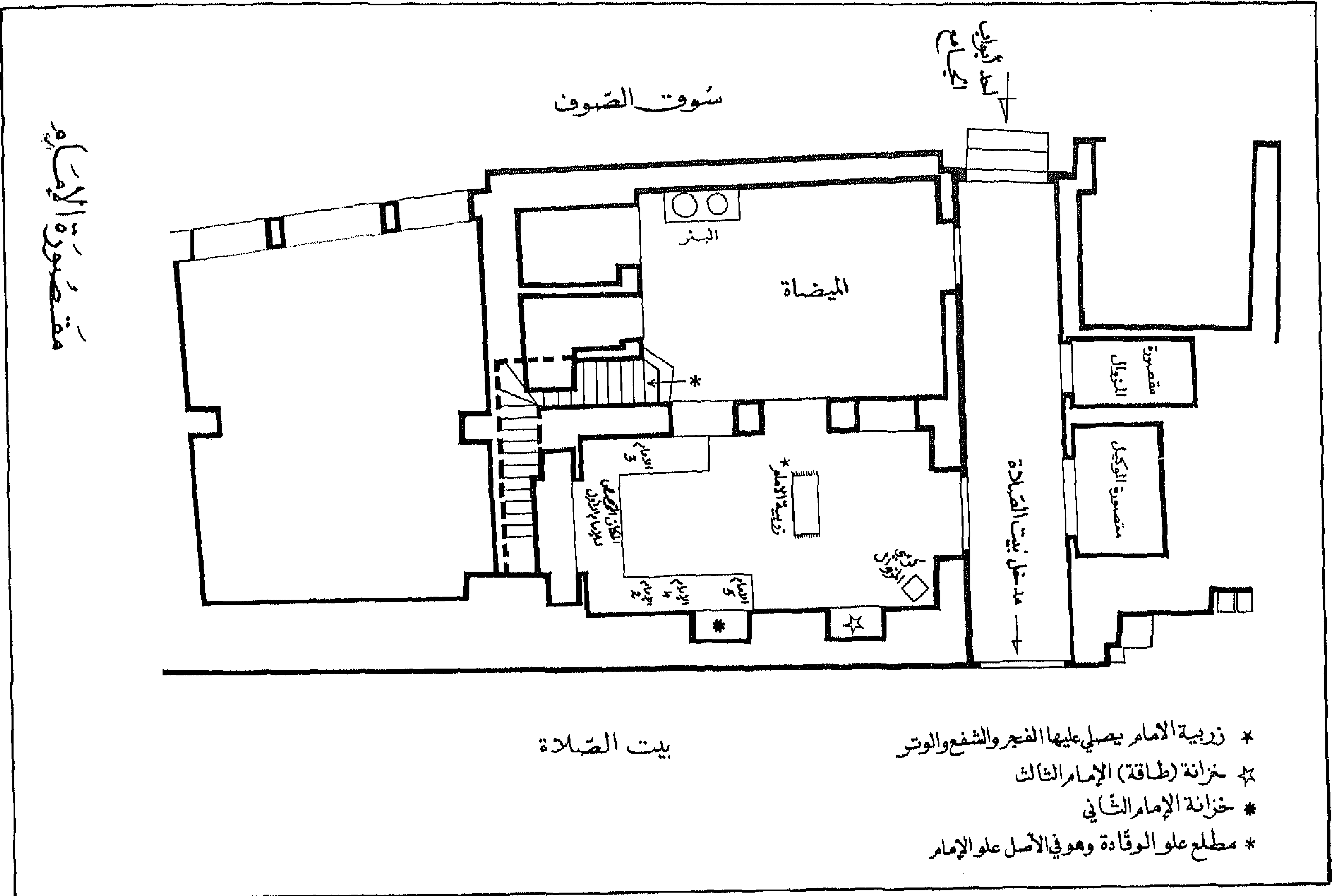
ويرتدي المزوال الجبة المطرّزة بما يسمى « بالسمش » الحريرية وهي من لباس أهل العلم ويجعل على رأسه « الزمالة » وهي تتركب من الشاشية ومن نسيج ملتف حولها على شكل مبروم ويضع على كتفيه البرنس الأبيض.

ويظهر أن الخطة يدخلها أحيانا شيء من الإهمال خصوصا في السنين العسيرة التي سبقت انتصاب الحماية والتي اضطرب فيها الهيكل الاجتماعي التونسي أي اضطراب. ففي رسالة موجهة للوزير الأكبر في سنة 1285 (1867) اشتكى الإمام الأول الشيخ محمد محسن من تهاون المزوال في القيام بواجباته «(...) **ووظيفه أن يأتي في كل يوم للحزب وينظر من حضر ومن لم يحضر والآن منذ سنين عديدة لم يأت إلى الحزب ولو يوما وبقيت أنا في تعب مع الناس وأخاطبه المرة بعد المرة** (...) **فلم يمتثل** (...)» ويقترح الإمام تعويضه إمّا « **بسي الشاذلي عويج أو سي حمدان القرشاني** »(74).

وقد يقوم المزوال بخطة الوكيل في الوقت نفسه كمثل الشيخ محمد الطاهر القصّار مزوال جامع الزيتونة بعد أخيه محمد وأبيه عبد اللطيف. فقد عينه أحمد باي الأول وكيلا بالإضافة إلى خطة المزوال(75).

وكيل الجامع : ومن الخطط النبيهة والوجيهة في العاصمة التونسية في العهد الحسيني خطة وكيل جامع الزيتونة وهو المتصرف في مداخيل الجامع من العقارات المحبسة لفائدته في العاصمة وضواحيها وداخل الإيالة ويقوم بمهامه تحت نظر الإمام الخطيب. وقد تعاطى هذه الخطة في أواسط العهد الحسيني أعيان تجّار العاصمة أمثال أحمد القسنطيني الذي ساهم بماله في تحسين بيت الصلاة كما أشرنا إلى ذلك سابقا. وأبطل هذا الوكيل ما كان يأخذه الوكلاء من موارد الأحباس على وجه العادة رفقا بحبس الجامع.

74) **أرشيف الحكومة** 716 مكرر الوثيقة رقم 3 رجب 1285.
75) **اتحاف**...، 7، ص 51.



وتفيدنا رسالة وجهها المفتي والإمام الشيخ محمد الشريف إلى الوزير الأكبر في 1294 (1877) أن من عادة وكلاء الجامع اشتراء ما يكفي من الزيت في السنة ووضعه في الغرفة المعدة لذلك (الخزنة) وذلك عند انحطاط الأسعار لتخفيف أعباء التكاليف(76).

الشهادة على أوقاف الجامع : كان بجامع الزيتونة شاهدان من العدول الموثقين يقومان بالشهادة على سائر حساباته وموارده فكانت الشهادة على أوقاف الجامع من الخطط المعتبرة كالشهادة على بيت المال أو الشهادة على الديوان والشهادة على أوقاف الحرمين وغيرها فمن الشاهدين على أوقاف الجامع أفراد من أسرة القلشاني (القرشاني) العريقة(77).

ـــ **أحزاب القُرّاء** : يتميز جامع الزيتونة على سائر الجوامع بتعمير أرجائه بتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار وقد تظافرت الجهود من لدن العهد الحفصي حتى ازداد عدد الأحزاب المرتبة للتلاوة وازداد عدد القُرّاء المرسمين للقيام بهذا العمل الجليل. وأشهر هذه الأحزاب حزب السبع الّذي أسسه السلطان أبو العباس أحمد ابن أبي بكر الحفصي وخاصية هذا الحزب أن يختم فيه القرآن كل يوم جمعة، وهناك أحزاب أخرى هي حزب الترغيب والترهيب بعد صلاة العصر أسسه السلطان أبو فارس وحزب عزيزة عثمانة وحزبا حسين باي ابن علي وحزب تركية بنت علي باشا وحزب علي باي وحزب يوسف صاحب الطابع وحزب أحمد آغا(78) بالإضافة

76) **ارشيف الحكومة**... الملف 718 الوثيقة 17 (18 قعدة 1294).
77) **اتحاف**...، 7، ص 139.
78) انظر : **معالم التوحيد** : (الطبعة الثانية) ص 77 ـــ 78 و **ارشيف الحكومة**... الملف 1700 الوثيقة رقم 27.



خروج الامام الشيخ مصطفى محسن من داره قاصدا الجامع الأعظم لأداء صلاة العيد سنة 1956 وأمامه المزوال ومشايخ الدول

إلى القراءة على كرسي الختمة قبل صلاة الصبح وقبل الظهرين وهي من تأسيس السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي. وعلى كل الأحزاب والختمة أوقاف تكفي للقيام بها. وما انفكت الأحزاب تحدث حتى بلغ عددها فيما بين الحربين الخمسين حزبا ينخرط فيها نحو الثلاثمائة من القرّاء[79].

أمّا النظام الداخلي لأهم تلك الأحزاب أي حزب السبع فهو على النحو التالي[80] : يتوزع قرّاء الحزب على عدة فرق تسمى في اصطلاح الجامع « بالدُّوَل » ومفردها « دُولة » (بالواو المهملة) يكون عدد أفرادها حوالي الستين وعلى كل دولة شيخ يجلس في المحراب وجماعة دُولته حوله. وتقرأ كل دُولة ما اختصت به من أجزاء القرآن يوميا بعد صلاة الصبح ويقع الختم يوم الجمعة من كل أسبوع.

وهناك مناسبتان يقع فيهما اجتماع سائر الدول في وقت واحد داخل بيت الصلاة وهما : ليلة المولد النبوي الشريف وليلة السابع والعشرين من شعبان ترتل كل جماعة قدرها المعتاد من الكتاب العزيز وعندما ينتهي قرّاؤها من التلاوة ينتظرون وهم جالسون حول شيخ دُولتهم حتى يقع ختم القرآن من طرف دُولة الجمعة وهي التي تجلس بالمحراب.

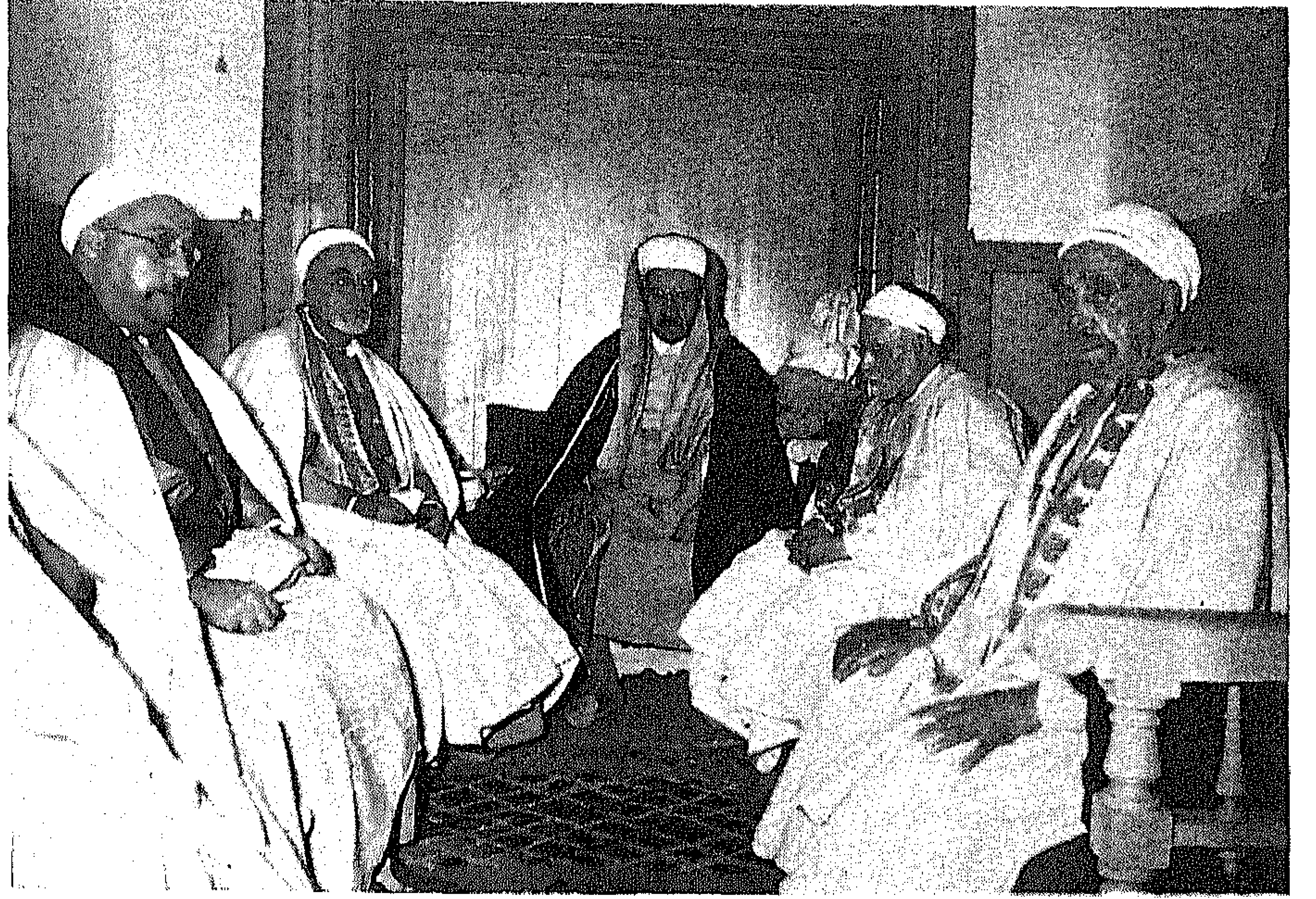
ويشرف على مجموعة دول القرّاء شيخ يسمّى شيخ مشائخ الدول، يحضر في المناسبتين المذكورتين منتقلا من دولة إلى أخرى يبتدىء بدولة السبت حتى يصل إلى دولة الجمعة.

وقبل أن نختم هذا الحديث الموجز على أحزاب القراء نشير إلى أن من مشائخ القراء من يكون في الوقت نفسه إماما للتراويح بجامع الزيتونة كمثل الشيخ محمد الصفّار المتولي سنة 1222 (1806) والمتوفى سنة 1245 ومن الأيمة من يكون أيضا من القراء بعنوان شيخ الختمة كالشيخ محمد محسن إمام التراويح الذي كان يتقاسم كرسي الختمة مع الشيخ عبد الرحمان محسن. أمّا الشيخ حمودة بن محمد محسن فكان إماما وشيخ مشائخ قرّاء حزب السبع وكان الأمر كذلك بالنسبة للشيخ محمود محسن الثاني[81].

79) محمد ابن الخوجة **معالم التوحيد** (الطبعة الثانية) ص 78.

80) استفدنا في إنشاء هذه السطور وبصفة عامة بكل ما يتعلق بمراسم ومواكب جامع الزيتونة بمعلومات السيد المنذر المبزع وهو من أبرز أبناء المدينة إلماما بموضوع العادات والتراتيب القائمة في مجتمع العاصمة وفي المؤسسات الدينية في العهد الحسيني فيسرّني أن أتوجه اليه من جديد بأحرّ عبارات الشكر والثناء كما استفدنا من معلومات الشيخ علي اللّبان المزوال بجامع الزيتونة.

81) **اتحاف**... الجزء 7 ص 156 و **ارشيف الحكومة**... الملف 717 في الوثيقة 30.



الامام الشيخ مصطفى محسن والمشائخ محمد العزيز جعيّط ومحمد عبّاس ومحمد مختار بن محمود والصادق المحرزي وهم جالسون بمقصورة الامام في انتظار الباي.

— **المؤذّنون** : يتبرك أبناء العاصمة بالانخراط في سلك مؤذني جامع الزيتونة حتى أنّ الناس عندما يزداد لهم مولود يسرعون الى الإمام الأول ويطلبون منه بطاقة انخراط الولد الجديد في زمرة مؤذني الجامع وتسمى هذه البطاقة المختومة بطابع الإمام الخطيب « التقديم » كما تقع تسمية المؤذنين بأمر من الباي موجها للإمام الأول[82] وقد يكون المؤذن قارئا من قرّاء الأحزاب في الوقت نفسه. ويقع توزيع المؤذنين على فرق تحمل هي أيضا اسم « الدُولة » وعلى رأس كل دولة شيخ. وشيخ دولة المؤذنين لا يصعد إلى الصومعة للقيام بالآذان وإنما يمكث في بيت الصلاة بين المحراب وباب مقصورة الإمام ليخرج أمامه حين يتوجّه لأداء إحدى الصلوات الخمس ثم يسير أمام إمام الخمس نحو المقصورة بعد انتهاء الصلاة ويحييه بالانحناء (الكبّان) في بهو المقصورة تعظيما لشأنه وشيخ دولة المؤذنين هو الذي يقيم الصلاة ثم يقف وراء الإمام للتسميع. أمّا بقية مؤذني الدُولة فبعد القيام بالأذان من أعلى الصومعة ينزلون فورًا نحو بيت الصلاة ويقفون للتسميع، واحد منهم أمام باب الشفاء وآخر في الباب حذو دكانة سيدي منصور بن جردان والبقية يقفون في باب البهور.

وتجدر الإشارة هنا إلى عادة مؤذني الجامع في إحياء الليل بأعلى الصومعة في انتظار أذان الصبح فينشدون أناشيد دينية تمتلىء بها أرجاء الأسواق والأزقة المحدقة بالجامع وتتلذذ آذان المارين والمقيمين بالاستماع إليه ويظهر أنّ حبسا من أحباس المارستان كان يصرف دخله على المنشدين بصومعة جامع الزيتونة لأن أناشيدهم تؤثر تأثيرا حسنا على أعصاب المرضى[83] ويُعبر على هذا المجلس في اصطلاح الجامع بـ « يدفنوا الليل » ويشارك في هذا العمل الذي ينتظم أيضا ليلة الجمعة قبل صلاة العشاء اناس من غير المؤذنين.

ومن مظاهر حرص أبناء العاصمة على التبرك بالانخراط في سلك سدنة جامع الزيتونة وبخاصة في سلك المؤذنين وجودُ الحنفية فيهم وقد طلب الإمام من الباي إعفاءهم من الخدمة العسكرية في الفوج الحنفي الذي أمر محمد الصادق باشا باي بإحيائه سنة 1281 — 1865[84]. وأدّى هذا الحماس الى زيادة مفرطة في عدد المؤذنين وترتب على ذلك انحلال في نظام الأذان لأن كثرة المؤذنين تسببت في اعتماد بعضهم على

82) **ارشيف الحكومة التونسية** الملف 718 الوثيقة رقم 2، 11، 13 وغيرها.

83) إرشادات أفادنا بها الأستاذ صالح المهدي والسيد حمادي محسن.

84) **أرشيف الحكومة**... الملف 718 وبقية رقم 10، **اتحاف** الجزء 6 ص 43.



ختم الحديث سنة 1382 ـــ 1963
(من اليسار الى اليمين) : الشيخ محمد الصادق الشريف، الامام الثاني، الشيخ مصطفى محسن، الإمام الخطيب، والأستاذ الشيخ محمد المختار بن محمود

بعض. ولذلك أمر محمّد باشا باي سنة 1255 ـــ 1855 بالتنقيص في عدد المؤذنين من مائة وأربعين مؤذنا إلى ثمانين إلا أن محمد الصادق باشا باي أذن بإرجاع المعزولين فورَ جلوسه على العرش سنة 1276 ـــ 1859 مراعاة لحرص الأهالي في الانتساب لخدمة الجامع الأعظم فتم إرجاعهم على يد الإمام الأول الشيخ محمود محسن ما عدى مؤذنين أحدهما ارتكب عملا فظيعا في الصومعة والآخر كان إذا صادف أن ينام في الصومعة ينزل منها ويقيم صلاة الصبح ويصلي من غير وضوء ! (85).

أمّا مداخيل المؤذنين فكانت في حدود سنة 1276 (1859) على نوعين : مرتّبات من « وقف البيت » (يعني الجامع) مقدارها 16 « ناصري » في كل شهر ومداخيل الأحباس الخاصة بالمؤذنين من الزيتون يصح للواحد منهم أربعون ريالا قبل التنقيص من قيمة العملة وما يقارب مائتي ريال بعد التنقيص في السنوات 1860.

كما يأخذ كل واحد من المؤذنين نصف ريال ثم صاروا ريالين شهريا من المداخيل الواردة من غير الزياتين(86).

ـــ **وكيل أحباس القرّاء والمؤذنين** : لكل حزب من أحزاب القرّاء والقارىء على الخِتمة أحباس خاصة بهم على غرار ما ذكرناه بالنسبة للمؤذنين والمتصرف في هذه الأحباس والمشرف على مراقبتها وجمع مداخيلها ثم توزيعها على مستحقيها هو الوكيل وبالإضافة إلى أوقافهم كان القرّاء والمؤذنون يتمتعون بمنح «العوايد» وهي فيما يظهر كميّات من الزيتون يتكلف الوكيل بدفعها لمستحقّيها(87).

ولما تأسست جمعية الأوقاف سنة 1291 ـــ 1874 شرعت في مراقبة سير الأحزاب قصد تسوية أوضاعها وقامت ببحث عن كيفية استحقاق القرّاء في الأوقاف المرتبة عليهم فوجدت المرتبات تختلف من نصف ريال في الشهر إلى عشرة كما عثرت على أحزاب قرّاؤها قليلون ويتولّون أمر أوقافها بصفة مباشرة

---

85) **ارشيف الحكومة**... الملف 718 الوثيقة رقم 10 بتاريخ اوائل ربيع الثاني 1276 و **اتحاف** 4 ص 196 ـــ 197 و 5، ص 15.
86) **ارشيف الحكومة**... الملف 718 الوثيقة 10.
87) **ارشيف الحكومة**... الملفات 716 مكرر الوثيقة رقم 3 و 717 الوثيقتان 6 و 30، 718 الوثيقة رقم 9. ومحمد الحشايشي : **تاريخ جامع الزيتونة**، ص 67.



محمد الأمين باشا باي في موكب المولد النبوي الشريف بالجامع الأعظم. الحاضرون من اليمين إلى اليسار : الأمير محمد الصادق باي، محمد الأمين باشا باي، الإمام الخطيب الشيخ محمود محسن، الشيخ محمد عباس شيخ الاسلام الحنفي، الشيخ محمد العزيز جعيط شيخ الاسلام المالكي.

يتقاسمون المداخيل بينهم حتى تبلغ حصة الواحد منهم إلى ستين ريالا في الشهر وذلك خلافا لنص المحبس.

كما أبرز البحث الذي قامت به إدارة الجمعية وجود وضع عرضه رئيس الجمعية الشيخ محمد بن مصطفى بيرم على الوزير خير الدين في رسالة مؤرخة في 14 شوال 1294 قائلا : « **إن الجمعية وجدت العمل قد جرى في كثير من الأحزاب الوافرة الدخل بأن يستبد بالولاية فيها أناس أغنياء وربما انجر لهم ذلك بالتوارث وكل واحد منهم يستنيب أحدا من الطلبة الفقراء يجعل له جزءا من الدخل مع أن المتولي لا يتعاطى ذلك أصلا** »(89).

وفي نطاق مراقبة الأحزاب أحدثت جمعية الأوقاف وظيف «المنكّت على الدُوّل» يكون صاحبه أحد عدول الجمعية ويأتي إلى الجامع لمراقبة القُرّاء في مواظبتهم.

ـــ **صاحب باش طريق** ينحصر دور هذا السادن في تلاوة الحديث الشريف « **إذا قلت لصاحبك انصت والإمام يخطب فقد لغوت ومن لغى فلا جمعة له** » ويضيف « **انصتوا انصتوا يرحمكم الله** » يوم الجمعة بين الأذان والخطبة على عادة الجوامع المالكية ويلبس صاحب باش طريق الزمالة والجبة « بالسمش » مثل مشائخ دول الأذان.

ـــ **الوقادة** : عددهم حوالي الثمانية والوقاد يقوم دائما بعمله مرفوقا بأحد زملائه. أمّا مشمولات الوقاد فهي تنظيم الجامع وفرشه وقمه واستصباحه والمكوث بين يدَي أيمة الخمس فالوقاد هو الذي يدخل إلى مقصورة الإمام ليعلمه ببداية الأذان بذكر اسم الصلاة المعينة فيقول « صبح » أو « ظهر » أو غيرها من الصلوات الخمس ثم يعلمه بانتهاء الأذان قائلا : « سكت » (يعني المؤذن) فيأمر حينئذ الإمام الوقادَ بالخروج إلى شيخ دُولة المؤذنين ليقيم الصلاة وعبارة الإمام المصطلحة هي « قيم » ولا يخرج الإمام الا عند انتهاء شيخ الدولة من الإقامة.

89) ارشيف الحكومة ملف 688 الوثيقة رقم 5.



أحمد باشا باي الثاني بالجامع الأعظم

وعلى ذكر هذا الترتيب يحكى أنه في يوم من ايام الصيف بينما كانت الصلاة تقام في صحن الجامع بحيث يسمع الإمام بكل وضوح الأذان من الصومعة المطلّة على الصحن ظهر للوقاد المعيَّن أن لا يعلم الإمام الشيخ محمود محسن ــ وكان شديد المحافظة على تقاليد الجامع ــ ببداية الأذان خلافا للأسلوب المعتاد واقتصر على إعلامه بحلول وقت الإقامة فأجابه الشيخ سيدي محمود : « ماذا تقول ؟ أنا ما سمعت النداء » ففهم السادن المراد وأعاد إخبار الإمام ببداية الأذان وبانتهائه على مقتضى النظام الجاري(90).

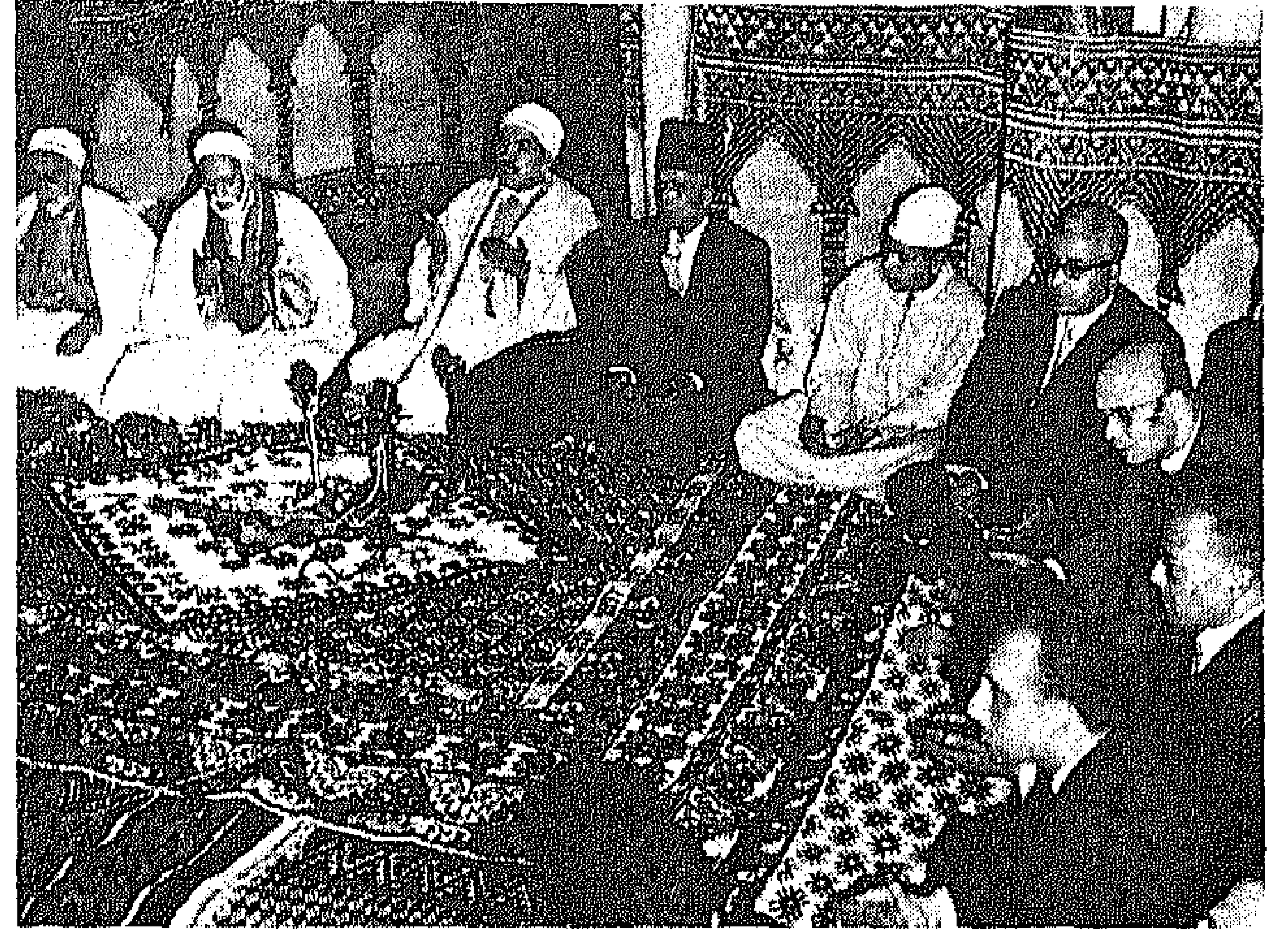
ومن مهام الوقاد الإتيان لدار الإمام المكلف بإقامة الصلوات الخمس عند الفجر ثم قبيل الظهر والمغرب والعشاء وعند وصوله الى الدار يقول « **الصلاة حضرت، الصلاة حضرت، يرحمكم الله يا دار الخير يا دار البركة** » ثم يخرج الإمام قاصدا الجامع يتقدمه الوقّاد ويكون بيده المصباح «الفنار» اذا اقتضت الحاجة.

وعلى الوقادة عميد يسمى « الباش وقاد » يقوم بنفس الأعمال إلّا أنه يمتاز بامتيازات خفيفة كإعطاء الكتب إلى الأيمة مدة رواية الحديث.

أمّا لباس الوقادة فهو الزمالة الخضراء والجبة الاعتيادية والبرنس الأبيض.

ــ **السقاءان** : يسمى أقدمهما الباش سقا يتمثل دورهما في توزيع ماء الشراب على المصلين.

90) الصلاة تقع غالبا في صحن الجامع من الأسبوع الأول من الصيف الى الأسبوع الأول من الخريف ويقف الإمام تحت قبة البهو أمام باب البهور الذي يغلق مسراعاه بالمناسبة.



ختم رواية الحديث في 23 رمضان 1378 بحضور ولي العهد المغربي الحسن والرئيس الحبيب بورقيبة والشيخين محمد العزيز جعيط ومحمد الطاهر ابن عاشور وأعضاء الحكومة.



زيارة الملك فيصل صحبة الشيخ مصطفى محسن، الامام الأول والشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، مفتي الجمهورية

الانحلال في نظام موارد الجامع في أواخر القرن الثالث عشر (النصف الثاني من القرن التاسع عشر).

اتصفت السنوات التي سبقت انتصاب الحماية بتدهور الأحوال الاقتصادية والمالية انجر عنه اضطراب في سير سائر المؤسسات ومنها جامع الزيتونة وتمثل هذا الاضطراب في تقلص مداخيل أوقاف الجامع وعدم الانتظام في دفع المرتبات وتثاقل الدولة في توزيع العوايد. يقول في هذا الشأن الإمام الشيخ محمد محسن في رسالة وجهها سنة 1280 ـــ 1864 إلى الوزير الأكبر :

«(...) كان المرحوم سيدنا أحمد المشير جعل لنا عوايد في العام مرتين من قمح ودراهم وغير ذلك كما هو في شريف علمكم ثم بعد ذلك جعل المرحوم ابن عمه سيدي محَمد ذلك وأجراه لنا ثم إن سيدنا الموجود الآن تغافل عن ذلك ربّنا يحول رأيه إلى ما كان عليه أوائله من إجراء العوايد. ثم إنّا طلبنا ذلك في ما تقدم فأفضى نظركم السديد ان تجعلوا لنا مرتبا من السيد الصحبي رضي الله عنه عشرة ريالات يومية أخذناها مدة ونحن شاكرون بفضلكم ثم إنها انقطعت علينا الآن خمسة أشهر (...)»(91). أما المرتب شهريا من نفس الوقت على الشيخين عبد الرحمان بن محمد محسن ومحمد بن الطاهر محسن فقد تعطل توزيعه عليهما مدة ثلاث سنوات(92).

مراسم جامع الزيتونة في الجمعة والعيدين والمواكب

صلاة الجمعة(93) يتصف هذا اليوم المبارك بمزيد البهجة في مراسم الشعائر بجامع الزيتونة ومن أهم التراتيب الخاصة بالجمعة ما يتعلق بالإمام الخطيب. فبعد خروجه من داره يتقدمه أحد الوقادة يدخل إلى الجامع من باب سوق الصوف المؤدي إلى المقصورة المعدة لجلوس الأيمة. فيرتدي فيها القيافة ويجلس في المكان الخاص به وهو المقابل لباب الحجرة. أمّا المِزوال فله مكان خاص بالقرب من مقصورة الإمام يسمى مقصورة المزوال يلبس فيها بدلة المناسبات التي وصفناها سابقا ثم يعلمه باش وقاد بالتوجه إلى مقصورة الإمام وهناك يجلس على كرسي معد له تجاه مقاعد الأيمة في انتظار الأذان. وبعد أن يخبر باش وقاد الإمام

91) **ارشيف الحكومة**... الملف 716 مكرر الوثيقة 21 (شوال 1280).

92) **ارشيف الحكومة**، الملف 716 الوثيقة 39 ـــ 10 شعبان 1287.

93) من خاصيات جامع الزيتونة إقامة صلاة الجمعة ساعة إلّا الربع قبل العصر، وفي بقية أيام الأسبوع تقام صلاة الظهر مؤخرا بالنسبة لبقية الجوامع.



الإمام الخطيب الشيخ أحمد الشريف، إمام جامع الزيتونة
سنة 1991، تاريخ صدور هذا الكتاب

الخطيب بالأذان وبانتهائه يتوجه الإمام نحو بيت الصلاة يتقدمه المزوال وأمامهما الباش وقاد ووقاد آخر يفتح باب المقصورة على مصراعيه(94). وعندما يصل الإمام إلى المنبر يأخذ المزوال العصاة (العكاز) ويناولها الإمام(95). وبعد انتهاء الخطيب من القاء الخطبة الثانية يقيم المزوال الصلاة ثم يقف وراء الإمام ليُسمِّع الناس تكبير الإمام وجرت العادة في جامع الزيتونة أن صلاة العصر يقوم بها الإمام الخطيب. بعد الانتهاء من صلاة الجمعة يعود إلى المقصورة والمزوال معه جالسا على الكرسي المعد له بالغرفة ويجتمع عادة بالمقصورة في انتظار الصلاة بعض أقارب الإمام وأصدقائه من المصلين على وجه المؤانسة.

صلاة العيدين : كانت تتصف مراسم صلاة العيدين الخاصة بجامع الزيتونة بموكب رائع هو موكب خروج الإمام الخطيب من داره قاصدا الجامع ويكون على النحو التالي(96).

بعد طلوع الشمس يومَ العيد يذهب المزوال وجميع الوقادة ومشائخ دول الآذان وبعض المؤذنين وجمع من المصلين إلى دار الإمام وهناك يجلس المزوال ومشائخ الدول بوسط الدار ويشرع خدمة المنزل في توزيع الحلويات على الحاضرين ثم يقع رشهم بماء الياسمين وبعد ذلك يخرج الإمام من حجرته فيسلم عليه المزوال ومن معه بتقبيل يده أو بالانحناء (الكبّان) وبعد تلاوة سورة الفاتحة يشرع المزوال وبقية الحاضرين من سدنة الجامع بالتكبير مرتين وهم واقفون على صفين وفي الثالثة يخرج الإمام من الدار يتقدمه الناس ثم مشائخ الدول ثم الوقادة ثم المزوال وهم يكبرون طيلة السير عبر الأزقة والأسواق حتى يصل الإمام إلى الجامع فيدخل إلى المقصورة من باب سوق الصوف.

وتجدر الاشارة إلى أنّ هذا الترتيب البديع يرتبط ارتباطا كليا بالوضع الاجتماعي والعمراني القديم لمّا كان الناس وبخاصة أعيان البلد يسكنون داخل المدينة العتيقة (دار الشريف بنهج سيدي معاوية أو دار محسن بنهج محسن بساحة القصر مثلا). أمّا اليوم فقد أصبح استمرار هذا الموكب أمرا مستحيلا نظرا لاتساع الشبكة السكنية وخروج الناس من ديار المدينة وتفرقهم في أحياء مختلفة في العاصمة وضواحيها. فاختصر الموكب بعد وفاة الشيخ مصطفى محسن إلى انتظار الإمام الخطيب أمام جامع يوسف داي وقراءة الفاتحة عند وصوله ثم التوجه نحو جامع الزيتونة على النحو الذي وصفناه سابقا.

أختام الحديث(97) : أشرنا سالفا إلى عادة قراءة الحديث بالجامع الأعظم في أشهر رجب وشعبان ورمضان كما ذكرنا أن الزيتونة اختصت منذ زمن بعيد بتناول كتب الحديث روايةً لا دراية حتى صارت قاعدة راسخة يصعب خرقها. يُحكى أن بعض الفقهاء اقترح على الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي لما سمي إمامًا خطيبا، تعويض مجرد الرواية بالقاء درس في الحديث فأبى أن يكون سببا في خرق عادة من عادات الجامع الأعظم قائلا « هي رواية لا دراية ».

أمّا مجالس رواية الحديث فتبدأ غالبا في الأحد الثاني من شهر رجب وتستمر إلى حدود اليوم الثاني والعشرين أو الثالث والشعرين من رمضان بدون انقطاع باستثناء فترة وجيزة قبيل حلول شهر الصيام. وتنعقد حصص الرواية في أربعة أيام كل أسبوع هي السبت والأحد والاثنين والثلاثاء. أمّا الموكب الرسمي للختم فيقع دائما عشية اليوم السادس والعشرين من رمضان.

---

94) لا يفتح باب المقصورة على مصراعيه الّا عند حضور الخطيب بالجامع.
95) توجد عصاة الجمعة وعصاة صلاة الأستسقاء وتحفظان بمقصورة الإمام بالقرب من كرسي المزوال.
96) من خلال إرشادات مكتوبة أفادنا بها الشيخ علي اللّبان مزوال جامع الزيتونة.
97) إرشادات أفادنا بها السيد المنذر المبزع.

وتقام حصص الرواية بين الظهر والعصر من طرف الإمام الأول والإمامين الثاني والثالث على النحو التالي : يخرج الإمام الأول من المقصورة لأداء صلاة الظهر يتقدمه المزوال وباش وقّاد ووقّاد آخر ويخرج وراءه الإمامان الثاني والثالث مرتدين القيافة على غرار الإمام الأول إجلالا للحديث النبوي وحين يتوجه الإمام نحو المحراب يقف الإمامان في الصف الأول في مكان وقع حجزه مسبقًا من قبل وقادين وإثر صلاة الظهر والتسبيح (129 مرة اسم اللطيف) وتلاوة الفاتحة عددا معينا يتوجه الإمام الخطيب والإمامان خلفه — مباشرة إلى جهة بيت الصلاة الواقعة حذو باب الشفاء يتقدمه المزوال وباش وقّاد حاملا كتب الحديث : يجلس الإمام الأول متكئا على جدار بيت الصلاة في المكان الذي اشتهر منذ سنة 1258 — 1842 بالمعلّقة إشارة إلى نص ترتيب التعليم لأحمد باشا باي الذي رسم بالأحرف الذهبية وعلق في الجدار الغربي لبيت الصلاة. ويجلس الإمام الثاني متكئا على سارية تجاه الإمام الأول والإمام الثالث حذوه ثم يجلس المزوال أمام باب الشفاء ويقابله باش وقّاد ويجتمع الناس حول هذه الحلقة فتبدأ الحصة برواية البخاري من طرف الإمام الأول ثم يقرأ الإمام الثاني ما تيسر من صحيح الإمام مسلم ويتلو الإمام الثالث جانبا من كتاب الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض وإجلالا للحديث النبوي يقع فرش الساحة المخصصة للرواية بسجادات من نوع خاص وبتبخير أرجائها (ما عدى مدة شهر رمضان لأسباب واضحة) وبعد الانتهاء من الرواية عند حلول وقت العصر يقوم الإمام الأول ومن معه لأداء الصلاة فيسبقهم المزوال ليقيم الصلاة ريثما يصل الإمام إلى المحراب.

أمّا اليوم الذي تختم فيه رواية الحديث فيمتاز على الأيام الأخرى بالرش بماء الورد وبالتهاني التي يقدمها الإمام الثاني والإمام الثالث للإمام الخطيب ثم يهنّيهم الحاضرون. وفي عشية اليوم السادس والعشرين (ليلة 27) ينعقد بعد صلاة العصر الموكب الرسمي لختم رواية الحديث بحضور الباي وأعيان الدولة والشرع يأتي الباي من سوق القماش ويدخل لبيت الصلاة من باب الشفاء تبركا بالمرور من المكان الذي تقع فيه الرواية ولدى دخوله للبيت يخرج الأيمة وأعضاء المجلس الشرعي من المقصورة لاستقباله ثم يجلس الباي والأيمة أمام المحراب ويجلس خوله أعيان الحاضرين أمّا المزوال فيجلس أمام الإمام الأول وبيده كتب الحديث وخلفه مشايخ الدوّل ثم يشرع الإمام الثالث في رواية جانب من الحديث فالإمام الثاني فالإمام الأول ويختم هذا الأخير كلامه بالدعاء وبذكر الحديث الشريف : « **كلمتان خفيفتان على اللسان ثقليقان في الميزان حبيبتان إلى الرحمان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم** » وعندما ينتهي الإمام الخطيب، يجهر مشائخ دول المؤذنين بالتسبيح : « سبحان الله عدد ما خلق في الأرض سبحان الله عدد ما خلق في السماء سبحان الله عدد ما خلق بينهما » ويختم الموكب بتلاوة الفاتحة ثم يخرج الباي من باب البهور.

موكب المولد النبوي الشريف : لا شك أن مولد رسول الله ﷺ كان يُحتفل به في البلاد التونسية منذ عهد قديم[98] إلّا أن الحقبة الحسينية تميزت عن الحقب التي سبقتها بإحداث موكب بهيج يقام بالجامع الأعظم جامع الزيتونة بحضور الباي صبيحة يوم المولد.

وترجع فضيلة المبادرة إلى المشير الأول أحمد باشا باي (1837 — 1855) الذي أذن سنة 1257 — 1841 إمام الجامع آنذاك الشيخ ابراهيم الرياحي بسرد قصة المولد النبوي ويكون ذلك بحضوره[99].

فألّف الشيخ سيدي إبراهيم نصا في هذا الموضوع اقتبسه من قصة المولد للشيخ مصطفى البكري الدمشقي (1688 — 1749).

ومراسم الموكب هي التالية : يخرج الباي من سراية المملكة الكائنة بساحة القصبة متجها نحو جامع الزيتونة محفوفا بوزرائه وأمامه سماطان من سامي ضباط الجيش بزي المواكب والعساكر وهم مصطفون يمينا وشمالا على الطريق ثم يدخل الباي إلى الجامع من باب الصحن المواجه لباب البهور والفاتح على سوق العطارين بعد أن ينزع حذاءه على عادة جامع الزيتونة من الدخول إلى الصحن بدون حذاء فيتوجه نحو بيت الصلاة ماشيا على شريط من الحصر يربط بين باب الجامع والبيت. ويقع استقبال الباي من طرف الأيمة

98) محمد الفاضل ابن عاشور « كيف نشأ احتفال المولد في بلاد الاسلام » **المجلة الزيتونة** المجلد 1 الجزء 9 ص 462.

99) محمد ابن الخوجة : « مرور مائة عام على تأسيس حفلة مولدية رسمية بتونس » **المجلدة الزيتونية** المجلد 1 الجزء التاسع ص 467.

وأعضاء المجلس الشرعي داخل بيت الصلاة بالقرب من المحراب وأرجاء الجامع فائحة بأنواع البخور وثرياته نائرة. ثم يجلس الباي والإمام الأول في المحراب وأعيان الحاضرين حولهم فيشرع الإمام الأول في سرد قصة مولده ﷺ وحين ينتهي من قراءة الأبيات التي يتضمنها النص إلى قوله « **فقم أيها الراجي لنيل سعادة قيام محب صادق الحب والأدب**». ينهض الباي قائما ويقوم سائر من في الجامع وتقع الإشارة من صومعة الجامع إلى صحن القصبة فيجلجل المدفع من هناك ومن بقية أبراج العاصمة إجلالا للمولد ثم يجلس الباي والحاضرون للدعاء ويقدم للباي والأعيان كؤوس الحليب ثم يوزع سدنة الجامع على بقية الحاضرين الماء السكري المعطر المسمى (الشربات) وينتهي الموكب الرسمي.

أما بقية الحاضرين فمنهم من يستمر في قراءة دلائل الخيرات بعد أن انقطعوا عنها في أول الموكب عند دخول الباي إلى بيت الصلاة كما يجتمع جمع من الناس قرب باب الشفاء لقراءة الهمزية حول شيخهم المسمى شيخ الهمزية.

وقد استمرت هذه العادة المباركة بعد وفاة محدثها أحمد باشا باي وحرص كل من جاء بعده من البايات على احترامها والاعتزاز بالاحتفال بالمولد النبوي ناهيك أنهم يأتون إلى الموكب بزيهم الرسمي إجلالا لمولده ﷺ واعتبارا لشأن جامع الزيتونة.

هذا وإن للمولد النبوي بالجامع احتفاء آخر يقع ليلة الثاني عشر من ربيع الثاني يشتمل على اجتماع جميع دول القراء في وقت واحد ببيت الصلاة على النمط الذي وصفناه لما تحدثنا عن أحزاب القراء بجامع الزيتونة ويقع ذلك بعد صلاة العشاء.

كما كانت تلتئم الناس بمناسبة المولد في موكب غير رسمي ليلة المولد بين العشاءين يسرد فيه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور قصة المولد من إنشاء والده العلامة محمد الطاهر ابن عاشور كما يقوم الشيخ علي جعيط في الوقت نفسه بسرد قصة المولد.

المناسبات الاستثنائية

قبل أن نختم كلامنا على مراسم جامع الزيتونة ومواكبه وجلساته الدينية رأينا من الفائدة التعرض إلى الموكب الخاشع الذي أمر بانعقاده أحمد باشا باي بإشارة من القاضي الحنفي الشيخ مصطفى بن محمد بيرم لما اشتد المرض الوبائي سنة 1266 ـــ 1850. وتمّ لهذا الغرض انتخاب أربعين شريفا من أبناء الحاضرة اسمهم محمد ليجتمعوا بجامع الزيتونة من الصباح إلى الظهر ويقرؤون سورة يــس أربعين مرة ويدعون الله ليضمحل المرض بفضله ورحمته(100).

وتجدر الإشارة أيضا إلى مبادرة الشيخ الإمام الخطيب محمد الشريف بجمع الناس لختم البخاري في مجلس واحد للاستغاثة ودفع الكروب في أواسط جمادى الأولى سنة 1298 وهو عام الاحتلال الفرنسي وانعقد الاجتماع عند باب الشفاء بحضور الإمام الأول وبقية الأيمة وتسعة عشر مدرسا ليقرأ كل واحد منهم جزءا من صحيح البخاري ودام الموكب خمس ساعات واستمر هذا العمل مدة(101).

إقامة الشعائر في عهد الجمهورية

الأيمة الخطباء :

ـــ الشيخ مصطفى محسن : أبعد عن الخطة سنة 1376 ـــ 1957 قبيل تأسيس الجمهورية لأسباب مجهولة ولعلها سياسية اجتماعية.

---

100) قائمة الأشراف المنتخبين في **اتحاف**...، 4، ص 134.

101) **مسامرات الظريف**... (الطبعة الأولى) ص 279.

ـــ الشيخ البشير النيفر : هذا الشيخ من علماء الزيتونة المشهورين بتضلعهم في العلوم الدينية مع إلمام بالتاريخ والتراجم. أسندت إليه خطة الإمامة الأولى والخطابة بجامع الزيتونة سنة 1376 ـــ 1957. سنّ إقامة «الوظيفة» التجانية بالجامع بعد صلاة العصر لانتمائه لتلك الطريقة. ثم تخلّى عن الإمامة والخطابة سنة 1380 ـــ 1961 بعد أن رفض القيام بصلاة العيد في اليوم الذي تعيّن رسميا بمقتضى طريقة الحساب التي اعتمدتها الدولة في ضبط الأشهر القمرية بينما كان الشيخ البشير يستنكر تلك الطريقة ولا يعتمد إلّا على الرؤية وعلى الأخبار الواردة من بعض البلدان الاسلامية اعتقادا منه أنها تعتمد على الأسلوب الشرعي في ضبط الأشهر القمرية.

ـــ الشيخ مصطفى محسن : رجع إلى خطته التي كان ارتقى إليها بعد وفاة والده الشيخ محمود محسن سنة 1953 كما ذكرناه سالفا. وقام باعباء الإمامة الأولى والخطبة إلى وفاته سنة 1980.

ـــ الشيخ عبد الكبير الشريف : تقدم للإمامة الأولى وتعيّن الشيخ أحمد ابن الشيخ حمدة الشريف للخطابة بالنيابة. وكان ذلك في أواخر سنة 1980.

ـــ الشيخ أحمد ابن الشيخ حمدة الشريف : تقدّم إماما أوّل وخطيبا سنة 1988.

قائمة أيمة جامع الزيتونة من سنة 1957 الى الوقت الحاضر :

1957 ـــ 1961 : بعد إبعاد الشيخ مصطفى محسن ومن معه من الأيمة انحصر سلك أيمة جامع الزيتونة مدة أشهر في الشيخين البشير النيفر الإمام الأكبر والخطيب والشيخ عبد الكبير الشريف الإمام الثاني وإمام التراويح. ثم عاد الشيخان مصطفى محسن والصادق الشريف إلى الإمامة فصار السلك على النحو التالي :

ـــ الشيخ البشير النيفر : الإمام الأكبر والخطيب
ـــ الشيخ مصطفى محسن : الإمام الأول ويصلي الخمس بالتناوب مع بقية الأيمة
ـــ الشيخ الصادق الشريف : بلقب إمام ثان أول
ـــ الشيخ عبد الكبير الشريف : بلقب إمام ثان ثان وإمام التراويح

ولما سمي الشيخ مصطفى محسن إماما أكبر وخطيبا من جديد سنة 1961 صار سلم الأيمة كما يلي :

ـــ الشيخ مصطفى محسن : الامام الأول والخطيب
ـــ الشيخ الصادق الشريف
ـــ الشيخ عبد الكبير الشريف : وقد عوضه في صلاة التراويح بعد مدة الشيخ الكلبوسي.

ثم التحق بهم في سنة 1963 الشيخ البشير شقيق الشيخ الصادق الشريف بعنوان إمام ثالث.

ولما توفي الشيخ مصطفى محسن في ديسمبر 1980 لم يتعين الشيخ الصادق الشريف إماما أول وخطيبا بسبب مرضه (وفي ذلك العذر نظر) وسمي الشيخ عبد الكبير الشريف إماما أول وخطيبا والامام الثاني الشيخ أحمد ابن الشيخ حمدة الشريف ينوب عنه في الخطبة. والأيمة الآخرون هم الشيخ البشير الشريف إمام ثالث والشيخ حمادي (محمد) الشريف إمام رابع والشيخ عثمان بطيخ إمام نائب والشيخ الخطوي إمام التراويح.

وبعد إحالة الشيخين عبد الكبير الشريف والبشير الشريف على الراحة سنة 1988 اصبح سلك أيمة جامع الزيتونة على النحو التالي :

الأجلّاء الأفاضل :

ـــ الشيخ أحمد الشريف : الإمام الأول والخطيب
ـــ الشيخ محمد (حمادي) ابن الشيخ حمدة الشريف الإمام الثاني
ـــ الشيخ عثمان بطيخ الإمام الثالث (والخطيب بجامع محمّد باي)
ـــ الشيخ الخطوي إمام التراويح.

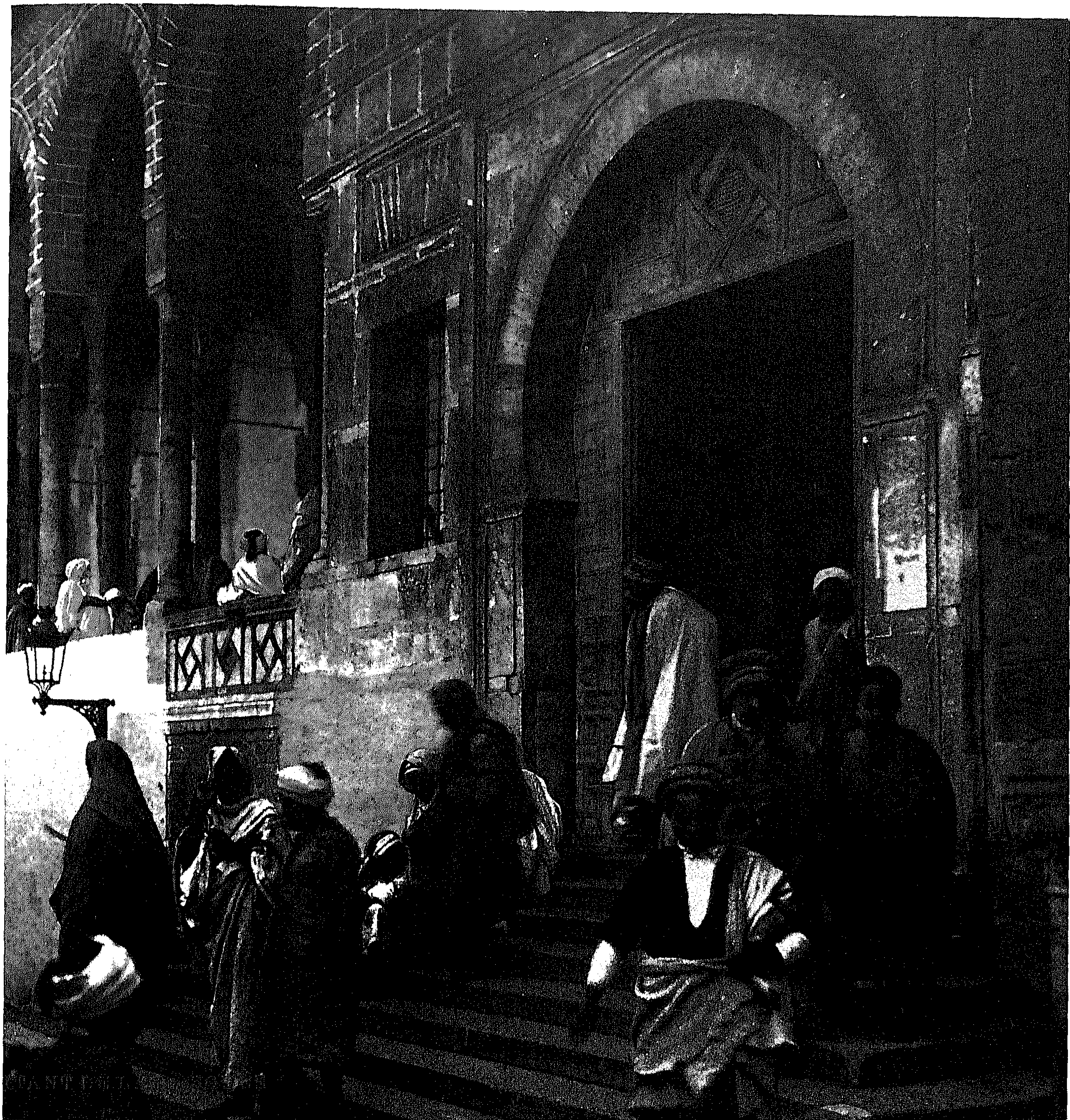
والمزوال هو الآن الشيخ علي اللبان وقد سمي في هذه الخطة سنة 1963 بعد وفاة الشيخ أحمد المغيربي.

موكب ليلة السابع والعشرين من رمضان في عهد الجمهورية

أحدثت دولة الجمهورية موكبا ليليا يحتوي على محاضرة دينية يلقيها غالبا مفتي الجمهورية بحضور رئيس الدولة. وقد التأم أحيانا هذا الموكب بغير جامع الزيتونة في أماكن مختلفة كالمسرح البلدي وقصر الحكومة بالقصبة. كما عيّنت الدولة بعض الأساتذة والباحثين لإلقاء محاضرة موكب ليلة السابع والعشرين من رمضان.

وقد أعيدت في مدة الرئيس الحالي السيد زين العابدين بن علي عادة انعقاد موكب ختم الحديث في عشية اليوم السادس والعشرين من رمضان يروي أثناءه الخطيب والإمامان الثاني والثالث ما تيسر من كتب الحديث الشريف بحضور رئيس الجمهورية. الّا أنّ إحياء العادة السابقة مُزِج في رمضان 1409 — 1989 بإلقاء درس قام به رئيس الجامعة الزيتونية.

أمّا فيما يتعلق بالتراتيب الإدارية والمالية فتجدر الإشارة إلى إبطال جميع أوقاف جامع الزيتونة بمقتضى الأمر الصادر غداة الاستقلال سنة 1956 والقاضي بإلغاء نظام الأحباس وبحل إدارة الأوقاف بحيث صارت ميزانية الجامع تعيّن سنويا من طرف إدارة الشعائر الدينية التابعة لرئاسة الحكومة (فرئاسة الجمهورية فالوزارة الأولى).



خروج مدرّس وبعض الطلبة من الجامع في مطلع القرن العشرين.

القسم الثالث

معهد التعليم بجامع الزيتونة

إنّ غاية التعليم في البلاد التونسية كما هو الشأن في سائر البلدان الإسلامية كانت بث القواعد والمعلومات التي تمكن المتعلم من تدعيم عقيدته واكتساب لغة كتاب الله العزيز، فالتعليم هو دراسة قواعد الدين الإسلامي والعلوم الدينية والشرعية (علم القراءات، علم الحديث، أصول الفقه، الفقه، علم الكلام...) وكذلك العلوم المساعدة عليها كالعلوم اللغوية والأدبية.

وكان هذا التعليم يعتمد على إقراء وحفظ الكتب والدواوين التي وضعها السلف الصالح. ولمّا كان التونسيون من أهل العلم في العصور الحديثة القريبة ينتمون إلى صنف المقلدين المتأخرين كانوا يعتبرون واجبهم الاقتصار على إيصال معلوماتهم لمعاصريهم وللأجيال المقبلة — مع بعض الاستظهارات والترجيحات — فالتعليم اذًا عمل ديني وأمانة يقوم بها الذين يعلمون للذين لا يعلمون قصد تمكينهم من معرفة دينهم. فيكون بالتالي التعلم واجبا دينيا على المؤمنين.

ويتضح مما ذكرنا أن التمكين من التعلم يتحقق بوجود عالم وطالبي علم فلا يحتاج التعليم إلى معاهد معينة ولا يخضع إلى قوانين مسطّرة ولا إلى برامج، كما لا يتقيد بمراقبة من طرف السلطة السياسية وقد ترتب على ذلك استقلال تام من نواح متعددة.

1) مقر التعليم : لقد اشتهر جامع الزيتونة منذ القديم بدوره في بث العلوم الإسلامية لكنه لم يستقل بذلك خصوصا قبل دولة أحمد باشا باي الحسيني فقد كانت الدروس تلقى وتلقن بالجوامع والمساجد وفي الزوايا وحتى في بيوت العلماء[1] بل كان مبثوثا داخل الإيالة يشهد لذلك ما اشتهرت به في مبادي الدولة الحسينية جربة بالشيخ ابراهيم الجمني وصفاقس بالشيخ علي النوري وزغوان بالشيخ علي عزوز[2].

2) طريق تلقي الدروس : كان ذلك إمّا باقتراح من الشيخ ورغبة منه في تدريس كتاب معين أو بطلب من تلامذته واقتراح منهم في تدريس كتاب فكان الشيخ لا يتأخر عن قبول اقتراحهم وإذا ما بدأ في تدريس الكتاب لا ينتقل منه لغيره إلّا بعد ختمه وربما استغرق ذلك سنوات.

3) نوع المتلقي للدروس : كان المتلقي للدروس غير مقيد بسن ولا برتبة وربما كان تاجرا أو عاملا أو فلاحا الخ...

4) الانتصاب للتدريس : كان لا يتقدم ولا ينتصب للتدريس إلّا من أذن له شيوخه في الانتصاب لذلك وهم بدورهم لا يأذنون إلّا لمن رأوا فيه الكفاءة التامة والأمانة العامة والصلوحية لذلك. وإذنهم له في ذلك من غير مراقبة وتتبع من طرف السلطة وكان المقياس في نجاح المدرس في تدريسه إقبال الجمهور عليه وإحجامهم عنه وذلك أعظم رقيب في الواقع. ولم يكن المنتصب لذلك يتقاضى أجرا من طرف السلطة فيما يقوم به من هذه الدروس يعيش مما تيسر من مداخيل الأوقاف المرتبة لفائدة العلم ورجاله وبالاشتغال بعمل

1) محمد الطاهر ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب**، تونس 1967 و 1988 ص 85.
2) حسين خوجة : **ذيل بشائر أهل الايمان** (الطبعة الثانية) : ص 119، 130 وغيرهما.

خارجي يدويا كان أو تجاريا فقد كان الشيخ محمد قويسم (من أشهر علماء العهد الحسيني الأول) مثلا يحترف بيع الزهور وكان المدرس الريكلي دباغا وكان بعض المدرسين يقرىء العلم بالأجر يأخذه من تلامذته(3).

وانبنى على ذلك استقلالٌ تام لهؤلاء الشيوخ عن أصحاب النفوذ السياسي فلم تكن لهم أية سلطة عليهم بخلاف من تقلد منهم خطة شرعية بحيث يتقاضى عليها جراية ولذلك كان الكثير منهم يبتعد عن هذه الخطط الشرعية مكتفيا بالتدريس حتى لا يرتبط بالدولة إذ يعتبر ذلك تقييدا لحريته وثقلا على كاهله وبالأخص خطة القضاء منها. وكان الشيخ صالح الكواش من أبرز أفراد هذا الصنف من العلماء في العصر الحسيني الأول(4). لم يكن المقصود الأصلي في التدريس تحصيل الشهادات لتكون وسيلة للإرتزاق وإنّما كان لتحصيل العلم ورفع الجهل والتعمق في الدين ولا يمنع هذا أن كثيرا من الوظائف المنبثة في البلاد كانت متوقفة على من تتوفر فيه هذه الكفاءات العلمية مثل الشهادة والتوثيق والخطط الشرعية ومن بينهم ما كان سبب تحصيله هو الذي بوّأه بعض المناصب الدولية كالكتابة بديوان الإنشاء. وإن هذا التعليم بالمساجد والزوايا وإن لم يكن منظما مرتبا فقد قام بشيء من حاجيات المجتمع في ذلك الزمان ولكن التطورات السياسية والتدخل التدريجي لأروبا في شؤون البلاد التونسية وما ترتب على انتصاب الحماية من صدمات انبنت عليها ظهور مقاييس وحاجيات جديدة ومما زاد في ذلك إنشاء المدارس الجديدة بأساليبها العصرية (المدرسة الصادقية، المدرسة العلوية، معهد الخلدونية) كل ذلك أظهر نقاط الضعف في التعليم الاسلامي بالبلاد. وأدّى بنبهاء الزيتونة وبعض رجال السياسة الى التفكير في إدخال اصلاحات على التعليم الزيتوني.

لمحة عن التعليم قبل العهد الحفصي :

إنّ عدم وجود الأدلة القاطعة فيما يخص ضبط دور جامع الزيتونة في بث العلم في الحقبة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى ظهور الدولة الحفصية قد أجبر المؤرخين إلى الاعتماد على الاستنباطات والافتراضات. فمن المفترض أنّ تلقّي الدروس في تلك العصور إمّا بالجامع في الغالب لقلة التكلف في الحضور من الأستاذ ومن طلبته وبخاصة إذا كثر الطلاب وإما في بعض المساجد في بعض الأوقات أو في دار الأستاذ إذا كان عدد الطلبة قليلا ومما افترضه المؤرخون أن الذين أخذوا عن صاحب الإمام مالك الشيخ العالم علي بن زياد التونسي المتوفى سنة 83 هـ / 799 م انما كان أخذهم عنه في جامع الزيتونة لا في بيته خصوصا إذا كان البناء الذي فيه ضريحه الآن هو دار سكناه في حياته ومما يؤيد افتراض اختيار الزيتونة لبث العلم من طرف فطاحل علماء تلك العصور ما ذكره عياض في ترجمة العالم زيد بن بشر المتوفى 242 هـ (856 — 857) أنه كان يمر إلى الجامع مع طلبته على (سوق) الخرازين وليس في تونس يومئذ إلا جامع واحد هو جامع الزيتونة(5).

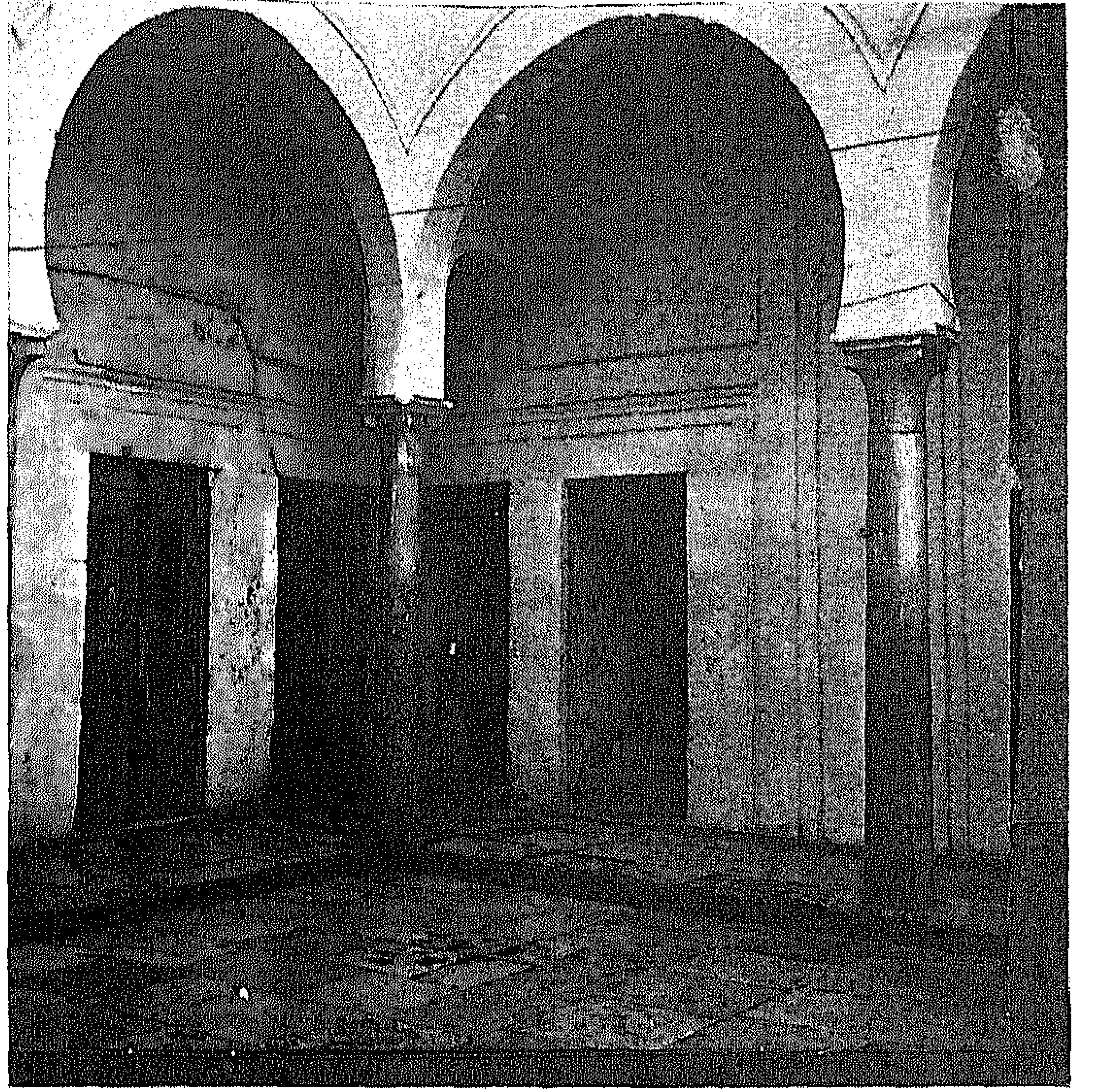
وخلاصة القول ان التمييز بين دور تونس بصفة عامة في بث العلم ودور جامع الزيتونة بصفة خاصة امر صعب لا يمكن تجاوزه حاليا بالنسبة لتلك الفترة.

التعليم في العهد الحفصي :

استمر التعليم في ذلك العصر متصفا بطابعه السالف غير خاضع الى نظام مسطر ولا مقيد بمكان معين وإنّما كان يسير بدافع همم طلاب العلم ونصح العلماء لهم وتلقي بعضهم من بعض الطريقة التقليدية.

---

3) **أليس الصبح**... ص 89.
4) انظر ترجمة هذا الشيخ في **اتحاف**... 7 ص 44 **وعنوان الأريب** لمحمد النيفر الجزء الثاني ص 165.
5) **ترتيب المدارك**... الرباط، الجزء 4 ص 99.



المدرسة الشمّاعية. الطابق السفلي. (القرن الثالث عشر ميلادي)

إلّا أن هذا العصر قد تميز بظهور صنف من أصناف أمكنة التعليم لم يكن معروفا وهو المدرسة والظاهر أن تأسيس المدارس كان مرتبطا بحرص الموحدين وولاتهم على بث نظريتهم وإبراز علوم القرآن والحديث والأسانيد طبقا للنزعة الموحدية ثم تطورت في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر) ففقدت صبغتها الموحدية وصارت أمكنة لبث العلم من طرف علماء المذهب المالكي يدرسون فيها سائر العلوم الدينية، الفقه والفروع والحديث والقراءات لا فرق بين المدارس والمواضع الأخرى كالمساجد والجوامع (6).

كما تميز العصر الحفصي بانتعاش المذهب المالكي وتجديده من قبل مجموعة من الرجال الممتازين وقد ظهرت هذه الحركة منذ أواخر القرن السابع (أواخر القرن الثالث عشر) وكان الشيخ أبو القاسم بن أبي بكر اليمني ابن زيتون من أبرز عناصر هذه المجموعة واستمر المذهب المالكي في نموّه طيلة القرن الثامن (القرن الرّابع عشر) حتى أصبح فقهاؤه مسيطرين بدون منازع على كافة المؤسسات الدينية وانحازت العائلة المالكة هي نفسها علانية إلى المذهب المالكي (7).

ولا شك أن جامع الزيتونة كان مركزا من أنشط مراكز هذه الحركة ومقرا لنشاط أبرز الفقهاء الحاملين مشعل المذهب المالكي كمثل الإمام ابن عرفة وأبي مهدي عيسى الغبريني وأبي القاسم البرزلي ومحمد الأبيّ وأبي القاسم بن ناجي (8) وتجدر الإشارة هنا إلى أن هؤلاء الفقهاء وإن كانوا من الملازمين للجامع فإن بعض دروسهم كانت تلقى في غيره من أمكنة التعليم كالمدارس.

---

6) انظر روبار برنشفيك (المقالة المذكورة) « Remarques historiques sur les medresas » **وتاريخ افريقية في العهد الحفصي** 2. الباب الثاني عشر. الطاهر المعموري : **جامع الزيتونة ومدارس العلم**. (المذكور سابقا).

7) روبار برنشفيك. **تاريخ افريقية في العهد الحفصي**، 2، ص 302 — 305.

8) انظر ترجمة هؤلاء الفقهاء في الباب الثاني من هذا البحث وفي محمد مخلوف **شجرة النور الزكية**. انظر أيضا اطروحة الدكتور سعد غراب التي ذكرناها آنفا.

أحمد باشا باي الأول (1837 — 1855) صاحب تنظيم التدريس بالجامع الأعظم



أمّا القرن الموالي فقد تميز بظهور عائلات من الفقهاء المالكية كمثل أسرتي القلشاني والرصاع بالنسبة لمدينة تونس [9] ولهاتين العائلتين اتصال متين بجامع الزيتونة تولى أفراد منهما الإمامة والخطابة فيه.

وتجدر الملاحظة أنّ الدروس كانت تلقن لا في بيت الصلاة فحسب بل كان بعض الشيوخ الأيمة يجلسون للتدريس بمقصورة الإمام (الدُوِّيرة) كمثل الإمام عبد البر التنوخي [10].

التعليم في العصر الحسيني والتنظيمات الأحمدية والصادقية :

اتفق المؤرخون على تقهقر حال العلم بعد الفتح العثماني خصوصا بالنسبة لما كان عليه في العهد الحفصي من توفير المرافق للمعلمين والطلبة فلما آل الحكم إلى حسين باي ابن علي سنة 1705 م عقد العزم على الرفع من شأن العلم ورجاله لما في هذا العمل من تدعيم دولته وتأليف قلوب المسلمين حوله بعد الشدائد التي عاشتها البلاد والاضطهادات التي تعرض إليها رجال العلم في آخر الدولة المرادية من عزل وسجن وقتل [11]. فبني حسين باي ابن علي المدارس لسكنى الطلبة وللتدريس وأجرى المرتبات للمدرسين من مال الجزية وريع الأوقاف العامة وواصل هذه السياسة من جاء بعده من البايات وبعض الوزراء من الدولة مثل يوسف صاحب الطابع [12] فزادوا في عدد المدارس وجعلوا أوقافا لفائدة أهل العلم فازدهر بذلك التعليم وبرز أعلام من المدرسين تخرج على أيديهم كبار علماء النصف الثاني من القرن التاسع عشر منهم الشيخ بيرم الثاني الحنفي والشيخ إسماعيل التميمي المالكي والشيخ الطاهر بن مسعود المالكي والشيخ إبراهيم الرياحي وغيرهم [13].

9) روبار برنشفيك : **تاريخ افريقية**... 2 ص 331 محمد مخلوف : **شجرة النور**...

10) **الحلل**، 1، ص 590.

11) **إتحاف**، الجزء 2، ص 72 — 80.

12) **إتحاف**، 7. ص 89.

13) **إتحاف**، 7، والباب الثاني من الدراسة.

غير أنّ هذا التجديد لم يغير شيئا مما وصفناه بعجالة في مطلع هذا البحث. بل زيدت عليه بعض الخاصيات الموروثة من الفتح العثماني وأهمها عدم المساواة بين العلماء الحنفية من أبناء الوافدين على الإيالة من تركيا والبلقان وغيرهما وبين علماء المالكية وهم الأغلبية إذ كان الأولون يتمتعون بجرايات تعطى لهم من خزينة دار الباشا باعتبار أنهم مرسمون في دفاتر الجند التركي.

ثم جاءت دولة أحمد باشا باي المشير الأول بعدة تشريعات في مختلف الميادين وصرف الباشا عنايته إلى العلم وأهله وجعل صلة بين تنظيمه لجيشه النظامي الذي استلزم إجراء جرايات للعلماء المالكية مثل ما كان يتقاضاه علماء الحنفية المرسمون بدفاتر الجيش التركي وكان في طريقته هذه إبراز للعدالة بين أفراد رعيته[14]. ومن اهتمامه بالعلم والعلماء ما حبسه من الكتب على جامع الزيتونة[15].

وأهم ما قام به أحمد باي هو أمره الذي أصدره في 27 رمضان 1258 (1 ديسمبر 1842) بشأن ترتيب التعليم بجامع الزيتونة وإليك نصه وهو من تحرير العالم المؤرخ الكاتب أحمد بن أبي الضياف.

« الحمد لله رافع العلماء على ذُرَى شرف كامل، الذي لا يُضيع عمل عامل، ولا يخيّب من فضله العميم أمل آمل، مُعوِّد العلم وأهله بكل يُسر شامل، ومُنجِده في الأزمات بكل كاف من أوليائه وكافل، ومُمدّه بناصر بعد ناصر ومناضل بعد مناضل، من كل إمام مجتهد أو ملك فاضل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أصدق قائل وأكرم فاعل، منقذِنا من بحرِ جهل بلا ساحل. وقائدنا إلى السعادة في العاجل والآجل، والملجأ المنيع من كل خطب هائل، وعلى آله وأصحابه أدلّة كل عارف وسائل، السابقين في ميدان الإيمان بما شاؤوا من بأس ونائل. والممتازين بكرم السجايا وطيب الشمائل، ونستوهب منك اللّهم عناية لا تطرق الخطوب حِماها. ولا يغيّر الدهر اسمها ولا مسمّاها، وعزًّا لا ينتهي حدّه. ونصرا يمضي في الأعداء حدُّه لهذه الدولة الأحمدية الحسينية، وشجرة الملك التونسية الربّانية العزيزة الحمى، التي أصلها ثابت وفرعها في السما، استظلت به الخضراء تونس. وأبدت جمالها المونس.

أما بعد فان العلم أنفس البضاعات. وأرفع الدرجات. ناهيك بقول الحق : « يَرْفَعُ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ». دلّ على شرفه العقلُ والكتاب، بصريح الخطاب « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ » والواجب على من قلّده الله أمر عباده في أرضه وبلاده أن يبذل في تكثيره منتهى اجتهاده، حتى يفوز من فتح البصائر بغاية مراده. وقد ألهم الله لهذه المنقبة التي تُردّد وتذكر، وبكل لسان تشكر. ولا يُجحد فضلها ولا ينكر. بل جحدها في الدين من المنكر، أمير العصر ومشير هذا المصر الذي دأب على حوطة المجد وجدّ، وورث الملك من أب وجدّ واستغرقت كمالاته الحصر والعدّ. وبلغ في السياسة منتهى الحدّ، واستعذب في إعزاز هذا القطر المشقة والكدّ. وغلّق دونه أبواب المكاره وسدّ، وقوّاه بجنود من أهله ورأى أسدّ الملك المطاع قرة العيون ونزهة الأسماع، المنعقد على فضله الإجماع مولانا وسيدنا ذلك المشير أحمد باشا باي أمير المؤمنين بالقطر التونسي، أعزّ الله به عصابته. وأدام إصابته. فأمر بهذا الرقيم المتلقّى بالطاعة والتعظيم، في أن جميع دخل بيت المال الذي كان يستعين به على مصالح العباد ومهمّات البلاد. جعله إعانة للعلم الشريف على ترتيب أنتجه فكره السديد. ورأيه الصائب الحميد، وهو انتخاب خمسة عشر عالما من المالكية. ومثلهم من الحنفية. وجعل لكل واحد منهم ريالين في كل يوم. على أن يقرىء بهذا الجامع الأعظم درسين في أي فن وفي أي وقت تيسر له من النهار. ومن تخلّف بغير عذر شرعي لا يستحق المرتب أيام تخلّفه. الا يوم الخميس ويوم الجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين. وقلّد النظر في ذلك لشيخي الاسلام الحنفي والمالكي. ومرّتب كل واحد منهما على النظر مائة ريال في كل شهر، وأعانهما على النظر في ذلك بالقاضيين الحنفي والمالكي، وجعل لكل واحد منهما ثلاثة ريالات في اليوم. بشرط أن يأتي كل واحد من الأربعة يوما إلى الجامع لتحريض المتكاسل وطرح مرتب من لم يحضر من المدرّسين بغير العذر الشرعي. وقلّد هؤلاء المشايخ الأربعة النظر في حفظ بيت المال وضبط دخله وخرجه، ومباشرة أمور

---

14) إتحاف، 4، ص 34.
15) إتحاف، 4 ص 65 — 67.

القيّمين به. وعرض ما يتعلق بذلك بين يديه لينفذ ما يظهر له مصلحته من ذلك. ولم يبق مصرفا في بيت المال لأحد عدا العلماء المذكورين والمشايخ والنّظار والقيمين عليه، وتجهيز دفن الغرباء. كما أمر بتحرير مصرف بيت المال في ظهير بيد الآغة لا يتجاوزه. وبعد كل ستة أشهر من شهر التاريخ يحضر القيّمون على بيت المال في الجامع لدى المشائخ الأربعة ويحاسبونهم على الدخل والخرج فصلا فصلا، ويسطّرون المحاسبة مصحّحة بخطوطهم، وتُرفع إلى مولانا ليأمر بإمضائها. وإذا فضل في بيت المال شيء من المصرف المذكور فإن الفاضل يشترى به عقّار ليكون رَيْعُهُ تقوية لبيت المال، وذلك مدة خمس سنين. وبعد السنة الخامسة، إذا فضل شيء من دخل بيت المال الذي منه دخل العقار المشترى من فاضل الخمس سنين، فإن ذلك الفاضل يقسم على المنقطعين لقراءة العلم على المشائخ المذكورين، سويّة بينهم. ولا يستحق ذلك إلا المواظب على القراءة. والنظر في قسمة ذلك على المواظبين من الطلبة للمشائخ الأربعة. وإذا نقص واحد من هؤلاء الثلاثين عالما، فان من يتولى عوضه يكون باتفاق المشائخ الأربعة، ينتخبون أعلم الموجودين في العصر. وإن تساوت رتبة الموجودين فلا بدّ من امتحانهم بالمناظرة بمحضر المشائخ حتى يكون من تقدم إنّما هو بنفسه. ويرفع اسمه إلى مولانا ليأمر له بظهير في خطتّه يستحق به المرتب المذكور. وحكم، أيده الله بجميع ذلك وأمضاه، وألزم العمل بمقتضاه، رغبة في إظهار العلم وتحصيل علاه، والهدى هدى الله. وأمر، أدام الله أمره، وأعلى في الخافقين ذكره، برسم هذا الظهير في هذا البيت المعمور حرصا على بقائه على شرطه مدى الدهور، لا سبيل لنقضه بعد إبرامه، ولا لنسخه بعد إحكامه، يديمه الله ورسوله والمؤمنين، وتقويّه الأعصار والسِّنون، ومن سعى في نقضه فما ربك بغافل عما يعمل الظالمون، وسَيعلَمُ الّذين ظَلَموا أيَّ مُنقَلَبٍ ينقلِبون، ولِمِثل هذا فليعمَل العامِلون؛ والله خلقكم وما تَعْلَمُون.

وكتب في 27 رمضان 1258 ».

وتألفت النظارة العلمية الأولى من المشائخ محمد بيرم الثالث باش مفتي الحنفية وإبراهيم الرياحي كبير أهل الشورى المالكية ومصطفى بيرم القاضي الحنفي ومحمد البنّا القاضي المالكي.

أما الطبقة الأولى من المدرسين المنتخبين للتدريس بالجامع الأعظم بمقتضى المعلقة الأحمدية فهم :

من المالكية :

الشيخ فرج التميمي .... توفي سنة 1261 (هـ)
الشيخ محمد الشاذلي ابن المؤدب .... توفي سنة 1263
الشيخ محمّد ابن عاشور .... توفي سنة 1265
الشيخ محمد الطيب الرياحي .... توفي سنة 1266
الشيخ محمد الخضار .... توفي سنة 1267
الشيخ محمد القبائلي المفتي .... توفي سنة 1271
الشيخ أحمد القروي .... توفي سنة 1272
الشيخ محمد النيفر .... توفي سنة 1277
الشيخ العربي الشريف .... توفي سنة 1280
الشيخ محمد البنّا .... توفي سنة 1283
الشيخ أحمد عاشور .... توفي سنة 1285
الشيخ علي العفيف .... توفي سنة 1292
الشيخ الشاذلي ابن صالح .... توفي سنة 1308
الشيخ محمد الشاهد .... توفي سنة 1311
الشيخ محمد الشنقيطي .... توفي سنة 1265 او 1271

وأما الحنفية فهم :

الشيخ محمد بن باكير المفتي .... توفي سنة 1267


محمد الصادق باشا باي


الوزير الأكبر خير الدين


الجنرال حسين مستشار المعارف

الشيخ محمد البارودي (شهر على الألسنة الأباردي) .... توفي سنة 1265
الشيخ حسين البارودي (كذلك) .... توفي سنة 1266
الشيخ محمد عبّاس المفتي .... توفي سنة 1269
الشيخ علي الدرويش المفتي .... توفي سنة
الشيخ قاسومة .... توفي سنة 1271
الشيخ محمد الستاري .... توفي سنة 1270 او 1271
الشيخ حسن قلايجي (الجزائري) .... توفي سنة
الشيخ حسن فرشيش .... توفي سنة
الشيخ أحمد الأبيّ « الشهير باللّبي » .... توفي سنة 1274
الشيخ محمد بيرم الرابع .... توفي سنة 1278
الشيخ محمد ابن الرائس .... توفي سنة 1274
الشيخ مصطفى بيرم .... توفي سنة 1286
الشيخ حسن ابن الخوجة .... توفي سنة 1289
الشيخ محمد معاوية .... توفي سنة 1294

لكن بعد وفاة المشير أحمد باشا ورغم ما بذله في سبيل العلم والعلماء المفصل ذكره في هذه المعلقة التي كتبت بالذهب وعلقت بالجامع الأعظم حذو مدخل باب الشفاء فان شيوخ التدريس قد ضعفت هممهم وضعف امتثالهم لما جاء بهذه المعلقة فكثر تخلفهم عن التدريس وقل امتثال المشائخ النظار لما أنيط بعهدتهم من مراقبة المدرسين وقيامهم بواجبهم وانبنى على ذلك ما اتخذه المشير الثالث محمد الصادق باي من الإجراءات المتممة للأخذ بعين الاعتبار ما جاء في المعلقة الأحمدية بإشارة من بعض رجال دولته. فأمر بتذكيرات متتابعة للشيوخ النظار تحريضا لما جاء بهذه المعلقة وشجع المدرسين على القيام بمهمتهم بالزيادة في مرتباتهم ولما انتخب المشير الصادق باي للوزارة الكبرى خير الدين عرض هذا الأخير على الأمير إصدار

17) **أليس الصبح بقريب** : ص 93 — 95 وبالنسبة للنظار انظر **المفيد السنوي** للمقداد الورتتاني ص 240 — 241.



جامع صاحب الطابع

أمر بتنظيم التعليم بالجامع الأعظم وكان هذا الوزير قد انتخب لجنة من علماء الزيتونة ورجال الدولة لتقرير هذا النظام وتحرير فصوله. وأصدر في عام 1292 هـ 1876 م الباي أمره في ترتيب التعليم وقد كان هذا الأمر مشتملا على 67 فصلا مبوّبة كما يلي :

1) العلوم التي تدرس بالجامع الأعظم ومراتبها ثلاث.

2) شؤون المدرسين والطلبة.

3) أعمال المشائخ النظار.

4) طريقة تنظيم الامتحانات في آخر السنة الدراسية[18].

وعزّز الوزير خير الدين هذا الإصلاح والتنظيم بإحداث وظائف ثلاث : مستشار للمعارف بالوزارة الكبرى وبتعيين نائبين لهذا المستشار بالجامع الأعظم[19] وبهذه الطريقة تمكنت الدولة من مراقبة التعليم بالجامع الأعظم بطريق المباشرة وبهذه الطريقة لم يعد الاستقلال الذي كان للتعليم بالجامع الأعظم.

ونستنتج مما ذكرنا من المراحل التي مر بها التعليم الاسلامي أن الأمر الأحمدي اقتصر على ترتيب المدرسين والمشائخ النظار بدون تدخل في التعليم وأساليبه وامتاز قانون 1292 بضبط درجات التعليم وما على المشائخ المدرسين من القيام به لإفادة التلامذة وبترتيب الامتحانات السنوية فتمت بهذه التراتيب الأحمدية والصادقية عملية ربط الصلة بين التعليم الاسلامي والدولة الحسينية بصلة قانونية وصار التعليم الزيتوني تحت نظر ومراقبة الباي بنفسه بواسطة الوزير الأكبر.

التعليم :

ــ أمكنة التعليم :

لقد سبق أن قلنا إن التعليم غير مقيد بشرط المكان فقد يكون التدريس باختيار المكان من المدرس أو بإشارة من المتلقين عليه وهي في غالب الحالات المساجد المنبثة هنا وهناك ثم لمّا جاءت الدولة الحفصية أنشأت في تونس مواضع خصصت للتعليم ورجاله وطالبيه وهي المدارس، ورأينا أن الدولة الحسينية نسجت على هذا المنوال. فأصبحت بذلك أمكنة التعليم على ثلاثة أصناف تقريبا : الجوامع والمساجد، المدارس، الدور الخاصة ومنها الزوايا.

ــ الجوامع والمساجد : جامع الزيتونة هو من أشهر مراكز التعليم في العالم الاسلامي فإن لم يكن كما قلنا هو المكان الوحيد المخصص للتعليم فهو أهمها وقد اشتهر بمن درس به من أعلام هذا القطر في أزمنة متلاحقة.

18) انظر **الرائد التونسي** : لسنة 1293 و **أليس الصبح بقريب** ص 96.

19) مستشار العلوم والمعارف هو أمير الأمراء حسين والنائبان هما الشيخ عمر ابن الشيخ والشيخ محمود ابن الخوجة (**الرائد**... 27 محرم 1293 و **اليس الصبح**... ص 150).



حلقة درس الشيخ احمد ابن ميلاد سنة 1953

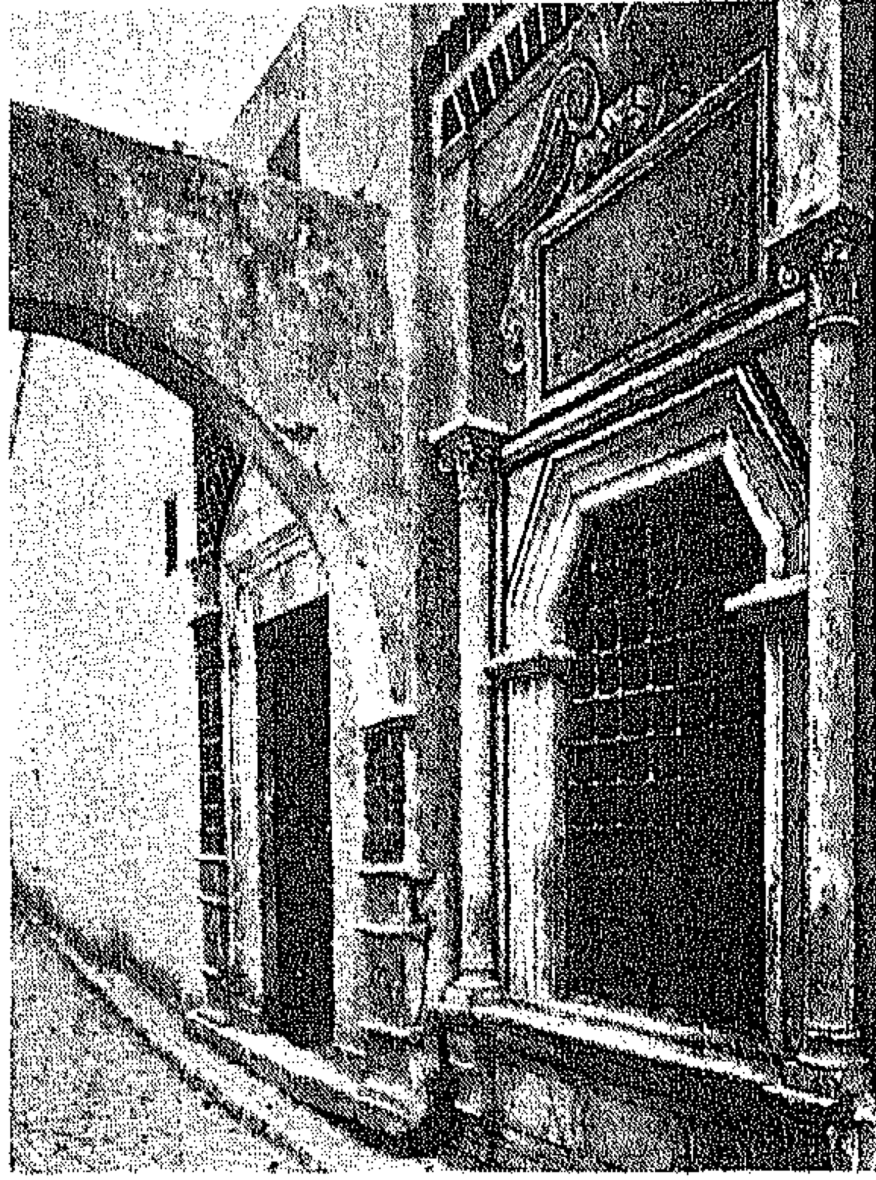
ولما قامت الدولة الحسينية رجع لجامع الزيتونة شيء من مجده بصفته مركز تعليم وازدادت العلوم فيه إلى أن أصبح عدد المدرسين نحو الثلاثين أو يفوق بعد أن لم يكن عددهم يتجاوز الثمانية[20] ولم يكن يزاحم هذا الجامع غيره إلى أن بنى يوسف صاحب الطابع وزير حمودة باشا جامع الحلفاوين ورتب عليه أوقافا هامة لفائدة المدرسين جلب بها معظم علماء عصره وكادت أن تنقطع الدروس من جامع الزيتونة إلى أن جاءت دولة محمود باي فبذل رجال دولته الجهد الجهيد لإرجاع الدروس من جامع صاحب الطابع إلى جامع الزيتونة[21] ثم أصبح جامع الزيتونة ابتداء من إصلاحات أحمد باي كعبة العلم بتونس يأتيه الناس من كل جهات المملكة إذ أصبح التعليم فيه هو معيار التعليم الاسلامي في البلاد لانخراط نخبة علماء تونس في سلك مدرّسيه وأصبح أيضا هو التعليم الرسمي بامتحاناته ومراقبة الدولة وقلّ التعليم ببقية المساجد والمدارس ولم ينقطع عنها لوجود أحباس خصصت لإقراء الدروس فيها[22] فكان هذا التعليم حرا لا يرتبط بالمراقبة التي كانت على مدرسي الجامع. هذا ولا ننسى أن بعض المساجد تلقى فيها الدروس مجانا يشهد لذلك ما ذكره الشيخ ابن أبي الضياف في ترجمة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الأول[23] لما مانعته خطة القضاء من مواصلة التدريس بالجامع الأعظم اذ يقول « **ورغب منه أعيان من تلامذته أن يكمل لهم شرح المحلّى لجمع الجوامع فأجابهم لذلك بين العشاءين** » وكان ذلك في مسجد بقرب داره من حومة بئر الحجار.

20) انظر أحمد عبد السلام : **المؤرخون التونسيون في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر** باريس 1973 (بالفرنسية) ص 31.

21) **إتحاف**...، 3. ص 122 — 123.

22) خصوصا دروس الحديث في جامع محمد باي مثلا وجامع صاحب الطابع وغيرهما وكذلك في المدارس.

23) **إتحاف** : الجزء 8، ص 165 — 167.



مدرسة بير الأحجار
(القرن الثامن عشر م.)

ب ــ مراحل التعليم :

كان التعليم الإبتدائي يتلقاه الطفل المسلم في **الكتّاب** وهو محلّ علم خاصّ بالبيوتات يتلقى فيه الطفل أولا حفظ القرآن والمبادىء الأولية للعربية وربما حفظ بعض المتون الذي تهيئه بعد مدة إلى اقتحام الدروس بالجامع الأعظم فكان المؤدب يقوم على تلامذته بتربيتهم سلوكيا وتلقينهم للمبادىء الإسلامية ومبادىء العربية وكانت هذه الكتاتيب على نوعين نوع عام يشارك فيه العموم بمقابل تافه يدفعه الآباء للمؤدب ونوع خاص ببعض البيوتات يخصص المؤدب فيه بجراية من صاحب المنزل ويعامل بإجلال وتكريم وتقوم ربة المنزل بجميع الشؤون المتعلقة به من مأكل ومشرب وملبس ونحو ذلك ويدرس لخصوص أبناء صاحب المنزل ولا يشارك أبناءه إلا من أذن له من الأجوار والأقارب بغير مقابل للمؤدب.

اقتحام دروس الجامع الأعظم :

بعد أن يتمكن التلميذ من حذق جانب من القرآن وبعد أن يتمكن من حفظ بعض المتون يدخل الجامع الأعظم ونلاحظ أن سنّ المشاركين للدخول لهذا التعليم يختلف اختلافا كثيرا بحيث من كان من أبناء العاصمة وخصوصا من أبناء بيوت العلم تجده لا يتجاوز سنه الخامسة عشرة من عمره في حين أن من جاء من داخل الإيالة ربما تجاوز سن العشرين ويرجع ذلك لسببين : أولهما قرب منازل من كان من أهل العاصمة، ثانيهما أن الذي يأتي من داخل الإيالة يسكن بيوت المدارس المخصصة لمن شارك في التعليم بالجامع الأعظم ويستلزم ذلك أن يقوم بكامل شؤونه من غسل ثيابه وطهي طعامه، الأمر الذي لا يمكن أن يقوم به من كان صغير السن. ولقد رتب قانون 1292 كيفية انخراط التلميذ بالجامع الأعظم في الفصول 23 و 24 و 25 وعيّن الفصل 23 لابتداء التعلم عددا من الفنون لا تقل عن أربعة « **التلميذ في افتتاح أمره يبدأ بأربعة دروس درس في التوحيد بمتن صغرى الصغرى بإجمال الأدلة وتقريبها ودرس فقه**

بالعشماوية للمالكي ومنظومة الشيخ حسن للحنفي على الاجمال والتقريب أيضا ودرس في التجويد بالأداء ودرس في النحو بمتن الأجرومية مجردا يقرأها سلكتين ثم بشرح سيدي خالد كذلك ثم بالقَطر سلكتين أو أكثر ثم بالألفية متنا مجردا أو بالمكودي وهكذا ــ وعند ختم السلكة الأولى من القَطر يشرع في إضافة الفنون قليلا قليلا يبتدي بالأصغر فما فوقه على حسب استعداد التلميذ وقابليته. أمّا التوحيد والفقه والتجويد فإنه لا يزال من حين افتتاحها يتدرج في كتبها على حسب التيسير ولا يقرأ في أي فن الكِتاب الأعلى قبل مادونه لما يحتاج إليه فيه على المشائخ المدرسين أن لا يقبلوا تلميذا في قراءة كِتاب في فن من الفنون إلّا بعد أن يروه بالاختيار متأهلا له ويعلم أيضا تأهله من الدفتر الذي بيده على مقتضى الفصل 24 مع ظهور أمارات التأهل (...) ».

وبعد أن يحضر التلميذ المبتدي الدروس أيامًا فيعرفه شيخه فيها يحضر إلى بيت النظارة بدفتر مخصوص معد للشهادة من شيوخه بما يقرأ عليهم ويحضر معه أحد شيوخه ليعرّف بشخصه لكاتب النظارة إن لم يكن يعرفه فيكتب الكاتب في أول ورقة من الدفتر اسمه وبلده وعدده العمومي وتاريخ تسليم الدفتر إليه وبذلك يعتبر في جريدة تلامذة الجامع.

وفي ذلك الدفتر يشهد له شيوخه عند ابتداء الكتب وختمها وفي أول السنة وختامها ويشترط اشتماله على النصاب ابتداءً وانتهاءً ليُعفى من المطالبة « المَجْبى » (الأداء الذاتي) في ذلك العام[24].

وقد كان قبل هذا التاريخ التلميذ حرًّا في اختيار شيوخه وانتقاله من مرتبة إلى أخرى حسب اختياره من غير إجراء امتحان عليه في موفى السنة أو بعد ختم الكِتاب وربما تجد طالب العلم يحضر دروسا هي من المرتبة الابتدائية وأخرى من المرتبة المتوسطة أو العليا.

حتى جاء ترتيب 1292 هـ فقسّم التعليم إلى درجات ثلاث سماها : عالية ومتوسطة وأخيرة، يمكن أن نعبّر عليها بالعالية والثانوية المتوسطة والثانوية الأولى. والمرحلة الابتدائية أو الثانوية الأولى تتطلب 3 سنوات والدرجة المتوسطة 4 (والسنة الأخيرة من هذه الدرجة صارت تخصُص ابتداء من سنة 1292 هـ لتحضير امتحان التطويع[25]). يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور « **فليس حصرنا إياها سبع سنين إلا بالنظر لما تقتضيه طبيعة غالب العقول ومن الناس من لا يقضي الّا ست سنين كما أن من الناس من يضطر بسبب مقدرته أو عزمه[26] أن يتقدم إلى امتحان التطويع إلّا بعد عشر سنين أو اكثر** » وبعد التحصيل على التطويع وهو شهادة نهاية الدرجة المتوسطة يشتغل الطالب بقراءة المرتبة العالية وغلومها وليس مشروطا على مزاول هاته المرتبة الاشتغال بجميعها وهذه الدرجة لا يصل إليها إلّا نخبة قليلة من تلامذة الزيتونة[28] كما يكلف بإقراء بعض الدروس من الدرجة الابتدائية.

وما يجدر ذكره أن دراسة التلامذة لم تكن على الأسلوب المعهود عندنا اليوم لأن التلميذ قد يكون في الدرجة المتوسطة من بعض الفنون والابتدائية في غيرها.

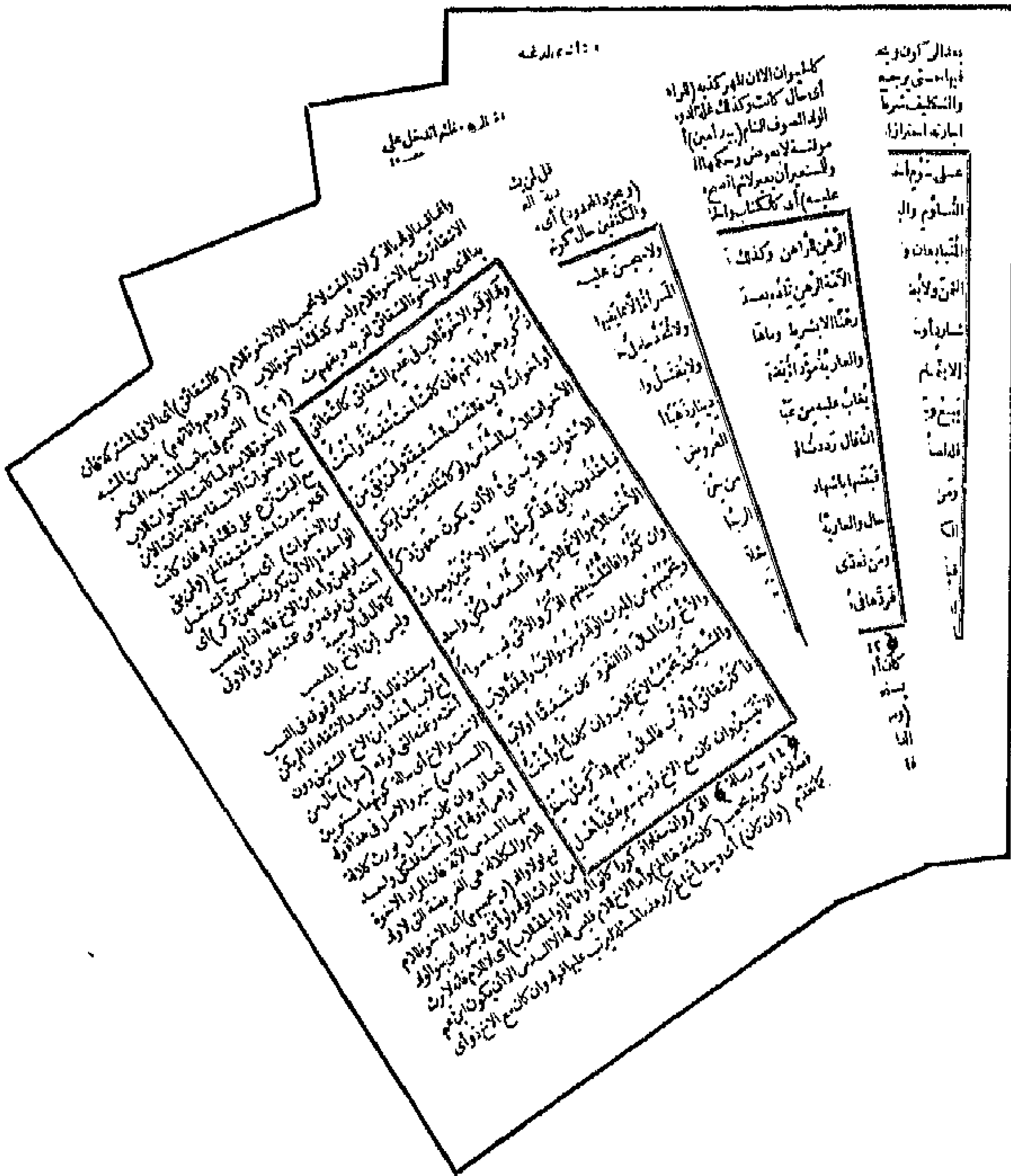
فحوى التعليم وأساليبه :

العلوم (أو الفنون) التي تدرس بالجامع الأعظم يمكن تبويبها حسب الاصطلاح إلى علوم نقلية أو المنقول وعلوم عقلية أو المعقول. غير أنّا نفضل تقديمها على الأسلوب الذي جاءت به فصول ترتيب 1292 فيذكر الفصل الأول ما يلي : **العلوم التي تقرأ بالجامع الأعظم عمره الله تعالى**

---

24) **أليس الصبح بقريب** ص 152 ــ 153.
25) **أليس الصبح بقريب** ص 98 ــ 99.
26) أضيف انا : ظروف عيشه مدة اقامته بالعاصمة.
27) لويس ماشويل : **التعليم العمومي** (بالفرنسية) ص 167.

متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني وشرحه
(وقد كان الطالب الزيتوني يجزؤ المجلد إلى عدّة كراريس
ولا يأخذ معه إلا ما يستحقه أثناء الدرس)



مقاصد الشريعة الإسلامية
تـأليف
صاحب الفضيلة العلامة الجليل
الشيخ السيد محمد الطاهر بن عاشور
شيخ جامع الزيتونة وفروعه حفظه الله ونفع به

حقوق الطبع والنقل والترجمة محفوظة للمؤلف

نشر مكتبة الاستقامة بسوق العطارين ٣٧ تونس

طبعة اول ١٣٦٦
بالمطبعة الفنية بنهج المفتي ١٩ – تونس

الطريقة المرضية
في الاجراءات الشرعية على مذهب المالكية
تـأليف صاحب الفضيلة العلامة المحقق
الشيخ سيدي محمد العزيز جعيط
وزير العدلية الشرفي
وشيخ الاسلام المالكي
بالديـار التونسية

الطبعة الثانية

تولت نشرها
مكتبة الاستقامة
٣٩٠٢٧ سوق العطارين – تونس
مطبعة الارادة

من الكتب التي كانت تدرّس بالجامع الأعظم

— علم التفسير
— التوحيد
— المصطلح
— الفقه
— التصوف[28]
— النحو
— المعاني والبيان[29]
— السير والتاريخ
— العروض
— اداب البحث
— الهندسة
— المساحة

— علم الحديث
— القراءات والتجويد
— أصول الفقه
— الفرائض
— الميقات[30]
— الصرف
— اللغة والأدب
— الرسم والخط
— المنطق
— الحساب
— الهيئة

وهذه العلوم تدرس من خلال كتب رتبت في قانون 1292 على ثلاث درجات باعتبار أهميتها وصعوبتها كما جاء في الفصل الثاني والثالث والرابع والخامس نذكر البعض منها على سبيل المثال :

الفصل الثالث : المرتبة العالية، فمن علم التفسير : أسرار التنزيل للبيضاوي وذو الجلالين. ومن علم الحديث : الموطأ متنًا وبشرح الزرقاني، صحيح البخاري متنا وبشرح القسطلاني (...) ومن علم

---

28) المقصود بالتصوف : آداب الشريعة.
29) المعاني والبيان وآداب البحث : أبواب من علم البلاغة انظر **أليس الصبح بقريب** ص 222 — 223.
30) الميقات : زمني ومكاني.

يا فتاح	يا عليم	هذا الدفتر يشتمل على اسم التلميذ محمد رضوان وعلى شهادة مشايخه له على مقتضى الفصل ٢٤ من ترتيب العلوم بالجامع الاعظم وبه صفحات ١٠٠
اسم الكتاب	تصحيح الشيخ	الشهادة للتلميذ

دفتر شهادات التلامذة

بالجامع الاعظم

سنة ١٢٩٣

دفتر شهادات طلبة جامع الزيتونة. الصفحة الأولى والصفحة الثانية

التوحيد السيد على للمواقف والسعد على العقائد والكبرى للشيخ السنوسي. (...) ومع علم أصول الفقه : التوضيح لصدر الشريعة بالتلويح، العضد على مختصر ابن الحاجب (...) ومن علم الفقه التبيين بشرح الكنز، الشيخ عبد الباقي على المختصر (...) ومن علم التصوف : الإحياء (...) ومن علم السير والتاريخ : السيرة الكلاعية وتاريخ ابن خلدون (...) ومن علم الهندسة تحرير الطوسي لمقالات اقليدس (...).

الفصل الرابع : المرتبة المتوسطية : فمن علم الحديث : شرح اللقاني على الأربعين النووية ومن علم التوحيد : الوسطى للشيخ السنوسي ومن علم القراءات : متن الشاطبية وبشرح ابن القاصح. ومن علم المصطلح : ألفية العراقي متنًا وبشرح القاضي ومن علم اصول الفقه : شرح المنار لابن مالك. الشرح البيرمي على مختصر المنار (...) ومن علم الفقه (...) متن المختصر وبشرح الدردير (...) ومن علم الفرائض : السيد على السراجية (...) شرح الدرة الصغير للشيخ ابن ملوكة (...) ومن علم الميقات : منظومة ابن غانم في العمل بالربع المجيب (...) ومن علم الصرف شرح لامية الأفعال لابن الناظم (...) ومن علم المعاني والبيان : (...) العصام على السمرقندية (...) ومن علم اللغة والأدب : المقامات للحريري، العمدة لابن رشيق، شرح ابن هشام على قصيدة بانت سعاد (...) متن البردة بشرح الشيخ ابن عاشور أو الجامي (...).

الفصل الخامس : المرتبة الأخيرة : فمن علم القراءات والتجويد : القاضي علي الجزرية ومن علم التوحيد : صغرى الصغرى، شرح الباجوري على الجوهرة (...) ومن علم الفقه : متن الكنز، متن القدوري (...) شرح أبي الحسن على الرسالة (...) ميارة الصغير على ابن عاشر (...) ومن علم الفرائض : متن الرحبية (...) ومن علم النحو : متن الأجرومية وبشرح سيدي خالد(...) ومن علم الصرف متن لامية الأفعال. متن الزنجاني(...) ومن علم المنطق : متن ايساغوجي (...) الشرح البيرمي عليه (...) ومن علم الحساب : النخبة الحسابية.

وتجدر الملاحظة أن في غضون القرن الرابع عشر (القرن العشرين) قد زيدت على قائمة تلك الكتب (او عوض البعض منها) تآليف جديدة صدرت بعد سنة 1292 نذكر منها **أصول التربية في التدريس** وغيرها من تأليف مرسي قنديل في علم التعليم **والعرب قبل الاسلام** لجرجي زيدان **وكتاب الدروس العربية** للشيخ مصطفى الغلاييني **والفكر السامي** للشيخ محمد الحجوي في تاريخ التشريع، **أصول الانشاء والخطابة ومقاصد الشريعة الاسلامية** للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور **والطريقة المرضية في الاجراءات الشرعية** للشيخ محمد العزيز جعيط وكتابي **أصول الفقه وتاريخ الأمم الاسلامية** لليخ محمد الخضري **وكتاب تدبير الصحة المدرسي** لأحمد عبده خير الدين **والجغرافية الحديثة** لأحمد حافظ **ولباب الفرائض** للشيخ الصادق الشطي وكتاب **الإفادة في علم الشهادة** للشيخ التواتي **والمنتخب المدرسي وخلاصة تاريخ تونس** لحسن حسني عبد الوهاب وكتاب **الجغرافيا التونسية** للشيخين أحمد السماوي ومحمد كمون وغيرها[31].

وقد اضاف ترتيب 1292 علوما لم تكن تدرس بالجامع منها الهندسة والمساحة والهيئة والعروض وسرعان ما وقع إهمالها[32] يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : **ومضت مدة لا توجد فيها سبعة فنون وهي التصوف (اي آداب الشريعة) والتاريخ والرسم غير التوقيفي[33] والعروض والهندسة والهيئة والمساحة ويقل تدريس اللغة والأدب وآداب البحث والميقات والحساب إلّا ما كان من هذا الأخير في ضمن كتب الفرائض التي هي أيضا قليلة المزاولة »**[34] بينما كانت العلوم الشرعية مثل الفقه والحديث محظوظة.

ـــ أسلوب التعليم :

الهدف من التعليم الوصول إلى درجة المشاركة والغاية العليا درجة التحقيق والتدقيق وفي غالب الحالات نجد المشائخ يختصون بعد درجة المشاركة في علم من العلوم فمنهم من يشتهر بالمحدِّث (أي المتضلع في علم الحديث) ومنهم من يشتهر بالنحوي ومنهم بالأصولي... ونلاحظ أن كل من بلغ إلى درجة التطويع أو قاربها يطلق عليه اسم الفقيه ذلك لأنه قد درس عدة سنوات طويلة كتب الفقه ربما بلغت إلى تلقي عشر ساعات في الأسبوع من الدروس الفقهية.

يقع الدرس بالجامع الأعظم ويستند الشيخ لسارية من سواري بيت الصلاة (ولا يجلس على كرسي كما هو الشأن بالأزهر والقرويين) وقد اختصت بعض العائلات بسارية لازمتها أفرادها الأجيال المتعاقبة.

وكان اتجاه المدرسين في القديم والحديث نحو المحراب إلّا ما شذ كالشيخ ابراهيم الرياحي والشيخ سالم بوحاجب وقد كان هذا الأخير يجلس لدرسه تحت المعلقة الكائنة حذو باب الشفاء. ويتحلق الطلبة حول الشيخ حلقة وقد يكثر عددها في بعض الدروس ويقل في الأخرى حسب رغبة الطلبة في ذلك الدرس أو عدمها فدروس الشيخ سالم ابو حاجب يجتمع فيها جمع غفير من الطلبة وغيرهم من أصحاب الصنائع نظرا

---

31) « البرنامج العام للتعليم في السنة التدريسية 1365 ــ 1366 ــ 1946 ــ 1947 » **مشيخة الجامع الأعظم وفروعه**. مطبعة الارادة.

32) انظر لويس ماشوال **التعليم العمومي**... ص : 156 إذ يقول : « كان في الجامع سنة 1899، 435 درسا لكن واحد فقط كان يخصص للصرف كما كان يلقى درس واحد في التاريخ والحساب » ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في **أليس الصبح بقريب** ص 128 : « كما وجدت علمي النحو والصرف عند دخول جامع الزيتونة مزهودا في العمل بهما بل وجدت علم الصرف يكاد ينقطع ».

33) الرسم التوقيفي هو الرسم الذي يتعلق بالقرآن الكريم والرسم بصفة عامة كان يسمى القياسي او غير التوقيفي.

34) **أليس الصبح بقريب** ص 156 ــ 157.

لعلمه وإشعاعه وحتى أسلوبه. وقد يجلس أحد المدرسين ويبقى منتظرا الوقت الطويل فلا يقصده إلّا القليل[35].

وتكثر حلقات الدروس بالجامع الأعظم في ساعة واحدة على شيوخ متعددة تكون مكتظة في بعضها وقليلة العدد في البعض الآخر[36].

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : « **ولايجاد الدروس بالجامع طرائق أربع :**

الأولى أكثرها وقوعا طلب التلامذة من الشيخ إقراء كتاب يعينونه.

الثانية : طريقة الانتقال التدريجي لمن يختم كتابا ويشرع فيما هو أرقى لأنهم أيضا يترقون مع الكتاب.

الثالثة : اختيار الشيخ كتابا يعرضه على التلامذة فيجيبونه لقراءته.

الرابعة : اقتراح المشائخ النظار زيادة دروس بمن يعينونهم لمصلحة وترتيب وقوع هاته المراتب في الكثرة على ترتيبها في الذكر » ويضيف الشيخ الطاهر قائلا : « **أوقات الدروس غير مضبوطة في الابتداء والنهاية وبذلك ربما تتداخل دروس على أن التلامذة قد يرتبون لأنفسهم دروسا متداخلة الأوقات إمّا للرغبة في كلا درسي الشيخين وإمّا لقصد التكثر من الدروس لملء دفتر الشهادات** »[37] والدرس عبارة على قراءة الكتاب والكتاب يتركب من المتن ومن الشرح أو الشرح وحاشية أو حواش على الشرح — والمتن يكون نثرا أو نظما وهو يلخص ما جاء في أمّهات الدواوين والكتب فمن المتون المشهورة مختصر الشيخ خليل في الفقه وألفية ابن مالك في النحو وهي منظومة فيها ألف وبيتان يحفظها أبناء الزيتونة على ظهر قلب[38]. فيذكر المدرس ما جاء في المتن ويتلو عبارته من حفظه ثم يأخذ في الشرح والبيان مقسما درسه إلى جزئيات ما اشتمل عليه المتن إمّا بطريقة العبارة وبطريق الإشارة أو بطريق اللفظ أو ما تضمنه اللفظ بطريق المتابعة أو بطريق الالتزام، وهنا تظهر الفوارق بين الشيوخ من حيث شدة التمكن والغوص في المعاني أو ضعفه وقلته. وفي منتهى الدرس يأمر أحد التلامذة وغالبا المدون — وهو من يكون مقابلا للشيخ — فيأخذ في سرد ما جاء في الكتاب ويقع إيقاف الشيخ وتنبيه الطلبة لكل ما احتوى عليه درسه[39].

ولقد جاءت فصول في ترتيب 1292 في ذكر أسلوب التدريس فيقول الفصل 15 مثلا « **ليس لأحد أن يبحث في الأصول التي تلقتها العلماء جيلا بعد آخر بالقبول ولا أن يكثر من تغليط المصنفين فإن كثرة التغليط أمارة الاشتباه، والتخليط بل عليه (المدرس) أن يبذل الوسع في فهم مرادات الفضلاء ولا يلقي البحث إلّا بعد التحري والإحاطة بأطراف الكلام والتدبر في فهم المراد** ».

وأمّا في الحث على الحفظ فقد جاء في الفصل 26 ما يلي : « **لمّا كان الحفظ يستعان به على حظ استحضار المسائل واستحصا لها وذلك من أعظم الفوائد كان على المشائخ المدرسين أن يرغبوا تلامذتهم في حفظ المتون ويعيّنوا لهم المقدار المحفوظ في كل « جمعة » بحيث يعرض التلميذ ما عينه له الشيخ في**

---

35) إرشادات أفادنا بها الأستاذ البشير ابن مراد.

36) **أليس الصبح بقريب** ص 152 « وليس لابتداء التعليم ونهايته في اليوم وقت فمن الدروس ما يكون إثر صلاة الصبح أو قبل شروق الشمس ومنها ما يكون بين المغرب والعشاء كما انه لا معادلة بين ساعات النهار في التعمير بالدروس فإن الدروس تكثر في الساعة 7 والساعة 8 صباحا ثم تأخذ في الانتقاص قليلا قليلا فلا تأتي الساعة العاشرة حتى تقل ثم تنعدم أو تكاد في الساعة 11 وما بعدها حتى الساعة 12،30 وكذلك الحال في دروس المساء تبتدىء قبل صلاة الظهر أي فيما بين الساعة 2 والساعة 3 مساء بحسب اختلاف طول النهار إلى غروب الشمس ».

37) **نفس المصدر** ص 151 — 152.

38) جاء في الفصل السابع والعشرين من ترتيب 1292 « المتون الذي يلزم حفظها الجوهرة نظم الشيخ حسن الشرنبلالي، ابن عاشر، الجزرية، الاجرومية، الألفية، الدرة، التهذيب، ومن أراد توسيع النطاق في الفقه فعليه بالكنز والمختصر. فمن ازداد حفظه ازداد كماله ».

39) جاء في تاريخ **إتحاف أهل الزمان** ما يلي في ترجمة الشيخ سيدي إبرهيم الرياحي الجزء 7 ص 74. « تصدر للتدريس (...) وكيفية القائه أنه ينقل الدرس ويمليه من حفظه ثم يقرر ما يظهر له ثم يسرد كلام المصنف على كيفية تبعث النشاط في النفس هو أول من اخترعها واتخذها فحول العلماء من بعده ».

وجاء في الجزء الثامن من **إتحاف اهل الزمان** ص 104 (ترجمة الشيخ أحمد الأبي الحنفي). « ويروي بعد العصر (في جامع صاحب الطابع) صحيح البخاري على كيفية لم يسبق اليها وذلك لأنه لا يتعبد بلفظ الحديث بل يفسر ألفاظه وإجمال ما يستفاد منه ».

نسخة من إجازة عامة من الشيخ
محمد الهدة الى الشيخ محمد المحجوب
(1777 — 1191)

الوقت المعين للعرض ». والجدير بالذكر هو أن هذا الأسلوب كان يشمل المراتب الثلاث من التعليم الزيتوني ويقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : « **وقد كاد تعليم جامع الزيتونة من أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر أن ينحصر في أسلوب واحد للمراتب كلها وهو أسلوب الإلقاء دون تمرين شفاهي ولا كتابي** »[40] ويضيف قائلا : **ولا شك أن الغلو في الطريقة الاستحضارية يتعسر معه اشتراك الطريقة النظرية لأن الأولى تعتمد المسارعة للإطلاع على الكتب والإكثار من تكريرها والثانية تقتضي البحث والتأمل فيها** ».

كيفية الانتصاب للتدريس وتطورها في العهد الحسيني :

ــ الاجازات :[41]

لقد قلنا إن غاية التعليم في العالم الإسلامي منذ القدم حفظ التراث الذي وضعه السلف من أيمة الاسلام والمحافظة عليه وتلقينه من جيل إلى جيل بغية تمكين المؤمنين من أصول دينهم وشريعته ولغة القرآن فإذا شعر طالب العلم بأنه قد بلغ المستوى الذي يؤهله للتدريس استأذن شيوخه فإذا أذنوا له تصدى للتدريس ولكن بالنسبة لتدريس الحديث كان ذلك يتوقف على الإجازات لما لها من الاعتبار في السند الذي يوصلهم برسول الله ﷺ والإجازة هي شهادة كتابية من الشيخ لتلميذه في الإذن له بتدريس الحديث من كتاب الصحيحين البخاري ومسلم، ومن كتب السنن الستة وغيرها ذاكرا فيها الشيوخ الذين تلقى عنهم حديث رسول الله ﷺ موصلا ذلك السند بطريق الرواية أو المرويات من شيخ إلى شيخ إلى ان يبلغ به إلى الرسول عليه السلام.

كما توجد إجازات في علوم أخرى كالفقه والتفسير والأدب والتصوف[42] وحتى الإجازات العامة مثل الإجازة التي أجاز بها العلامة إسماعيل التميمي المالكي الشيخ محمد ابن الخوجة الحنفي نذكر منها محل

40) **أليس الصبح بقريب** : ص 128. كما يقول الشيخ الإمام في ص 156 « والتمرين في الدروس ضعيف الا بمقدار شواهد التآليف على قلتها غالبا خصوصا في المرتبة الابتدائية وهذا التهاون بالتمرين من أسباب القصور المشاهد على غالب التلامذة فقد يقرأ التلميذ الأجرومية مرارا وهو لا يستطيع اعراب مثال لم يذكره الشارح ».

41) أعتمدنا في هاته الدراسة على الإجازات المحفوظة عند الأسرة العاشورية. انظر ايضا : الطاهر المعموري : **جامع الزيتونة ومدارس العلم**... ص 41 — 43.

42) انظر مثلا اجازة الشيخ ابراهيم الرياحي للشيخ الطاهر اللطيفي في الطريقة التجانية (**وثائق الشيخ الطاهر ابن عاشور**).

قائمة الطلبة المحرزين على التطويع سنة 1297 — 1880

الحمد لله بيان المشائخ الذين احرزوا رتبة التطويع بمقتضى امتحان السادة
المشائخ النظار في عام ١٢٩٧ سبعة وتسعين ومائتين والف فيتميز اسماؤهم منه لتحرير
مطالبهم التي يرجون نيلها من مراحم الحضرة العلية الملكية ادام الله بقاءها [illegible] في سماء
السعادة اشراقها وعلياءها بمقتضى رتبتهم العلمية

فمن ابناء الحاضرة

- الشيخ سي صالح بن الشيخ المفتي سيدي حسن عباس يطلب له اول شهادة
- ومثله الشيخ سي محمد بن الشيخ المدرس السيد مصطفى رضوان في طلب اول شهادة
- ومثلهما في ذلك الشيخ سي محمد بن المرحوم السيد مصطفى زروق مع طلب اول شهادة

ومن ابناء خارجها

فمنهم من يطلب ولاية الاشهاد بحاضرة تونس وهم

- الشيخ سي محمد بن محمد البنبلي شهر بوحاجب
- والشيخ سي عبد القادر بن محمود عاشور النابلي
- والشيخ سي يونس بن الحاج علي السوسي الحنفي
- والشيخ سي محمد المولدي بن محمد عاشور التميمي
- والشيخ سي محمد بن عبد القادر الزكراوي القليبي
- والشيخ سي محمد بن الحاج محمد بوعزيز التميمي
- والشيخ سي محمد الطاهر بن علي الونيسي [illegible]
- والشيخ سي عبد الرحمان بن الطيب بن عكور [illegible] وهذا الشيخ ممن اذن له في التطويع بعد [illegible] بساله الامتحان لثبوت نجابته بالامتحان [illegible] في [illegible] واصابته في الجواب

ومنهم من يطلب تلك الولاية في البلدان خارج الحاضرة وهم

- الشيخ سي محمد الطاهر بن الكيلاني الخطار النابلي يطلب اول شهادة ببلد نابل
- ومثله الشيخ سي محمد بن علي الغيري النابلي في طلب اول شهادة بنابل
- ومثلهما الشيخ سي القاسم بن الشيخ محمد الزرقي النابلي في طلب اول شهادة بنابل
- والشيخ سي عمر بن محمد بوزيرا [illegible] يطلب اول شهادة ببلد بني خيار
- والشيخ سي عبد القادر بن محمود باي به شهر التميمي يطلب اول شهادة ببلد منزل تميم
- والشيخ سي محمد بن حسين بن محمد الساحلي من الكودة يطلب اول شهادة ببلده
- والشيخ سي الحاج محمد بن احمد الكاري يطلب اول شهادة بالمنستير

ومنهم من يطلب ولاية التدريس خارج الحاضرة وهما

- الشيخ سي [illegible] بن محمد العتري السوسي يطلب تلك الولاية بجامع سوسة الاكبر
- والشيخ سي محمد بن علي [illegible] الحنفي [illegible] يطلب تلك الولاية بجامع الحنفية بالمدرسة العروبية بجامع سليمان حجة مع طلب الخطبة به لموت خطيبه المنعم الحاج احمد حجة وعدم ولاية خطيب عوضه بالامر السلطاني

ويكون جملتهم عشرين ٢٠ شيخا والتمس الحضرة الشامخة دام عزها وعلاها في اعطائها اياهم تلك الولايات التي يرجون نيلها من مراحمها الباذخة وكتب منا في اواسط شهر ذي القعدة الحرام من عام ١٢٩٧ اعلاه

احمد [illegible]

ومن محمد الشاذلي بن صالح اصلح الله تعالى حال الجميع

ومن [illegible] محمد الطاهر النيفر

الحاجة (...) « أما بعد فإنّ من العدول الذين أقامهم الله تعالى في هذا الخلف ويسر لهم الاشتغال بالعلوم المأثورة عن السلف السيد الفاضل الشاب في طاعة الله العادل عن اتباع هواه الفقيه النحوي الأصولي البياني المتكلم اللغوي النظّار الفهّام الأنجد الأسعد أبا عبد الله محمد ابن أخينا الشيخ الإمام الفاضل الهمام الصدر الشهير العالم النحرير المحقق المدقق المؤلف المجيد المدرس المفيد الحافظ الأفظ الخطيب البليغ الواعظ مفتي الاسلام وبركة الأنام أبي العباس سيدي أحمد ابن الخوجة الحنفي عاملنا الله تعالى وإياهما بلطفه فإنه، حرس الله شبابه ويسر له الخير وأسبابه، ممن أحرز الخصال في هاته الحلبة وفاق الأقران من هؤلاء العصبة واعتنى بتحقيق العلوم الشرعية وآلاتها واقتفى أثر الأوائل في تحرير أدلّتها ومذاهب أيمتها وتحصيل مقالاتها حتى حصل منها على أوفر نصيب بل أحرز من قداحها المُعلّى والرقيب علمت منه ذلك بطول المعاشرة وتكرر المذاكرة ولقد رأيت منه في أثناء ذلك من الاستنباطات الحسنة والأبحاث المستحسنة والاستشكالات الواقعة في محلها والإيرادات التي يضعف غيره عن حلها ما دلني على أنه ليس متن يقول : أنا، ويقنع بالمدحة والثناء ويرى أن العلم هو الدعوى بل هو على الحقيقة موضع للعلم والإفادة ومحل التحقيق والإجادة ولمَّا علم من نفسه ما هو عليه وانتصب للإفادة شكر الله تعالى على ما أسداه إليه، طلب مني أن أجيزه لينظم في سلك ما اشتمل عليه هذا الثبت من الأسانيد إبريزه وتحصل بينه وبين أولئك الرجال النسبة المعنوية القائمة مقام النسبة الطبيعية وهو يعلم حفظه الله أن هذه المرتبة وصولي اليها أعز عزيز وأني لست ممن يجاز فضلا على أن أجيز لكنه أغضى عن ذلك وحسن ظنه وشدد طلبه فيما هنالك فأجبته لما طلب وأسعفته فيما رغب لما سمعته من بعض فضلاء شيوخي أن الإجازة شهادة بالأهلية للمجاز وحينئذ فمن الواجب على من علمها أن يؤديها إذا سئلها ولا يحل له أن يكتمها. فأقول قد أجزت هذا الفاضل إجازة عامة في جميع ما صحت لي روايته ويؤثر عني تدريسه ودرايته من جميع العلوم المتداولة المعقول منها والمنقول من حديث وتفسير وفروع وأصول وكلام وميزان ونحو ومعاني وبيان وغير ذلك مما يتناوله هذا الديوان إلى ما التقطته من غير هذا الطريق، من الإفادات والمسائل المتفرقة والأذكار والدعوات وأذنته في إقراء ما توجهت إليه همته في ذلك لما نعلم من تأهله لذلك وأن يستند إليَّ ويروي عني ما ثبت لديه أنه من مروياتي والله يعينه على إيصال الخير إلى أهله، وأوصي نفسي وإياه بتقوى الله تعالى (...) (...) كتبه العبد الضعيف الفقير إلى رحمة اللطيف إسماعيل التميمي الشريف (...) حرر في الحادي عشر من رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف (1818 — 1819) ».

وعلى ذكر هذه الإجازات العامة قد جاء في إجازة عامة من الشيخ محمد الهدّة السوسي إلى الشيخ محمد ابن قاسم المحجوب التونسي ما يلي « (...) **الشاب السعيد والموفق الرشيد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ الفاضل الكبير والعمدة العلامة الشهير سيدي قاسم الملقب بالمحجوب قدس الله روحه قرأ علي نبذة من صحيح البخاري وطلب مني أن أجيزه بما فيه وسائر مروياتي (...) أجزت الفاضل المذكور بما تجوز لي روايته وثبت لي أخذه ودرايته من كل معقول ومنقول وفروع وأصول مقروء ومسموع ومفرد ومجموع ومنطوق ومفهوم ومنثور ومنظوم إجازة موصوفة بالإطلاق على الوجه المعروف عند علماء الآفاق** ». وهذا دليل على كون الإجازة ليست شهادة بالمعنى الأكاديمي بل هي عربون ثقة يشهد بها الشيخ أن المجاز قادر على القيام بشرف ومسؤولية تحمّل العلم. مع العلم أن العلماء ما كانوا يقتصرون على نيل الإجازة الواحدة أو الإجازات من شيوخهم فقط بل يسعون إلى التحصيل على الإجازات كلما أتيحت لهم فرصة اللقاء بعلماء اشتهروا بعلمهم وصلاحهم. ومن المناسبات التي يقع فيها أخذ الإجازات وتسليمها موسم الحج أو مرور مغاربة على تونس أو وفود علماء من المشرق إليها.

— ظهور الامتحان والمناظرة للانخراط في سلك مدرسي جامع الزيتونة

دامت الحالة على الشكل الذي وصفناه أعلاه موصوفة بأهمية الصلة المباشرة بين المدرس وتلميذه في انتصاب هذا الأخير للتدريس إلى سنة 1258 حيث أصدر الباشا أحمد أمرا في ترتيب التدريس بالجامع الأعظم فغيّر هذا الترتيب المقاييس القديمة المتعلقة بانخراط المدرسين وذلك بتدخل الدولة وأصحاب الخطط

الشرعية فيه. فمن مظاهر هذا التدخل أن الباي هو الذي عيّن الثلاثين مدرسا ثم جعل النظر على تعليم الزيتونة وتفقد الدروس والمدرسين إلى أعيان الشرع (باش مفتي الحنفية وكبير أهل الشورى المالكي والقاضيين الحنفي والمالكي) كما كلفهم بمسؤولية انتخاب المدرسين عند شغور أحد المناصب التي رتبها كما أمر هؤلاء المشائخ النظّار بإقامة امتحان المناظرة عند الاقتضاء كما جاء في نص المعلقة. ثم يُرفع اسم المنتخب أو الفائز في المناظرة إلى الباي ليأمر له بظهير في خطته يستحق به المرتب المذكور. وقد نرى من خلال ذلك أن التدريس بجامع الزيتونة أصبح من الخطط الوظيفية. وهذه المناظرة باعتبار عدم لزومها فلقد كان النظّار يستغنون عنها ويعينون من يرونه أهلا للتدريس ذلك أن هؤلاء الشيوخ قد لا يعتبرون الجانب العلمي فقط بل ربما يعتبرون ما في الشخص المنتخب من نواح سلوكية واجتماعية.

ويظهر من خلال بعض الوثائق التي وجدناها في خزينة الدولة التونسية أن المشائخ النظّار كانوا يتغافلون على وجود متنافسين ويتفقون على شخص على أنه أهل للمنصب ويقع إعلام الباي بذلك ولا يعلمونه بأن هناك من طلب المناظرة[43]. يقول الشيخ الطاهر بن عاشور[44] « **ثم عرض التساهل في إسناد الخطط لغير أكفائها فعين القانون الصادر في (1292) لذلك المناظرة عند الطلب** » واشتهرت في الأوساط الزيتونية المنظومة التي توجه بها الشيخ مصطفى رضوان لشيخ الإسلام محمد معاوية كبير المشائخ النظار طالبا المناظرة بعد أن وقع انتخاب مدرس باختيار المشائخ النظار ومنها :

عهدناك قبل اليوم تشكو تأخرا
وتقديم من لا يعلمون وتعلم
هديتهم إلى رشد فخذ قول منصف
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
وإني على علياك اثني مسلما
ولست لمن قدمتموه أسلم »[45]

مع العلم أن بعض المترشحين كانوا يرفضون المشاركة في المناظرة ففي سنة 1280 هـ (1863 — 1864) لما عيّن المشائخ النظّار للمناظرة الشيخين سالم بوحاجب وعمر ابن الشيخ لنيل منصب مدرس من الطبقة الأولى امتنع الشيخ عمر من المشاركة مصرحا بكراهية المناظرة[46].

وبقيت الحالة على هذا الوجه حتى صارت المناظرة شيئا متعينا بمقتضى الأمر الصادر في 19 ذي قعدة 1309 (14 جوان 1892) فجاء في فصله الأول : « **إذا شغرت وظيفة مدرس من الطبقة الأولى يصدر الإعلام لأهل الطبقة الثانية للمناظرة بالجامع الأعظم، عمره الله، لدى المشائخ النظّار ومن يبرز في نظرهم يتقدم للتدريس** » ورتب هذا الأمر المناظرة بالنسبة للتدريس في الطبقة الثانية (الفصل الثاني) :

« **خطة التدريس بالطبقة الثانية لا يتولاها أحد إلّا بعد المناظرة ولا يتقدم للمناظرة إلّا من أحرز رتبة التطويع بالجامع الأعظم وتعاطى فيه التدريس مدة عامين أو أكثر...** ».

أما التصدي للتدريس تطوعا فلم يكن محتاجا إلّا إلى الإذن من أحد المدرسين لمن يرون فيه الكفاءة للتعليم ويعبّر على هذا الإذن بالإجازة وهي غير الإجازة التي تحدثنا عنها آنفا.

---

43) جاء في مكتوب موجه من المشائخ النظار (أحمد معاوية، أحمد بن حسين، حسين بن الخوجة، محمد النيفر) مؤرخ في 6 صفر 1281 وموجه للباي «(انظر **ارشيف الحكومة التونسية** (القصبة) وثيقة 60 ملف (359) » ما يلي « فإنه قد بلغنا شريف كتاب مولانا أيده الله المتضمن (...) الإعلام بطلب المناظرة مع الشيخ سيدي محمد الستاري الذي اتفقنا فيه على ترجيحه وانتخابه للتدريس بالطبقة الأولى ولم نعرج في كتابنا الأول للحضرة العلية على من طلب المناظرة...».

44) **أليس الصبح بقريب** ص 235.

45) الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور **تراجم الاعلام** تونس 1970 ص 135 وكذلك **ارشيف الحكومة التونسية** وثيقة 6 (733) في طلب المناظرة من طرف الشيخ احمد بن مراد.

46) انظر **ارشيف الحكومة التونسية** وثيقة 15 (727) رسالة من المشائخ النظار مؤرخة في 28 شوال 1280 في الرد على استفسارات الباي في كيفية انتخاب الشيخ سالم.

تقويم مواظبة المدرسين في شهر شوال 1282 — 1866

استمرت الحالة على هذا الوجه حتى جاء الترتيب الصادر في سنة 1292 فاقتضى الفصل 47 منه إجراء اختبار سنوي على جميع التلامذة بإلقاء تقرير شفاهي فعمّ ذلك تلامذة المرتبة المنتهية ومن ذلك الوقت صار التطويع منوطا بالامتحان ثم عطل العمل بهذ الاختبار في جميع مراتب التعليم عدا مرتبة الانتهاء فبقي لذلك امتحان شهادة التطويع مستمرا. وكان عبارة عن إلقاء درس واحد في كتاب يختاره التلميذ من الكتب التي له فيها دروس وفي سنة 1316 (1898) صدر أمر بتعيين أسلوب امتحان التطويع وتركيبه من امتحان كتابي في مقالة موضوعها باب من أبواب الفقه ودرس (امتحان شفاهي) في علم من علوم ستة هي الكلام الفقه وأصول الفقه والنحو البلاغة والمنطق[47].

وللمتحصلين على هذه الشهادة إمكانية الانتصاب للتدريس بالجامع لكن بدون مرتب إلّا ما تيسر مما تخلف عنه الشيوخ المدرسون (من الطبقتين) من ساعات التدريس. فما تجمع من أجور هذه الساعات يوزع في آخر السنة على المشائخ المتطوعين للتدريس ولم يكونوا متمتعين بما خصص من الأوقاف المعدة لرجال التعليم بالزيتونة منذ عهد قديم.

المدرسون والتلامذة

1) المدرسون

ــ المدرسون من الطبقة الأولى عددهم ثلاثون : خمسة عشر من الحنفية وخمسة عشر من المالكية. خطتهم بمقتضى أمر من الباي يصدر بعد التعيين أو المناظرة لدى المشائخ النظّار. وهم يمثلون مع أعيان المجلس الشرعي أرستقراطية العلم.

وبمقتضى المعلقة الأحمدية يقوم المشائخ المدرسون من الطبقة الأولى بإقراء درسين في أي فن وفي أي وقت تيسر لهم من النهار وفي مقابل ذلك جعل لهم مرتب قار كان في أول الأمر ريالين في اليوم ثم زيد فيه تدريجيا.

47) أليس الصبح بقريب ص 236.

وهؤلاء المدرسين من الطبقة الأولى وظائف أخرى في المدينة نخص بالذكر منها مشيخة المدارس[48] وإقراء الدروس في الجوامع المحبسة عليها جرايات للتدريس وخصوصا دروس الحديث والإمامة والوكالة على أوقاف جامع من جوامع العاصمة وحتى إدارة مصالح دولية فكان الشيخ محمد بيرم المشهور غلطًا بالخامس مدرسا من الطبقة الأولى وشيخ المدرسة العنقية ورئيس جمعية الأوقاف[49] وقد عوضه فيها الشيخ أحمد الورتتاني وهو ايضا من مدرسي الطبقة الأولى.

كما أنّ من المدرسين من الطبقة الأولى من تقلد خطة الفتوى في نفس الوقت فالشيخ أحمد كريم الحنفي مثلا كان، سنة 1293، مدرسا من الطبقة الأولى وإمام الجامع الجديد ومفتيا.

ومن بين هؤلاء المدرسين ينتخب المفتيون والقضاة إلّا ما قلّ وندر. وإذا نظرنا إلى قائمات المدرسين من الطبقة الأولى من ناحية تركيبها الاجتماعي وجدنا فيها الخصوصيات الآتية[50] :

أولا ـــ هناك صنفان : مدرسون من المذهب الحنفي ومدرسون من المذهب المالكي؛ ثانيا ـــ بالنسبة للقسم الحنفي نلاحظ انتماء كل أفراده إلى مجتمع العاصمة وذلك أمر واضح إذا ما تذكرنا أنّ الحنفية عددهم قليل بالإيالة وأن الأغلبية الساحقة من الوافدين من داخل البلاد ينتمون إلى المذهب المالكي. ومما يترتب أيضا على قلة عدد الحنفية ضعف المزاحمة في الدراسة وفتح المجال لهيمنة بعض عائلات يتقاسم أفرادها المناصب الشرعية والتدريس الحنفي بالجامع الأعظم فنجد مثلا في نفس المدة 3 أو 4 مدرسين من عائلة واحدة ومعهم 12 أو 13 أو أكثر من عائلة أخرى وأمّا بالنسبة للمالكية فالوضع يختلف لتفاقم المزاحمة نتيجة العدد الكثير من مزاولي التعليم المنتمين إلى هذا المذهب من العاصمة ومن داخل الإيالة فنلاحظ أن باستثناء عائلة واحدة، يختص القسم المالكي من مدرسي الطبقة الأولى بتعدد الشخصيات البارزة أولا بفضل همتهم العلمية فنجد أغلبية العلماء من العاصمة طبعًا. ولكن هناك أيضا فطاحل أصلهم من داخل البلاد.

ـــ المدرسون من الطبقة الثانية : لم يتعرض إليهم الأمر الأحمدي الصادر في 1258 (1842) وإنّما رتب المشير الأول هذه الطبقة سنة 1265 على قاعدة النظام الذي جاء في المعلّقة وحصر عددهم في إثني عشر مدرسا نصفهم من الحنفية ونصفهم من المالكية ورتب لكل واحد منهم نصف ريال في اليوم من ريع بعض الأوقاف المرتّبة على الجامع ثم زادت الدولة في تلك الجرايات. واشترط أحمد باي أن لا يتولى مدرس من الطبقة الأولى إلّا بعد تحصيله للتدريس من الطبقة الثانية[51].

ـــ المدرسون المتطوعون : كان الطلبة المتحصلون على التطويع بامكانهم أن يجمعوا في آن واحد بين تلقي الدروس في المرتبة العليا والاشتغال بالتدريس للمرتبة الأولى من التعليم الزيتوني وذلك للاستعانة بهذه الساعات التي يتجمع لهم منها في اخر السنة الدراسية مقدار من المال حسبما ذكرناه انفا « **ويشترط في ذلك موافقة المشائخ النظار** » (قانون 1292، الفصل السابع) وكان عددهم غير قار فبينما يظهر من خلال **النزهة الخيرية** لسنة 1293 (1876) أن عددهم 13 كانوا سنة 1899، 67[52] وكانت الحالة المالية لأغلبهم (وهم الوافدون من داخل الإيالة) ضعيفة جدا لقلة ما يتحصلون عليه من هذه الفواضل ومن مداخيل الأحباس الخاصة (كحبس خير الدين وحبس صالح خوجة) وشهد بذلك الشيخ أحمد ابن الخوجة شيخ الاسلام الحنفي وكبير المشايخ النظّار في رسالة وجهها في محرم 1297 (1879) إلى الوزير الأكبر مصطفى ابن اسماعيل[53] : « **إنّ طائفة من المدرسين المتطوعين بالجامع غالبهم فقراء لا حرفة لهم إلا معاناة العلم الشريف فنذكّر سيادتكم بما وعد به من تولية هذه الطائفة أمر العدالة ليستعينوا بها** ...».

48) انظر قائمة هذه المدارس ومشائخها بالنسبة للنصف الثاني من القرن الماضي الميلادي في **النزهة الخيرية**.

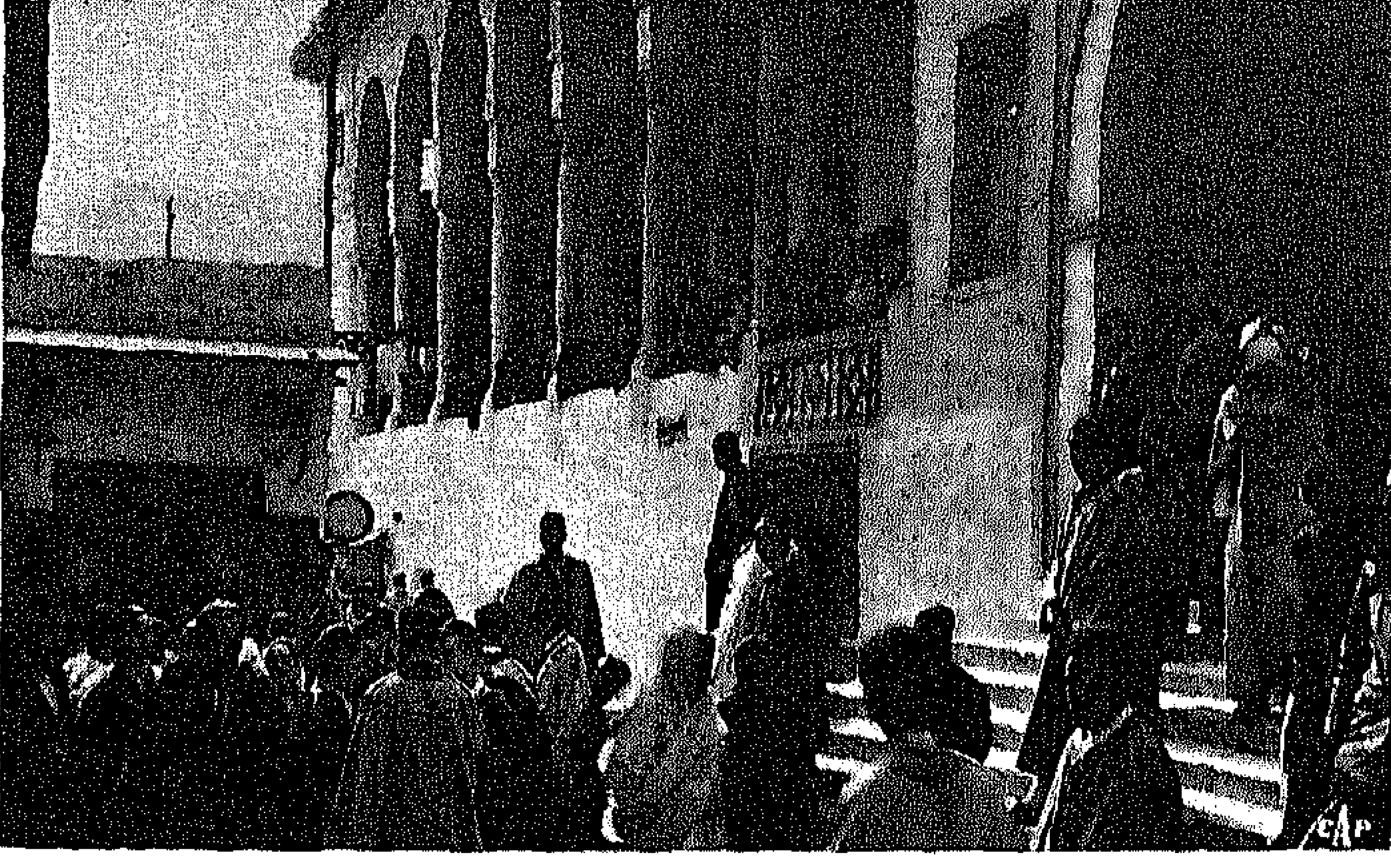
49) انظر **النزهة الخيرية** سنة 1293.

50) هذه القائمات محفوظة في خزائن **ارشيف الحكومة التونسية** انظر مثلا الوثيقة 20 (727).

51) محمد ابن الخوجة : **معالم التوحيد**. ص 87 ـــ 88 « ولكن هذه القاعدة لم يعمل بها عند تقديم العلامة الشيخ محمود قابادو للتدريس فان المشير الثاني محمد باي أولاه بداية مدرس من الرتبة الأولى بإشارة من صهره العلامة الشيخ محمد بيرم الرابع (...) كما انخرمت تلك القاعدة مرتين أخريين : في تسمية الشيخ الطاهر النيفر وتسمية الشيخ أحمد الورتتاني ».

52) لويس ماشويل : **التعليم العمومي**... ص 159.

53) **ارشيف الحكومة التونسية** : الملف 729 الوثيقة رقم 20.


تلامذة الجامع في صحن الجنائز

وقد استمر وضع المتطوعين على هذه الحالة الموصوفة بصعوبة العيش كما يشهد على ذلك نص العريضة التي وجهها هؤلاء الشيوخ إلى محمد الحبيب باي سنة 1345 — 1927 بمناسبة افتتاح الفرع اليوسفي التابع لمعهد التعليم الزيتوني.

«(...) إن معظم المتطوعين بالرغم عمّا يعانونه من آلام الحياة يؤدون أمانتهم العلمية بكل انقطاع وإخلاص بحيث إنهم يتحملون القسط الأوفر من التعليم بجامع الزيتونة عمره الله ولولاهم لما وجد تلامذته الذين نما عددهم في عصركم الزاهر ما يفي بحاجتهم من الدروس بمناسبة فتحكم لهذا الفرع العلمي الجديد الذي صار يضم ما يربو على نصف التلامذة الزيتونيين وكون أغلبية الأساتذة المنقطعين للتعليم به إنما هم من المتطوعين المباشرين للإقراء بالجامع الأعظم الآن وفيما مضى والّذين سيقام على مجهوداتهم الفكرية مستقبل هذا الفرع يلفتون سديد أنظاركم لحالتهم الحرية بالعطف والمساعدة ويقدمون بين أيديكم مطالبهم الآتية :

1) انتخاب أقصى عدد مناسب للظروف الحالية من بينهم بصفة مدرسين على أن يكون انتخابهم بواسطة المناظرة،

2) تخصيص إعانة قارة ومناسبة لمجهوداتهم العلمية يتقاضاها من بقي منهم بعد تعيين المدرسين (...)،

3) تعجيل إعانة وقتية لكل منهم لتكون عنايتكم شاملة لكل الأساتذة الزيتونيين بهاته المناسبة الميمونة.... »[54] ثم تحسنت حالتهم تحسنا نسبيا بمقتضى أمر ماي 1928 الذي اعتبرهم مدرسين معاونين أو مدرسين من الطبقة الثالثة.

— قيام المدرسين بمهمتهم : قلنا إن التدريس كان منذ قرون حراً ولا شك أن هذا الوضع انجرت عليه عادات تخلقت بها أجيال من المدرسين منها حرية التصرف في الوقت وغير ذلك من مظاهر عدم الانضباط. ثم جاءت التراتيب الرامية إلى تنظيم التعليم وانخراط المدرسين في سلك مراقَب من طرف الدولة وحثت هذه التراتيب على المواظبة على الدروس شأن التعليم إذا دخل في زمرة الهياكل الرسمية. وجعلت التراتيب الأحمدية مشائخ نظّار من أصحاب الخطط الشرعية لمراقبة المدرسين واشترط نص المعلقة أن لا أجر لمن تخلف بدون عذر شرعي كما صدرت عدة مناشير وأوامر من الدولة الصادقية في هذا المعنى فضلا عمّا جاء في قانون 1292 من فصول في واجبات المدرس وحث النظارة على الحزم في المراقبة، غير أن تلك الواجبات لم يتخلق بها المدرسون بصفة مرضية لِما تعودوا به من العادات التي نشأت في عصور استقلال

54) جريدة **النهضة** يوم 15 شوال 1345 — 16 افريل 1927. انظر أيضا جريدة **الزهرة** يوم 10 محرم 1350 — 27 ماي 1931 في تأييد مطالب المتطوعين.

التعليم. فلقد وجدنا في التقارير الشهرية الواردة من المشائخ النظّار إلى الوزارة الكبرى[55] ليطلع الباي على مواظبة المدرسين بالجامع عددا كبير من الغيابات فبالنسبة مثلا لشهر صفر 1293 عدد أيام التغيب لمجموع الثلاثين مدرسا من الطبقة الأولى 119. وبالنسبة لمدرسي الطبقة الثانية وعددهم 12 كانت أيام التخلف 37 كذلك بالنسبة لشهر جمادى الأولى 1283 عدد أيام تخلف مدرسي الطبقة الأولى 81 ومدرسي الطبقة الثانية 24.

وقد تحيرت الوزارة الكبرى من هذا الوضع ونبهت المشائخ النظّار على المراقبة وحث المدرسين على عدم التخلف ويظهر أن المشائخ النظّار سلكوا طريقة التسامح والتراخي في هذا الشأن بإعطاء العذر الشرعي لمن لا يستحقه[56]. ولعل الدافع إلى ذلك التساهل ما كان يعانيه المدرسون من تأخير في قبض الجرايات فلقد جاء في مكتوب وجهه المشائخ النظّار إلى الوزير الأكبر خير الدين ردًا على استفسار الباي إياهم في شأن تخلف المدرسين والمؤرخ في 15 صفر 1291 (1874)[57] « **الذي يظهر أن سبب ذلك (يعني تخلف المدرسين عن الدروس) هو عدم إجراء المرتب لهم في كثير من الأشهر والإعانة الكلية على تحريضهم تكون بإتمام إجراء المرتب وقطع تعطيله** ».

وبعد إبراز هذا الجانب السلبي ينبغي علينا أن لا نغفل عن ذكر جانب آخر من الواقع الزيتوني وهو انقطاع بعض المشائخ إلى مهمتهم انقطاعا كاملا يكاد يضاهي التزامهم لأداء أركان دينهم كمثل الشيخ المدرس أحمد بن مراد المفتي الحنفي، فإنه كان لا يتخلف عن دروسه مهما كانت الضرورات والحوادث : مات له ولد فدفنه في الصباح ومن الجنازة رجع إلى جامع الزيتونة وأقرأ درسه[58] هذا بالنسبة للمواظبة وأمّا بالنسبة لسلوك المدرسين أثناء درسهم فقد جاء في ترتيب 1292 عدة فصول (الفصل 8، الفصل 13 الخ) تبين للمدرسين كيفية إلقاء الدرس قصد إفهام التلامذة وعدم التنقل من مسألة إلى أخرى إلّا بعد تيقن حصول التلامذة على فهمها وأوصت هذه الفصول باختبار التلامذة أثناء الدرس وفعلا قد اشتهر مشائخ من مدرسي الجامع قبل هذا الترتيب وبعده بنجاعة أساليبهم في الإقراء كمثل الشيخ المدرس الإمام حسن الشريف الذي كان يفاكه تلاميذه في الدرس خشية سآمتهم. واذا بحث أحدهم بحثا يُحسن الإصغاء اليه ويعيده للطلبة بأوضح عبارة ويقول لهم هل ظهر لأحدكم جوابه « **واذا أجاب أحد يصغي إليه ويعيده أيضا تدريبا لتلاميذه على المباحثة وتلذذا بنجابتهم** »[59].

لكن بالنسبة لعدد كبير من رجال التعليم كان الأسلوب دون ذلك بكثير، مطبوعا بالغموض والإستطرادات المملة والشروح العقيمة.

يقول محمد الفاضل ابن عاشور في التقرير الذي قدمه حول التعليم الزيتوني أمام مؤتمر جمعية طلبة شمال إفريقية سنة 1931 :

« **وتمضي الأعمار في دراسة هذه الكتب دون الحصول منها على طائل ومن ذا الذي يطمع في ختم تفسير البيضاوي أو ختم المطول حتى أن المرحوم العلامة الشيخ أحمد ابن الخوجة لم يتجاوز الفاتحة بعد اثني عشر عامًا من مشروعه في درس البيضاوي الذي كان يدرسه ويدرس عبد الحكيم والحواشي كلها بدون أن يحاول التوصل لمعاني القرآن وحقائق أسراره** »[60].

---

55) **ارشيف الحكومة التونسية** : مكاتيب المشائخ النظار إلى الوزارة الكبرى الوثائق 7 و 19 (728).

56) انظر الوثيقة 76 (728) **ارشيف الحكومة التونسية** (رسالة من المشائخ النظار الى الوزير الأكبر) « أمّا اجراء المرتب كاملا لمن يتخلف عن التدريس فلان كل من يتخلف يذكر أن له عذرا شرعيا وقد جرت العادة وعمل المشائخ النظار قبلنا بتوكيل ثبوت اعذارهم إلى ديانتهم لأن المظنون بهم الصدق فيها كما هو شأن مقامهم العلمي ».

57) **ارشيف الحكومة**... الملف 727. الوثيقة رقم 84.

58) محمد المختار بن محمود « تأبين شيخ الجماعة الشيخ أحمد بن مراد » **المجلة الزيتونية** المجلد الرابع ص 54 ـ 55.

59) **اتحاف**... الجزء السابع ص 70.

60) « حالة التعليم العربي في شمال افريقية » نشرة محاضر جلسات **مؤتمر طلبة شمال افريقية المسلمين بفرنسا** تونس 1931 ص 33 ـ 48.



الشيخ أحمد بن ميلاد محفوفا بآخر التلامذة الذين درسوا بالجامع قبل النقلة إلى الجامعة الزيتونية سنة 1958

ولقد رتب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أصناف المدرسين بالنسبة لمطلع القرن العشرين قائلا : «تنحصر مراتب المدرسين تقريبا في خمسة أنواع :

الأول : التحرير الذي يميز الصحيح من الفاسد بنقد وفهم مصيب مع التضلع في الكتب التي لا تدرس من أصول العلوم وهذا النوع قليل بالجامع الأعظم.

الثاني : المتمرن بكتب التدريس الواقف على اصطلاحها المقتدر على تدريس المهم منها بالفهم والإفهام على ما هي عليه من غير خطأ، وهذا أكثر من يطلق عليه اسم نحارير المدرسين.

الثالث : نقَلة لما في الكتب مكدّون لحوافظهم عند التدريس ليسوا من النقد أو التحرير في شيء ينقلون ما يحتطبونه بالليل، (...) ليأتوا به صباحا وينالون بإعجاب تقريرهم له انشراحا وهؤلاء أتعب خلق الله عيشا وأقلهم تدريسا لأن اعتيادهم بأن لا يقرروا إلّا ما طالعوا يكلفهم نصب السهر والنقل ويمنع من التدريس أقلُّ مانع يعوقهم على المطالعة في الليل.

الرابع : أناس يفهمون ويدرسون ولكنهم لا يميزون في ذلك الصحيح من الفاسد.

الخامس : طائفة كثيرة دأبها صُراح الخطأ وزَلَق الخُطا والسّتر على العيب بغِطاء »[61].

2 ـــ تلامذة جامع الزيتونة :

سوف نقتصر في هذه السطور على الحديث عن تلامذة الزيتونة الوافدين من داخل الإيالة لما في دراسة وضعيتهم من الارشادات على حياة الطالب الزيتوني لا في الجامع فحسب بل في غير أوقات الدراسة.

عددهم : عدد تلامذة الزيتونة في سنة 1899 : 901 ولقد نبه الشيخ الطاهر ابن عاشور على الأرقام الآتية بالنسبة لمطلع القرن : « **عددهم في كل عام زهاء الالف منهم في المرتبة العالية أو منتهى المتوسطة نحو المائة وفي المتوسطة 400 وفي الابتدائية نحو 500 ولا يمكن البناء على التحقيق لأن التلميذ قد يكون في المتوسطة من بعض الفنون والابتدائية من غيره** [62]» ويظهر لنا أن عدد التلامذة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أقل بكثير ومرجع ذلك ما عاشته البلاد من سنين صعبة خصوصا في الستينيات، وترتب على ذلك نقصان هام في عدد التلامذة الوافدين من داخل الإيالة والمظنون أن عددهم دون الألف وقد عثرنا في أبحاثنا على وثائق الأرشيف العامة «بالقصبة» على جريدة بها أسماء التلامذة الذين أجري عليهم الامتحان السنوي بالجامع عملا بالفصل 46 من ترتيب 1292 وقد جرى هذا الامتحان في سنة 1293 فلقد كان عدد

61) اليس الصبح بقريب : ص 233 ـــ 234.
62) اليس الصبح بقريب : ص 157 ـــ 158 ولويس ماشويل، التعليم... ص 159.
63) ارشيف الحكومة... الملف 728 الوثيقتان 36 ـــ 37.

عريضة وجهها الطلبة المقيمون بالمدرسة الجديدة الى الوزير الأكبر يشتكون فيها من تعطيل منحهم من طرف وكيل المدرسة

التلامذة 304. أمّا بجريدة ثانية متضمنة أسماء الطلبة الذين شهد لهم مشائخهم بالمواظبة على دروس سنة 1297 / 1879 ـــ 1880 لإعفائهم من الأداء السنوي (المجبى) بمقتضى ترتيب 1292 وعددهم باستثناء أبناء العاصمة 341 (64) فالظن الغالب أن العدد الجملي لتلامذة الجامع يومئذ لا يتجاوز 700.

التوزيع الجهوي للتلامذة :

اعتمدنا في هذا التوزيع على ثانية الوثيقتين أعلاه وقد وزعنا التلامذة المذكورون حسب الجدول الآتي :

الجهـات	عدد التلامذة
الساحل	118
الشمال الغربي	72
القبائل	58
الوطن القبلي	53
الوسط	20
صفاقس وعملها	3
الجريد	3
قابس والأعراض	2

64) **ارشيف الحكومة** : الملف 729، الوثيقة 40 وعددهم ستة 1295 : 243 (الملف 728 الوثيقتان 100 و 102) و 277 في سنة 1928 (الوثيقة 6 الملف 730).

احواز تونس	4
جربة	2
اقصى الجنوب	0
طرابلس	2
؟	4
الجملة	341

تفوّق أبناء الساحل واضح خصوصا إذا قلنا إن الساحل في جدولنا يمثل الواقع الجغرافي والاجتماعي، (باستثناء عدد قليل جدا من تلامذة المهدية وسوسة، الأغلبية الساحقة من التلامذة الذين سجلنا أسمائهم في هذا القسم من جدولنا أصلهم من قرى عمل الساحل وغالبهم من القلعة الكبرى والقلعة الصغرى وأكودة وقصور الساف وبنبلة ومساكن وعوينة الساحلين وقصر هلال والمكنين).

وهذا بخلاف ما ذكرنا في بقية أقسام الجدول فان في تقسيمهم شيء من مخالفة الحقيقة لابتعاد الأمكنة من بعضها، فإذا أخذنا مثلا القسم الثاني الذي سميته الشمال الغربي وجدنا فيه تلامذة وافدين من مناطق بعيدة عن بعضها جغرافيا وحتى حضاريا، فهناك تلامذة من المدن مثل بنزرت وباجة (وفيهما الحنفية والمالكية) ومن الكاف كما نجد ضمن هذا القسم أبناء القرى ذات التراث المدني مثل تستور ورأس الجبل وفيه أيضا من هم من مراكز فلاحية مثل ماطر وبجاوة وتبرسق كذلك بالنسبة لما سميناه أحواز تونس فقد أدخلنا في هذا القسم طبربة وزغوان إلى جانب أبناء فروع القبائل الحاطة في ضواحي العاصمة والمعروفة « بالعروش الرقاق » وبالنسبة للوسط فالجدير بالملاحظة أن أغلب التلامذة المعدودين في هذا القسم من جدولنا أصل أهلهم من جبل وسلات ورسمناهم في هذا القسم لعدم وجود الارشادات على مكان سكناهم زيادة على نسبتهم القديمة (وأهل جبل وسلات تفرقوا في كل أنحاء الإيالة من لدن دولة علي باي ابن حسين) وفي هذا القسم وضعنا من هم من عمل القيروان. أما بالنسبة للوطن القبلي فالجدير بالذكر أن أغلب الطلبة من بلدة بني خيار وفيهم أيضا من هو من نابل ومنزل تميم ومنزل بوزلفة والمعمورة والحمامات وقليبية والهوارية. أمّا ما سميناه بالقبائل فهو يشتمل على التلامذة الوافدين من فراشيش وأولاد عون وماجر وأولاد عيّار وكذلك من جلاص.

وبالنسبة لصفاقس فيجدر التنبيه إلى أن التلامذة المعدودين في جدولنا وعددهم قليل هم من نواحي صفاقس (الشابة وقرقنة) لا من المدينة وهذا الأمر لا غرابة فيه لما نعلم من الانتماء القديم والارتباط المتين بين صفاقس والمشرق وخصوصا مصر(65) فكان أبناء هذه المدينة كثيرا ما يزاولون تعليمهم بالجامع الأزهر وذلك لأنهم يجدون من الأقارب في القاهرة وفي الاسكندرية ما لا يجدون من الأهل بالعاصمة التونسية إذ غالب من يخرج منهم يتوجه إلى هاتين المدينتين المصريتين بتجارته.

وقل من كان ينتقل إلى العاصمة لطلب العلم من أبناء بيوتات العلم من المدن كصفاقس وسوسة والقيروان اقتصارا منهم على الكرع من شيوخ بلدانهم اذ يدركون الغايات التي يرمون اليها ويحققون رغباتهم من الولايات الشرعية والعلمية في مدنهم من غير انتقال إلى العاصمة.

ونستخلص من هذا أن الذين يهاجرون إلى الزيتونة هم من أبناء القرى والقبائل ومن أبناء الطبقات الفقيرة من المدن ونواحيها وذلك لأن وضعهم الاجتماعي يمنعهم من النجاح في المدن لسيطرة أعيانها على المناصب الشرعية والعلمية فلا يدركون بغيتهم إلّا بالانتقال إلى العاصمة والكرع من مناهلها.

حياة الطالب الزيتوني :

يسكن أغلب التلامذة الوافدين على الحاضرة بالمدارس وقد ذكر الشيخ ابن أبي الضياف أن إبراهيم الرياحي لما هاجر من بلده تستور إلى تونس العاصمة في طلب العلم سكن بمدرسة حوانيت عاشور ثم

65) انظر دراسات الأستاذ أندري ريمون (André Raymond).


الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور


الشيخ سالم بوحاجب

بمدرسة بئر الحجار لمدة عشرين سنة في ضيق ووحدة لقلة ما في اليد. وقد كان عدد المدارس في أواخر القرن التاسع عشر 22 وغرفها 450[66] ومن التلامذة من يضطر إلى السكنى في الفنادق الشعبية لعدم تمكنه من سكنى بيت من بيوت المدارس ويظهر أن حالة المدارس كانت غير حسنة لأن القائمين عليها المراقبين لها لا يعتنون بتنظيفها وإصلاحها وترميمها حسبما تقتضيه قواعد الصحة إذ غالبهم إنّما يطلب هذا المنصب ليحقق لنفسه المنحة المخولة لمن يقوم بإدارة هذه المدارس.

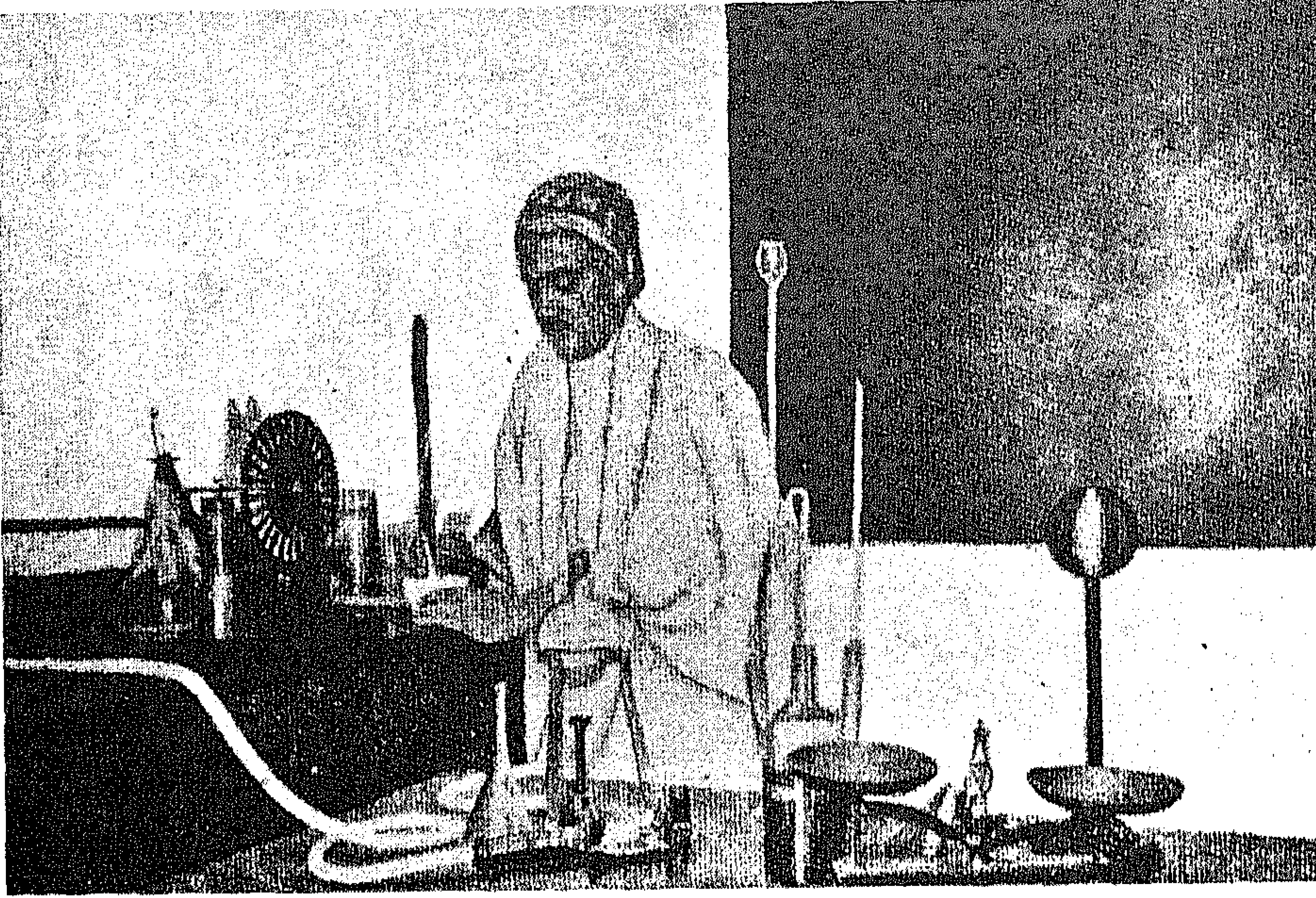
وكان الطالب يضطر إلى القيام بنفسه في طهي طعامه وغسل ثيابه وتنظيف بيته ويستغرق ذلك وقتا ثمينا ربما كان يتمنى أن يقضيه في البحث والمراجعة ولكن قلة ما في اليد يجبره على ذلك.

موارد العيش : قلنا إن أغلبية التلامذة من أوساط فقيرة ليس في إمكان عائلاتهم وأهلهم القيام بمصاريفهم مدة مزاولة الدراسة في العاصمة أضف إلى هذا أن بعضهم كان متزوجا مسؤولا عن عائلته فيتركها في بلده مضطرا، لقلة ما في يده مما لا يمكنه من نقلها وسكناها معه، ولقد كان بعض الطلبة يعملون بالليل ليستعينوا على القيام بشؤون معيشتهم فتراهم يقومون بأعمال مختلفة كنسخ الكتب والعمل بالسراجين والخياطة ونحوها مما لا يستلزم أن يكون العمل بالنهار فتراه بالجامع ساعات التلقي للدروس وتراه في غير أوقاتها في الحوانيت ونحوها للقيام بهذا العمل البسيط الذي يستعين به على معيشته وقد شهد على ذلك الشيخ أحمد ابن الخوجة شيخ الاسلام الحنفي وكبير النظار بالجامع حيث يقول في رسالة موجهة إلى الوزير الأكبر محمد خزنه دار في 4 ربيع الأول 1299 (1882)[67] « **إن كثيرا من المشائخ المتطوعين وأعيان التلامذة بالجامع الأعظم همهم الفقر حتى أن أحدهم يبلغ به الأمر أحيانا أن لا يقتدر على الجمع بين قوته وزيت ينظر عليه درسه وكثير منهم ذو عيال فلا بد من الإلتفات إلى هؤلاء الضعفاء بقدر الاستطاعة**». ومن عادات العاصمة ان هناك عددا من الطلبة يلتحقون ببعض البيوت من أهل الشرف والعلم والسماحة يتبرعون عليهم بمأكلهم ويلتزمون بالقيام بمعيشتهم.

الأوقاف : لقد كانت أوقاف مرتبة لفائدة الطلبة الساكنين بالمدارس[68] لكن أصبحت هذه المنح ضئيلة جدا باعتبار غلو المعيشة وانحطاط القيمة المالية ورغم ضعفها وقلة جدواها فقد كانت تتأخر الشهور

---

66) ماشويل : **التعليم العمومي**... ص 159.
67) **ارشيف الحكومة** الملف 730 الوثيقة 20.
68) **ارشيف الحكومة** : الملف 739.



دور الخلدونية في تثقيف الطلبة الزيتونيين تثقيفا عصريا : المخبر

العديدة بحيث لا يتمكن صاحبها منها إلّا بعد إلحاح وطلب ومراجعة كما ذكره طلبة مدرسة يوسف صاحب الطابع في رسالة مؤرخة في 6 محرم 1290 (1873) « **وكيل الجامع منع علينا مرتبنا وضيّق علينا بحيث منع الراتب وإننا مهاجرون عن الأهل والأوطان لأجل تحصيل القرآن والنفع به بعد تحصيله في إقامة ديننا ودنيانا** ». أو كما ذكره الطلبة الساكنون بالمدرسة الجديدة(69) في رسالة موجهة إلى الوزير الأكبر مصطفى خزنه دار « **... إن أبناءك تلامذة الشيخ المزار الوالي الصالح سيدنا محمد بن ملوكة رحمه الله الساكنين بالمدرسة الجديدة قد توقف مرتبهم مدة خمسة أشهر وسبب ذلك الزيادة الواقعة في مرتب الوكيل والشاهدين لأن الحبس من وقت المحبس إلى زمن الشيخ المذكور مرتب الوكيل به سبعة ريالات ونصف والشاهد محبوب والآن صار مرتب الوكيل ستين ريالا ومرتب الشاهدين مائة وعشرين ريالا فضاق الحبس الآن عن الأصل والزيادة فتوقفت مرتباتنا والحبس لا يتحمل هذا الأمر. والنظر لكم كافة طلبة المدرسة الجديدة صح من محمد العكروت، إبراهيم الحنفي، محمد بوحاجب، علي بن عبد الله، علي بورقيبة، محمد السعداوي، يوسف التبرسقي، الحاج محمد المنزلي، محمد الخلادي، أحمد بن بدر الكافي، الطاهر الفرشيشي، محمد العريف، عمر القروي، عمر النفطي، عبد الله القلعي، محمد الصادق الزغواني، محمد بن سلامة المعموري** ».

دور الدولة في إعانة الطلبة : إلى جانب هذه الأوقاف المرتبة على المدارس وساكنيها قد كانت هناك بعض جرايات خصصتها الدولة لطلبة العلم المتطوعين من المال المخصص للمدرسين كما ذكرناه آنفا. كما كانت هناك جرايات تعطى لطالبي العلم من فاضل الأوقاف بأمر من الباي لكن هذه الجرايات هي عبارة على امتياز من امتيازات النخبة الاجتماعية أكثر منها منحة لإعانة الفقراء من طلبة العلم وهذا نص أمر من محمد الصادق باشا باي إلى الحاج محمد العلاني وكيل سور القيروان في 11 جمادى 1277 يقول فيه « **فالعمل أن تجري ريالا يوميا من فاضل ريع الوقف المذكور للفقيه النبيه محمد الطاهر ابن المقدس المبرور البركة الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي إعانة له على طلب العلم الشريف وتحاسب بذلك من يوم التاريخ** ».

ويظهر أن أهم قرار اتخذته الدولة الحسينية في هذا الشأن هو قرار محمد الصادق باشا باي في إعفاء التلامذة المهاجرين لطلب العلم بالجامع الأعظم من الاداء السنوي المسمى « بالمجبى » وإعفائهم أيضا من

69) ارشيف الحكومة : الملف 740 الوثيقتان 5 و 9.

الخدمة العسكرية تحريضا لهم على العلم وتيسيرا لهم والمتحصلون على التطويع والطلبة البالغون درجة عالية في التعليم يتمتعون بالإعفاء المستمر(70). كما أن المتحصلين على التطويع كان في إمكانهم الحصول على أمر من الباي يمكنهم من الإشهاد بين الناس يرتزقون منه ثم صار هذا الامتياز حقا مكتسبا بمقتضى الأمر الصادر في 23 صفر 1297 (1880).

دور المدرّسين والمشائخ النظار وأعيان الشرع في مساعدة التلامذة : كان نظام المجتمع يومئذ يرتكز أساسا على العلائق الشخصية والتضامن في درجات مختلفة عائلية وجهوية وكذلك مهنية، فكان أهل العلم مثلا من أعيان الشرع ومدرسين وطلبة يشعرون بوحدتهم يأخذ قويهم بيد ضعيفهم ويعتمد الضعيف على وجاهة أعيان عصبته لنيل مطالبه فلا غرابة إذن أن نجد في خزائن الأرشيف مكاتيب عديدة صادرة من أعيان العلماء يرغبون فيها من الباي أو الوزير الأكبر مساعدات مالية وغيرها من أنواع الإعانة لفائدة تلامذة الجامع وحتى لفائدة قدماء التلامذة فمن جملة هذه الوثائق رسالة وجهها الشيخ أحمد ابن الخوجة شيخ الاسلام وكبير المشائخ النظّار إلى الوزير الأكبر مؤرخة في 24 جمادى الأولى سنة 1296 (1879)(71) (بعد ذكر فضل الامتحان). « **غير أن مشهد الامتحان لمّا كان محتاجا زيادة على العلم إلى قوة الجأش وليس على التلميذ يد غاصبة ولا له رزق مجرى فلا بد له من مرغب على تجشم مشقة الامتحان مع أن المعلقة قاضية بمحاسنة التلامذة فلذا ظهر للمشائخ النظّار في جلسة يوم السبت الحادي عشر من شهر التاريخ أن يُجمع للتلامذة المحتاجين مال يوزع عليهم فمن فاضل بيت المال ألف ريال ومن فواضل أوقاف المدرسين من الطبقة الثانية خمسمائة ريال ومن فواضل جمعية الأوقاف ألف ريال وفي ذلك من التفريج للتلامذة والترغيب لهم على اكتساب الفضائل والتحلي بالكمالات فالمرغوب من سيادتكم التسبب في الإذن بذلك عن قريب فأحسن البر عاجله** ».

وبالجملة فقد كانت حياة التلامذة والطلبة موصوفة بالبؤس مع إضافة الوضع النفساني والمعنوي بسبب غربتهم. كان أغلبهم يقتصر على التحصيل على شهادة التطويع ثم يرجعون إلى بلدانهم وينتصبون هناك للتدريس أو للإشهاد أو لغيرها ومنهم من يبقى في العاصمة ولكن ينفصلون عن التعليم ولا بد هنا من ذكر النجباء منهم الذين بلغوا إلى الدرجات الرفيعة وصاروا من فطاحل علماء هذا القطر مثل الشيخ سالم بوحاجب ومن قبله الشيخ أحمد بن حسين القمار والشيخ إبراهيم الرياحي وغيرهم.

وفي الختام تجدر الملاحظة بان صعوبة المعيشة وقلة ما في اليد والسكنى غير المريحة كل ذلك كان يتقبله الطالب ويرضى به رغبة في تحصيل العلم ولذلك لا تجد معاملة بالعنف ولا اضراب وأول إضراب قام به طلبة الجامع كان في سنة 1910 مطالبين أساسا إدخال إصلاحات على التعليم الزيتوني مقتصرين على طلب واحد فيما يتعلق بظروف معيشهم والاعتناء بمبيتهم.

وسنتحدث عن مظاهر الحركة الطلابية الزيتونية بعد حين.

التعليم الزيتوني من انتصاب الحماية إلى سنة 1350 / 1932

أثرت تجربة الوزير خير الدين الاصلاحية تأثيرا قويا على ذوي الحصافة من رجال العلم والسياسة مما جعلهم يفكرون في الوسائل الكفيلة بإخراج التعليم الزيتوني من الخمود والانحطاط وقد تسبب الاحتلال الفرنسي في مزيد الوعي عند هؤلاء المفكرين من أبناء الزيتونة وغيرهم بضرورة إصلاح التعليم وأساليبه حتى يصبح قادرا على مواكبة التطورات السريعة الناتجة عن دخول البلاد التونسية في المحيط العصري. ومن مظاهر هذا الاتجاه الفكري تأسيس الجمعية الخلدونية سنة 1314 — 1896 وهدف هذه الجمعية بث العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعية والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد باللسان العربي.

70) **ارشيف الحكومة** : الوثيقتان 69 الملف 728 و 14 الملف 729 وكذلك الفصل 25 من ترتيب 1292.
71) **ارشيف الحكومة**... الملف 729 الوثيقة 4.

وقد ألقى الأستاذ الزيتوني العالم المصلح الشيخ سالم بوحاجب درسا بمناسبة تدشين الخلدونية بيّن فيه مشروعية تعلم العلوم الدنياوية العصرية في نظر الدين الاسلامي(72).

وأقبل طلبة الجامع على دروس الخلدونية إقبالا كبيرا فأخذوا يتدربون على ممارسة تلك العلوم العصرية ويطلعون على جوانب من الحياة العالمية والأوضاع الاستعمارية من خلال دروس الزعيم السياسي البشير صفر « **حتى صارت دروسه معهدا تتلقى فيه التوجيهات القومية قبل التوجيهات العلمية فصارت زعامته على شبّان ذلك الجيل مطلقة لا تزاحم ومنزلته منه منزلة خير الدين من الجيل الماضي** » (محمد الفاضل ابن عاشور).

أما في ميدان التراتيب والمساعي الإدارية للنهوض بالتعليم الزيتوني فقد تشكلت سنة 1316 (1898) لجنة للنظر في إصلاح التعليم برئاسة الوزير الأكبر وبعضوية علماء من الزيتونة والمدير الفرنسي لإدارة المعارف وأسفرت أشغال هاته اللجنة الحكومية عن نتيجة جد هامة وهي أن النظر في شؤون التدريس بالجامع أنيط نهائيا بعهدة الوزارة الكبرى لا بعهدة إدارة المعارف رغم مساعي مديرها لويس ماشوال للإشراف على الزيتونة.

وانعقدت لجان إصلاح أخرى طيلة النصف الأول من القرن العشرين كانت نتائجها متفاوتة الأهمية والنجاعة فاجتمعت اللجنة الثانية سنة 1328 — 1910 وكانت أهم نتيجة لأشغالها صدور الأمر العلي في 1330 — 1912 المتضمن تأسيس خمسة فروع للتعليم الزيتوني في القيروان وسوسة وصفاقس وتوزر وقفصة إلّا أن ازدهار تلك الفروع تعثر بسبب عدم الاعتناء بها إداريا وماليا ثم التأمت لجنة ثالثة في 1342 (1924) أمّا اللجنة الرابعة فقد انعقدت في 1349 (1930) وهي التي صارت جلساتها ساحة لاصطدام عنيف بين المحافظين وعلى رأسهم الوزير الأكبر خليل بوحاجب وشيخ الاسلام أحمد بيرم الذين يرون أن صيانة الهوية الاسلامية والعربية للبلاد مقيدة بشرط إبقاء التعليم الزيتوني على حاله وبين الاصلاحيين الذين يرون عكس هذا معتقدين على غرار زعيمهم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور باش مفتي المالكية أن « **قِوام حياتنا القومية وبقاء مميزتنا مقيدان بشرط إصلاح التعليم الزيتوني** ». وشهدت البلاد بهذه المناسبة صراعا شديدا بين أنصار الشقين تجسم في الميدان الصحفي في الشجار القلمي العنيف بين جريدة **الزهرة** المحافظة وجريدة **النهضة** الاصلاحية.

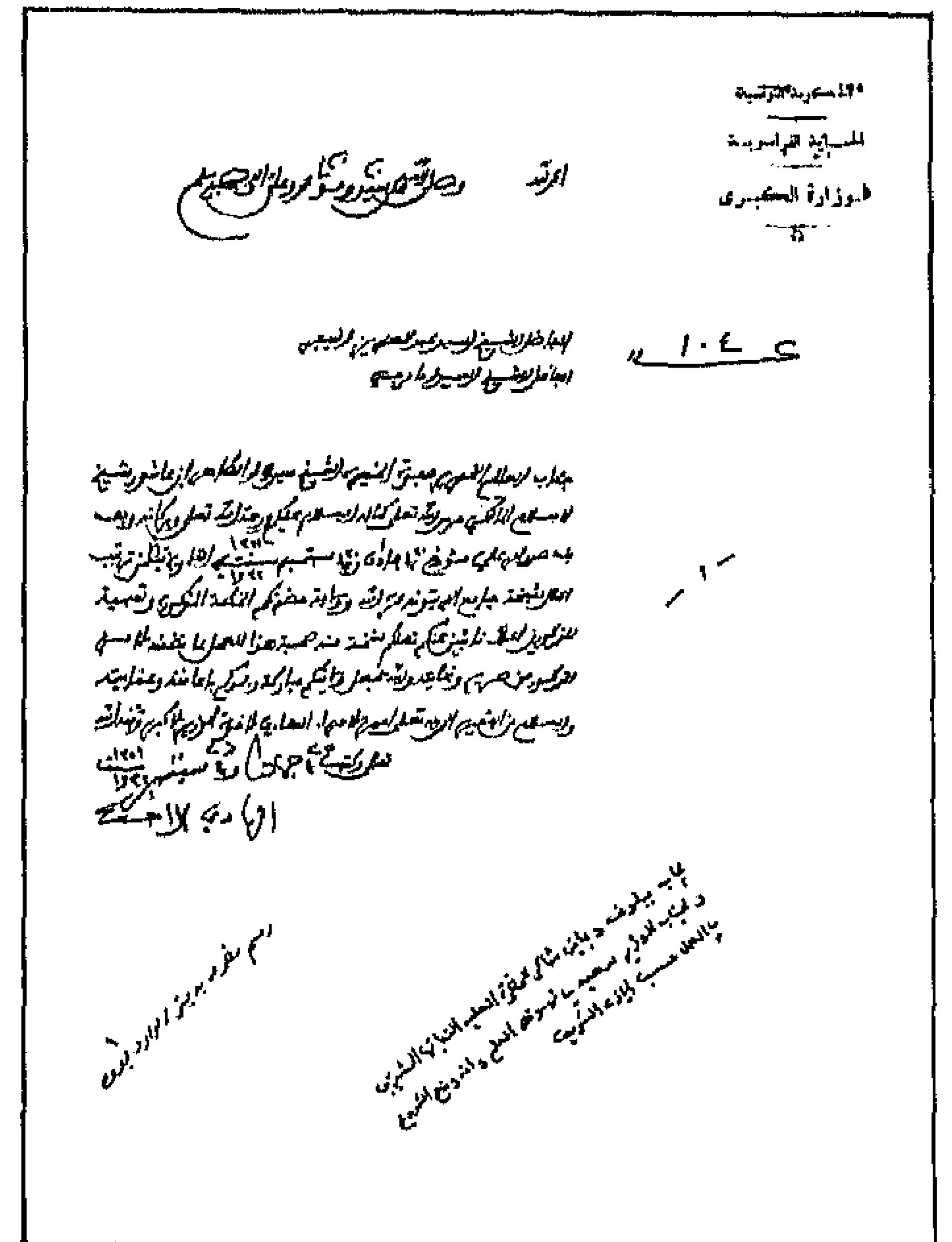
ولم تبرز نتائج أعمال تلك اللجنة للوجود إلا بعد تعويض الوزير الأكبر وإقالة الشيخ بيرم وتعويضه بالشيخ محمد بن يوسف المناصر للشيخ ابن عاشور وقد عزز أحمد باي الثاني موقف الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بتسميته سنة 1932 شيخا للاسلام المالكي ثم بتكليفه في شهر سبتمبر من نفس السنة 1932 بمهام شيخ مدير الجامع الأعظم وفروعه بعدما تم إلغاء النظارة العلمية فتيسر للشيخ ابن عاشور الشروع في تطبيق آرائه الاصلاحية التي كانت شغله الشاغل منذ تأليفه لكتاب **أليس الصبح بقريب** في سنة 1907.

التراتيب التي أحدثت في تلك الفترة

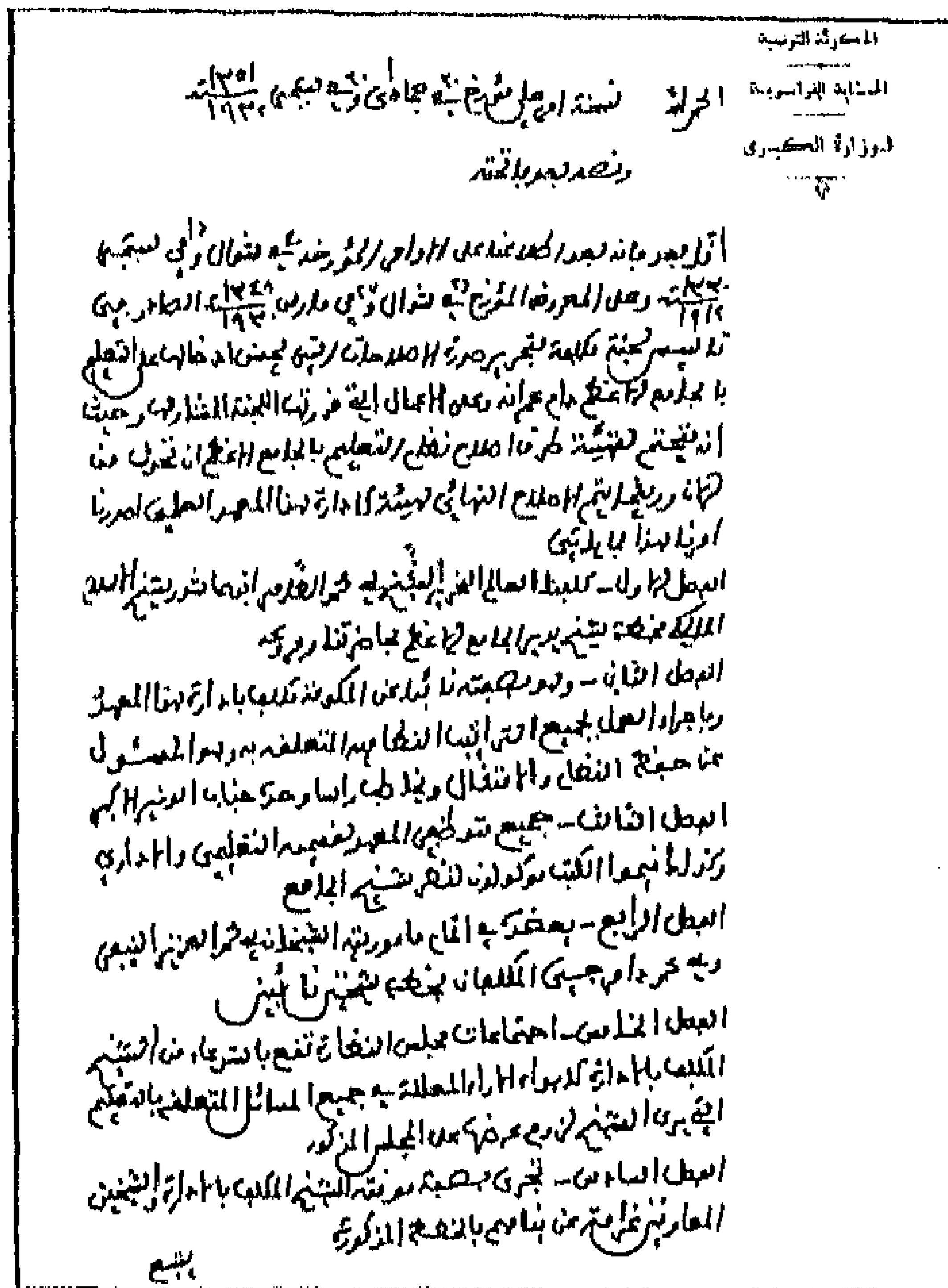
— في امتحان التطويع والمناظرة :

كان امتحان التطويع من سنة 1292 الى السنة 1316 (1898) عبارة عن إلقاء درس واحد في كتاب يختاره التلميذ من الكتب التي له فيها دروس والمشائخ النظار يعيّنون له موضعا منه ويعطونه ثمانية أيام لمطالعته وإلقائه وإذا أحسن إلقاءه رخص له الإقراء في الجامع الأعظم لكن كما قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه **اليس الصبح بقريب** ذلك لم يكن يحتاج لقوة علم أو فهم بل يكفي أن يكون التلميذ قادرا على الحفظ وعلى إلقاء ما يحفظه لأنه يمكث تلك المدة في تحرير درسه باستعانة أقرانه أو شيوخه ثم يحفظه عن ظهر قلب ثم يلقيه إن لم يكن به عجز أو شدة حياء. ثم ظهر للنظارة تسيير امتحان التطويع ثلاثة دروس

72) انظر هذا الدرس في **اليس الصبح**... ص 103 — 112.



نسخة أمر علي يتعلق بتسمية شيخ الاسلام محمد الطاهر ابن عاشور شيخا مديرا للجامع الأعظم وفروعه 1351 — 1932



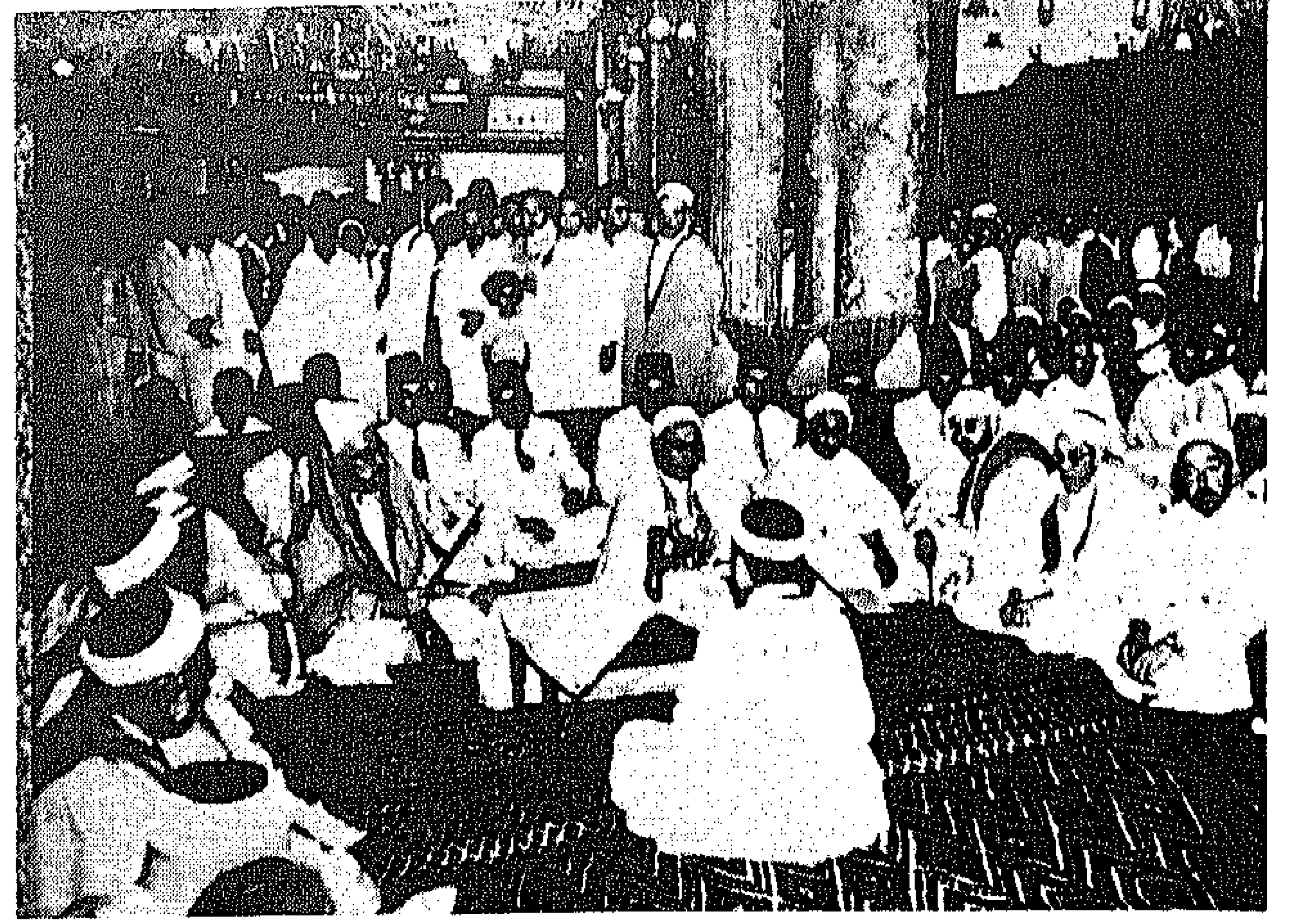
تسمية الشيخين عبد العزيز النيفر المالكي ومحمد دامرجي الحنفي نائبين عن الشيخ المدير 1351 — 1932

وجعلت مدة الامتحان يوما وليلة ولما ظهر خلل هاته الطريقة سعت الوزارة في تدارك الأمر فصدر أمر 1316 — 1896 القاضي بتعيين جديد لأسلوب الامتحان وتركيبه من امتحان كتابي في مقالة موضوعها باب من أبواب الفقه ودرس في علم من علوم سنة هي : الكلام والفقه وأصول الفقه والنحو والبلاغة والمنطق. ولا يعيّن التلميذ كتابه ولا علمه ولكن تعين دروس مأخوذة من مواضع متوسطة من أحد ستة كتب (شرح المحلي على جمع الجوامع في الأصول وشرح الدردير على مختصر خليل... الخ) وبعد مجاوزة هاتين المرحلتين يتقدم التلميذ إلى الجزء الأخير من الامتحان وهو الأجوبة الشفهية عن الأسئلة في الفنون الآتية : الفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والجغرافيا والتاريخ والمساحة والحساب وقد وصف الأديب عبد العزيز بن الباجي المسعودي مشاركته في امتحان التطويع وصفا بديعا مفيدا نقتطف منه محل الحاجة. يقول الشيخ عبد العزيز : « **وفي شوال المبارك سنة 1318 (1900) عزمت على الدخول لحلبة الامتحان وقد بقي له إذاك أربعة أشهر حيث إنه وقع في ربيع الأنور 1319. فأخذت في الاستعداد بقدر الطاقة مع كوني ما تخلفت عن القراءة بالجامع أيام التحضير وعند صدور القرار لهذه السنة قدمت مطلبا على ما يقتضيه القانون الى المشائخ النظار (...) فكان نص المطلب :**

إلى المشائخ الأعلام وأيمة شريعة الاسلام نظّار الجامع الأعظم الذي أسس على التقوى من أول نهاره وأصبح قطب دائرة المعارف الاسلامية الذي يعشو إلى ضوء ناره. بعد أداء ما يجب من الاحترام لتلك المقامات المنيعة والذوات الشريفة فإنه بمقتضى الإعلام بإجراء الإمتحان والإذن بتسابق الفوارس فيه لإحراز الرهان فإن العبد ممن يطلب الإذن بقبوله حتى يكون من فرسانه ويعرض عليكم بضاعته في العلوم التي أحرز عليها بقلبه ولسانه.

ولما كان من القانون أن يكون بيد كل تلميذ دفتر فيه شهادات مشائخه له بالتحصيل والمواظبة في ضمن التنبيه على الكتب التي زاولها عنهم ولا يقع قبول مطلب الدخول للامتحان إلا بعد الاطلاع على الدفتر المذكور ووجوده كافيا في كتب العلوم المطلوبة قدمت دفتري مع جريدة لخصت فيها ما احتوى عليه وبعد الاطلاع عليه وقع قبول مطلبي وبقيت مترقبا لليوم الذي يعين لكتب المقالة الفقهية (...) وهذا الامتحان يقع بدار الباي وهي الآن مقر الحكومة التونسية وفيها قسم معد لذلك.

ولما حلّ اليوم الذي عيّن لكتب المقالة زرت القدوة الصالح العالم العارف الشيخ سيدي علي بن زياد



ختم امتحان الدروس بالجامع الأعظم بحضور أعيان الدولة والمجلس الشرعي



محمد المنصف باشا باي في موكب ختم الامتحانات بالجامع الأعظم : (من اليسار الى اليمين) : الشيخ صالح المالقي، المكلف بمشيخة الاسلام المالكية؛ شيخ الاسلام الحنفي، الطيب بيرم؛ شيخ الجامع الأعظم محمد العزيز جعيط؛ محمد المنصف باشا باي؛ محمد الأمين باي؛ والوزراء : الهادي الأخوة، عبد الجليل الزاوش والحبيب الجلولي

وكانت معي إذاك أبيات كتبتها بنية طلب الاعانة من الله على سلوك خط الامتحان فسردتها عند الضريح (...) ولما فرغت من سردها رأيت أن ابقاءها معي ربما يخيل لمن يبصر رقها أنها من بعض متون الفقه (...) فأبقيتها تحت حصير التابوت وذهبت إلى دار الباي فخيرت مكانا قرب المشائخ النظار فجلست فيه فجاء شيخ الاسلام ومن ناب الشيخ باش مفتي وبقية النظار وبعد محاورة في اختيار ما يعين من أبواب الفقه للكتب فيه قرّ رأيهم على كتب مقالة في الاعتكاف وكنت قد أحضرت معي دواة وقرطاسا فتوكلت على الله وكتبت ما نصه (...).

ثم كتبت ذلك نظما (...) وبعد أن وضعت ذلك بظرف كتبت عليه اسمي وأعطيته للوكيل المكلف بذلك (...) وأخذت على المقالة من الأعداد عشرين فقط لمعاكسة القاضي المالكي وقوله إن النظم يحط من المقالة إذ لعليّ مستحضره من قبل. وفي صبيحة اليوم الذي كان ميقات تعيين الدرس لإلقائه صبيحة اليوم بعده (وهو العقبة الثانية من عقبات الامتحان) دخلت البيت التي كتبت فيها المقالة فوجدت المشائخ النظّار وبين أيديهم ظروفا أخذت واحدا وإذا به ما نصه (بسم الله تعلى قد تعين الدخول للامتحان صبيحة غد في درس نحوي هو من الأشموني من قول المتن ينصب مفعولا له المصدر إلى قوله وان شرط فقد).

وفي صبيحة اليوم بعده زرت بعض أضرحة الأولياء رضي الله عنهم ودخلت دار الباي مستحضرا لإلقاء الدرس في الموضوع المذكور وقد كنت من قبل استعنت على تهذيبه ببعض مشايخي حفظه الله.

ولما نودي باسمي دخلت تلك البيت فوجدتها على غاية من الازدحام وقد حضر المشائخ النظار وجل المدرسين من الطبقتين والمتطوعين وجل الطلبة فجلست أمام المشائخ واستفتحت الدرس فقلت [المفعول... (نص ما قاله في هذا الموضوع)] وعند ذلك «دعى» لنا المشائخ المذكورون وانضرفت وأنا على غاية من السرور حيث اني قررت الدرس كما أتمنّاه من الترتيب وجهورية الصوت (...) لكن مع ذلك قال نائب القاضي المالكي عند مفاوضة المشائخ النظار في كم يستحق الدرس من الأعداد إن الدرس يستحق ثمانية ولما سئل عن موجب ذلك وقيل له إن الدرس على غاية من المطلوب قال إن موضوعه سهل وعلى كل حال فقد أخذت على الدرس عشرين كالمقالة ومن ذلك اليوم لازمت تكرار متون العلوم الواقع السؤال منها.





الشيخ محمد العزيز جعيط

شيخ الجامع الأعظم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور محفوفا بالنائبين، الشيخ الشاذلي الجزيري الحنفي (على اليمين) والشيخ علي النيفر، المالكي (على اليسار) والمشائخ المدرسين، على مدرج قصر باردو سنة *1945*

ولما حان يوم دخولي للأسئلة (وصادف أن كان يوم ختم الإمتحان ويحضر فيه الوزير الأكبر وهو سيدي محمد العزيز بوعتور أبقاه الله والباش كاتب وهو سيدي محمد الجلولي ومن يتلوهم من أعيان الدولة وجميع المدرسين والمتطوعين والطلبة) حيث إنه يوم تظهر فيه نتيجة امتحان تلك السنة ويخطب شيخ الاسلام بما يناسب المقام. ولما حضرت أدخِلت مقصورة في آخر تلك البيت وقفل بابها وعندما نودي باسمي خرجت أشق صفوف ذلك الموكب المهيب والعرق قد بل جبيني فجلست أمام شيخ الإسلام وكان عن يمينه وشماله بقية المشائخ النظّار وأهل المجلس الشرعي والوزير الأكبر ومن معه (ثم يذّكر الشيخ عبد العزيز الأسئلة التي ألقيت عليه من طرف المشائخ النظّار وما كان جوابه عنها) ولما خرجت بقيت بصحن العلو لبيت الامتحان ريثما خرج العدل المكلف بإعلام التلامذة بمن حصل على رتبة التطويع وعندما ذكر اسمي رجعت الى محلي بالمرسى (...) وذهبت بعد يومين إلى شيخ الإسلام والشيخ باش مفتي المالكي (...) رأيت منهما كل إكرام (...) ثم اني قابلت سيدي الوزير أبقاه الله فرأيته على غاية من السرور (...) ثم لما قمت لوداعه قام لي فاستوقفني ريثما أوصاني بالمواظبة على إحراز العلوم وقال لي العلم بحر لا ساحل له والإنسان مهما أمكنه اقتناؤه فلا يتكاسل فإنه الفخر الحقيقي»[73].

ـــ **التراتيب التي أحدثت في تلك المدة في نظام التعليم** : رغم انعقاد لجان التفكير في إصلاح التعليم لم يظهر في الفترة الممتدة من 1298 ـــ 1881 الى 1350 ـــ 1932 تغيير ملحوظ في شؤون التعليم الزيتوني فقد اقتصر الأمر الصادر في شوال 1330 ـــ 1912 على تعديلات خفيفة أدخلت على ترتيب أحمد باي (ترتيب 1292) فزاد على الثلاثين مدرسا من الطبقة الأولى مدرسا في القراءات وكذلك بالنسبة للطبقة الثانية فصار عددهم ثلاثة عشر أمّا المتطوعون فلم يغيّر الأمر شيئا في وضعهم حتى اضطرّوا إلى مطالبة الباي بإدخال إصلاحات على حالهم كما ذكرناه آنفا.

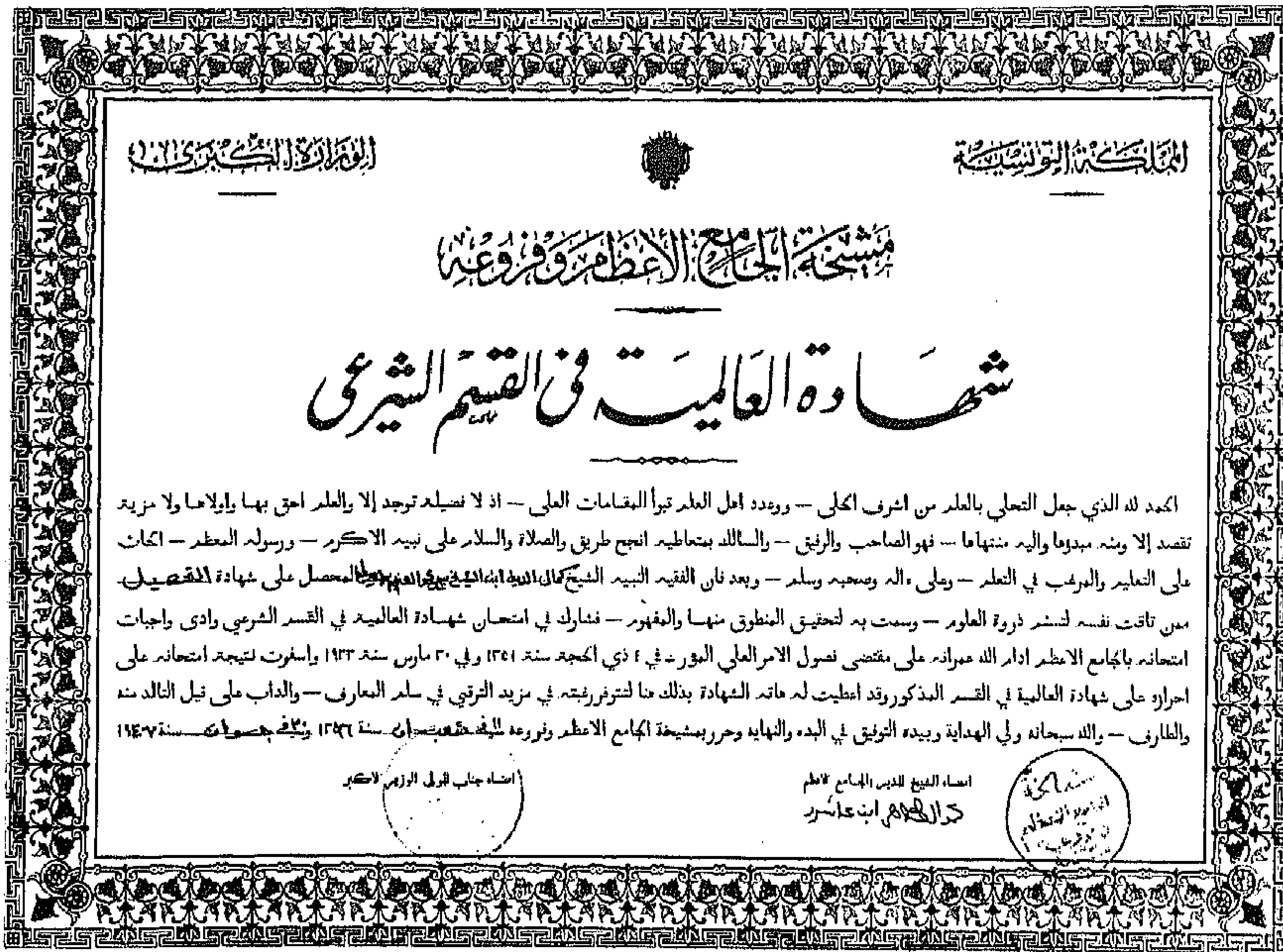
كما ضبط أمر 1330 ـــ 1912 أيام العطل بالنسبة للتعليم الزيتوني فعين للعطلة الصيفية شهرين من 15 جويلية إلى 15 سبتمبر وشهر رمضان ويوم الجمعة وستة أيام بمناسبة العيدين وثلاثة ايام مدة عرفات ويوم 10 محرم وثلاثة أيام بمناسبة رأس السنة الهجرية.

وقد وقع في سنة 1346 ـــ 1927 نقل دروس الدرجة الابتدائية إلى جامع يوسف داي (ثم إلى الجامع الحفصي بالقصبة في 1351 ـــ 1932) أما مكتبة ابن عصفور الواقعة في الجانب الغربي الشمالي من جامع

73) عبد العزيز المسعودي **النشأة الأولى** (ترجمة ذاتية مخطوطة). محفوظة بمكتبة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.



الشيخ محمد الصالح المالقي



المملكة التونسية — الوزارة الكبرى

مشيخة الجامع الأعظم وفروعه

شهادة العالمية في القسم الشرعي

الحمد لله الذي جعل التحلي بالعلم من اشرف الحلى — ووعد اهل العلم تبوأ المقامات العلى — اذ لا فضيلة توجد إلا والعلم احق بها وإيلاءها ولا مزية تقصد إلا ومنه مبدؤها واليه منتهاها — فهو الصاحب والرفيق — والسالك بتعاطيه انجح طريق والصلاة والسلام على نبيه الاكرم — ورسوله المعظم — الحاث على التعليم والمرغب في التعلم — وعلى آله وصحبه وسلم — وبعد فان الفقيه النبيه الشيخ [illegible] المحصل على شهادة التحصيل ممن تاقت نفسه لتسنم ذروة العلوم — وسمت به لتحقيق المنطوق منها والمفهوم — فشارك في امتحان شهادة العالمية في القسم الشرعي وادى واجبات امتحانه بالجامع الاعظم ادام الله عمرانه على مقتضى فصول الامر العلي المؤرخ في ٤ ذي الحجة سنة ١٣٥١ وفي ٣٠ مارس سنة ١٩٣٣ واسفرت نتيجة امتحانه على احرازه على شهادة العالمية في القسم المذكور وقد اعطيت له هاته الشهادة بذلك منا لتتوفر رغبته في مزيد الترقي في سلم المعارف — والدأب على نيل التالد منه والطارف — والله سبحانه ولي الهداية وبيده التوفيق في البدء والنهاية وحرر بمشيخة الجامع الاعظم وفروعه [illegible] سنة ١٣٦٦ [illegible] سنة ١٩٤٧

امضاء الشيخ المدير الجامع الاعظم — محمد الطاهر ابن عاشور

امضاء جناب الوزير الاكبر

شهادة العالمية

الزيتونة فقد خصصت في سنة 1348 — 1929 لإقراء العلوم الرياضية والحساب والهندسة ولما تأسست إدارة مشيخة الجامع تعينت مكتبة ابن عصفور مقرا لتلك الادارة وانتقلت دروس الرياضيات مؤقتا بالمدرسة الخلدونية(74)

التعليم الزيتوني من 1350 — 1376 هـ إلى 1932 — 1956

لقد سبق أن أشرنا إلى حذف النظارة العلمية في 1350 — 1932 (التي تأسست في سنة 1256 — 1842 بمقتضى ترتيب أحمد باشا باي الأول) وتعيين شيخ الاسلام محمد الطاهر ابن عاشور أول شيخ مدير للجامع الأعظم وفروعه ثم صدر في 4 ذي الحجة 1351 — 31 مارس 1933 الأمر العلي في تنظيم إدارة الجامع والتدريس فيه. فجاء فصله الثاني في ضبط وظيفة الشيخ المدير على النحو التالي :

« الشيخ المدير مكلف بصفته نائبا عن الحكومة بادارة الجامع الأعظم وفروعه ويقوم بتنفيذ جميع التراتيب الخاصة بالمعهد المذكور وفروعه وهو مسؤول عن استقرار الهدوء وحفظ النظام به ويخاطب رأسا وحده جناب الوزير الأكبر ».

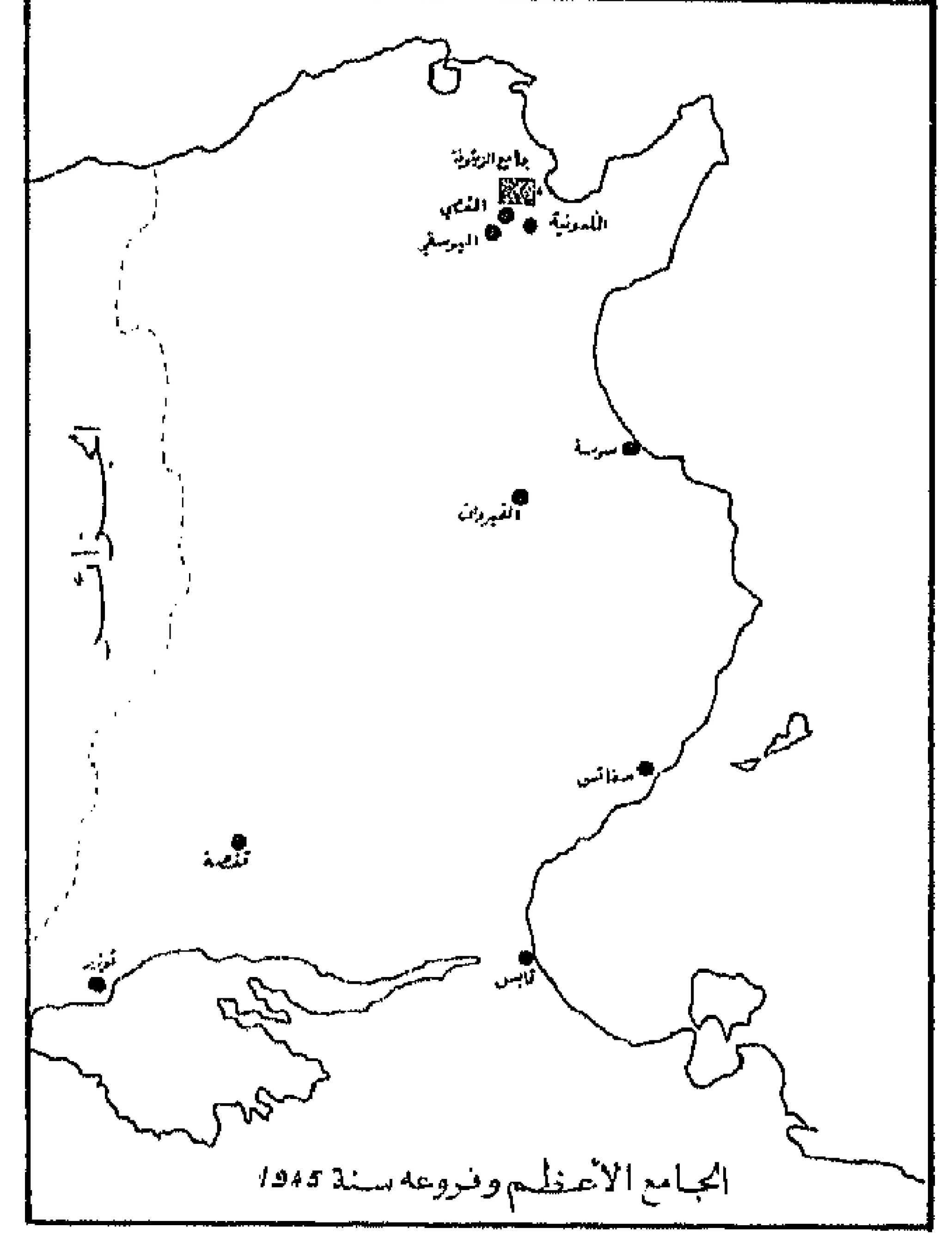
وأحدث هذا الأمر منصبي نائب لشيخ الجامع يعضد كل من النائبين شيخ الجامع في إتمام مأموريته كما أحدث مجلسا سمي مجلس الاصلاح يتركب من وزير القلم والاستشارة بصفة رئيس والشيخ المدير بصفة كاهية ومن شيخي الاسلام الحنفي والمالكي والشيخين القاضيين ومدير جمعية الأوقاف ومدرسين من الطبقة الأولى أحدهما حنفي والآخر مالكي لمدة ثلاثة أعوام وموظف مسلم من طرف الادارة العامة للداخلية.

أما فيما يتعلق بسلك المدرسين فقد أحدث هذا الأمر رتبة جديدة من المدرسين وهي رتبة الأساتذة تتركب من 8 مشائخ من أبرز مدرسي الطبقة الأولى أربعة من الحنفية وأربعة من المالكية(75) ويلي هذا الصنف الأعلى صنف المدرسين من الطبقة الأولى إلّا أن عددهم أصبح 23 باعتبار مدرس القراءات عوضا عن ثلاثين ويليهم مدرسو الطبقة الثانية وعددهم واحد وعشرون (اثنان منهم لعلم القراءات) ثم يليهم المعاونون

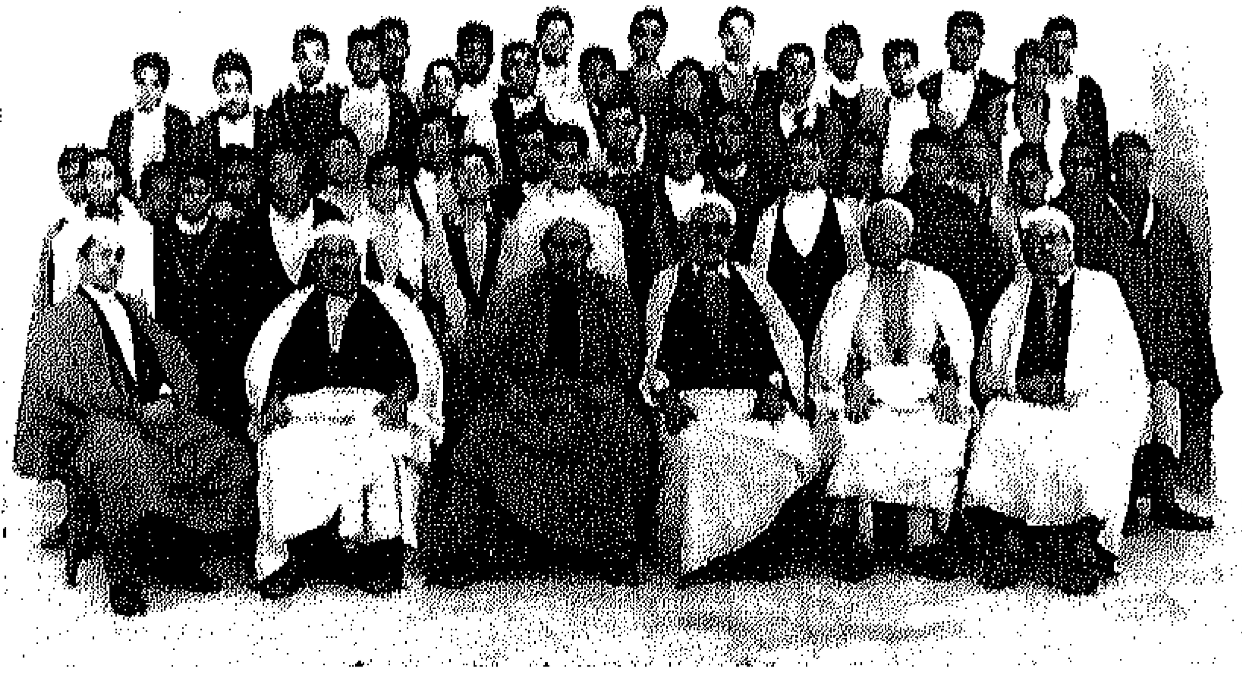
---

74) المقداد الورتتاني **المفيد السنوي**، ص 233.

75) وهؤلاء الأساتذة هم : من الحنفية : الطيّب بيرم، محمد ابن الخوجة، محمد الصالح بن مراد، الصادق المحرزي، ومن المالكية : بلحسن النجار، محمد العزيز جعيط، محمد العنابي، البشير النيفر.



الجامع الأعظم وفروعه سنة 1945 (حسب عبد المولى)



فرع المنستير سنة 1947

(الأمر العلي الصادر في ماي 1928) وعددهم ستون (أربعة منهم لعلم القراءات) وقد أطلق عليهم بعد قليل لقب مدرسين من الطبقة الثالثة ويقع الانخراط في سلك المدرسين والارتقاء في سلمه بطريق المناظرة.

كما أحدث في تلك المدة صنف من المدرسين من الطبقة الثانية يكون الدخول إلى المناظرة لنيل المنصب الشاغر غير مقيد بشرط الانتماء الى نفس المذهب الذي كان عليه المدرس السابق.

فكان حينئذ سلك المدرسين بالجامع الأعظم وفروعه بالعاصمة على النحو التالي في حدود سنة 1354 (1935 — 1936) :

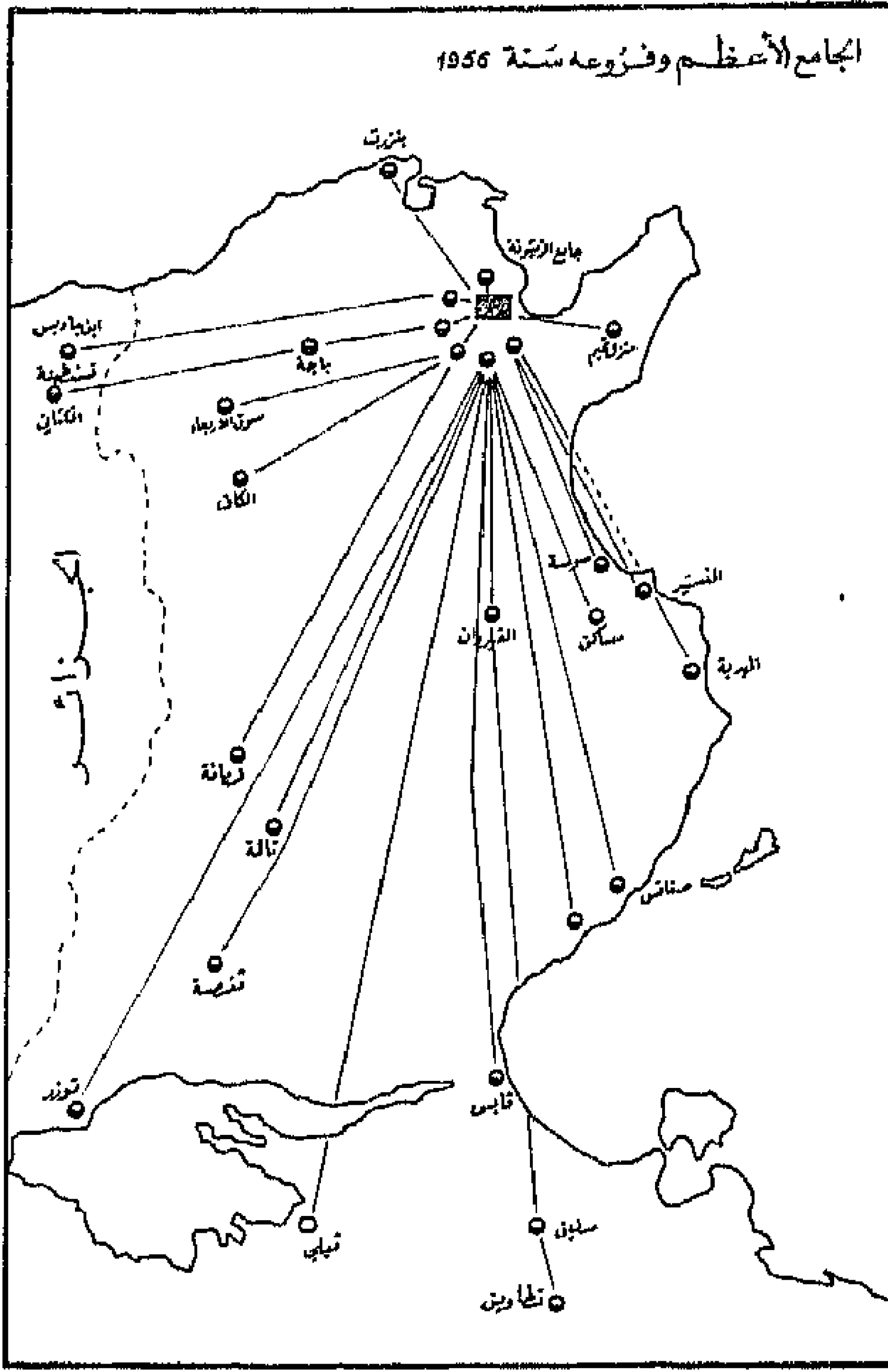
— الأساتذة الحنفية	4
— الأساتذة المالكية	4
— المدرسون الحنفية من الطبقة الأولى	11
— المدرسون المالكية من الطبقة الأولى	11
— مدرس من الطبقة الأولى في علم القراءات	1
— الطبقة الثانية الحنفية	6
— الطبقة الثانية المالكية	6
— مدرس من الطبقة الثانية في القراءات	1
— المدرسون من الطبقة الثانية من غير تخصيص بمذهب	8
— المشائخ المعاونون (أو المدرسون من الطبقة الثالثة)	60
— مدرسو الأحباس الخاصة	4

(اثنان على حبس خير الدين وواحد على حبس صالح خوجة وواحد على حبس الحاج قاسم بن يوسف).

— جملة الشيوخ المتصدرين للتعليم	166[76]

76) المقداد الورتتاني: المفيد السنوي ص 236 — 240.

الجامع الأعظم وفروعه سنة 1956 (حسب عبد المولى)





الفرع الزيتوني بقبلي سنة 1949

أمّا العلوم الرياضية ونحوها فقد تعين لاقرائها مدرسون مسلمون من حاملي الشهادات التي تخولهم التعليم بمدارس الحكومة. وفيما يتعلق بنظام الامتحانات فقد اقتضى الأمر المذكور إحداث ترتيب جديد في سلم الشهادات الزيتونية الذي أصبح على النحو التالي.

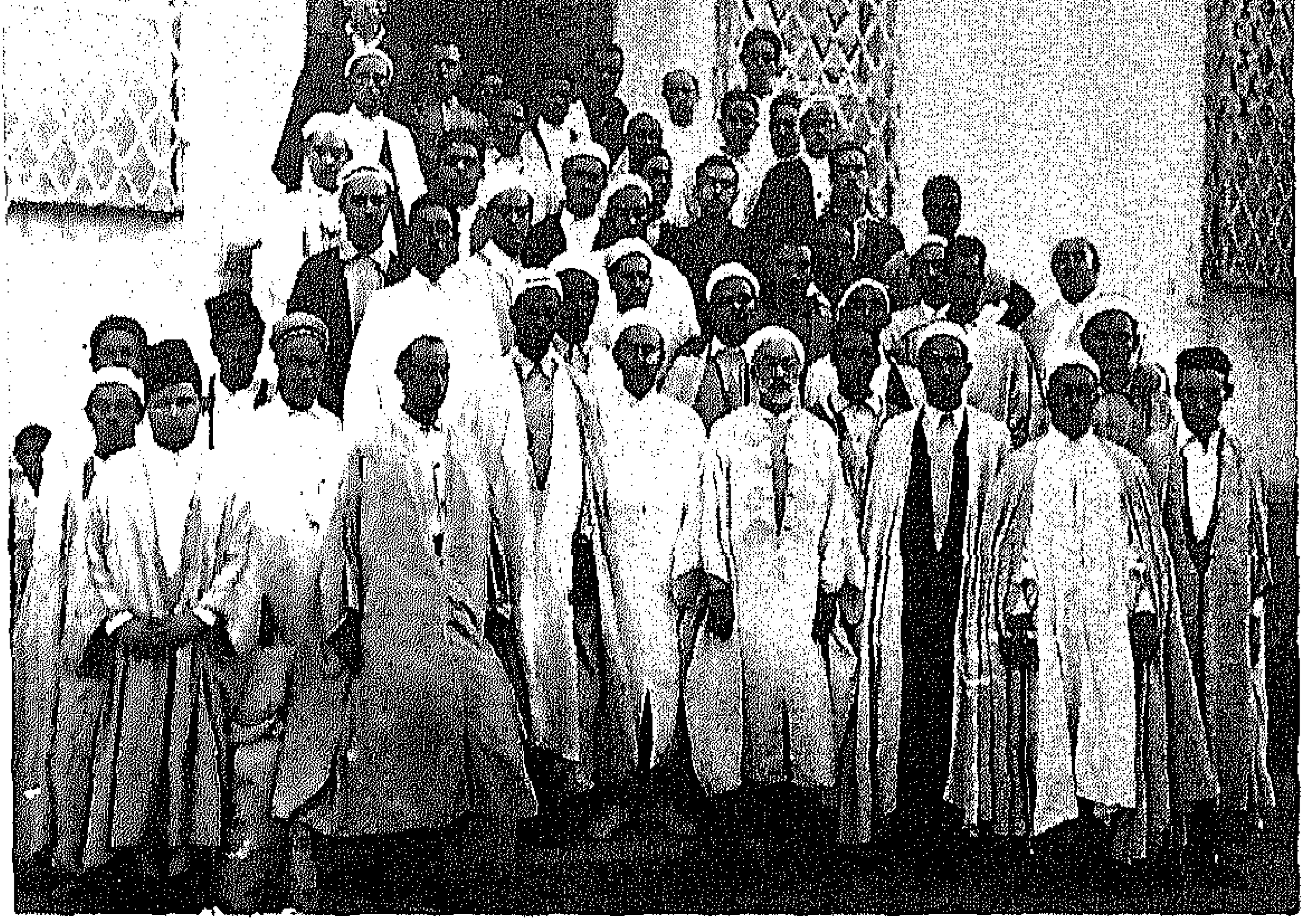
— **شهادة الأهلية** : يتحصل عليها التلميذ إثر المرحلة الابتدائية بعد إجراء امتحان يتركب من تحرير موضوع وإملاء واسئلة شفهية.

— **شهادة التحصيل** : في العلوم والقراءات : عند انتهاء المرحلة الثانوية بعد إجراء امتحان يتركب من تحرير مقالة ودرس وأسئلة.

— **شهادة العالمية** : وهي على ثلاثة أنواع شهادة في العلوم الشرعية وشهادة في الآداب وشهادة في القراءات. ويحرز عليها الطالب الزيتوني في نهاية المرتبة العالية بالنجاح في امتحان يتركب من مقالة ودرس يعطى أربع ساعات لتحضيره ومن امتحان شفاهي.

ومن التحسينات التي أدخلها أمر 1351 — 1933 جعل العلوم العصرية في مرتبة المواد الإجبارية وضبط ترتيب امتحاناتها في سائر المراتب كما أحدث الأمر المذكور حصة استثنائية تجرى في غرة السنة الموالية (اكتوبر) بشرط أن يحصل التلميذ في امتحان شهادة التحصيل والعالمية على نصف العدد المعين في الكتابي والدراسي وقصر عن الاعداد في دور الأسئلة أو أخذ صفرا في أحدها. وقد وقع تنقيح الفصل المتعلق بالحصة الاستثنائية بمقتضى الأمر المؤرخ في 4 رجب 1352 و 11 أكتوبر 1934 الذي أزال الشرط المذكور في أمر 1933 فمكّن من المشاركة في حصة أكتوبر سائر من لم ينجح أو من ثبت عذر تغيبه.

وقد بدأ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بمساعدة ثلة من الأنصار الأوفياء في تخطيط مراحل الإصلاح وتطبيق النظم التي يراها كفيلة بتحقيق الهدف الذي يصبو إليه للخروج بهذا المعهد العظيم من كبوته رغم كل العراقيل والصعوبات إلّا أن الشيخ اضطر لتقديم استقالته في سبتمبر 1933 بعد اضطرابات وقلاقل ظهرت بدون تروّ بسبب دسائس ترمي لمعارضة مواقف الشيخ ابن عاشور، مواقف أتُّهم باطلا باتخاذها فيما يسمى بقضية فتوى التجنيس وهي في الحقيقة قضية اصطنعها زعماء الحركة القومية لأسباب سياسية تكتيكية بحتة بدليل أن الحملة ضد الشيخ وبقية أعضاء المجلس الشرعي بدأت وتفاقمت وحيرت العقول مع أن الفتوى لم تحرر ولم يعلم أحد بفحواها ! وكانت هذه الدسيسة ذريعة للمحافظين من أعيان الزيتونة المناهضين لبرنامج ابن عاشور الاصلاحي فشجعوا المدرسين والطلبة على التشويش والشغب ووقع تعويض



الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وعلى يمينه الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي وحولهما
جمع من طلبة الجامع الأعظم إثر زيارة تأييد وولاء قام بها الشباب الزيتوني الى دار الشيخ بالمرسى



الشباب الزيتوني يحيي الشيخين الطاهر والفاضل ابن عاشور
بمناسبة عودتهما من تركيا في 1951

الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بالشيخ صالح المالقي على رأس جامع الزيتونة وفروعه ثم أبعد من إدارة الجامع وعوض بالشيخ محمد العزيز جعيط الذي قام بأعباء الخطة إلى سنة 1362 (1943).

وفي سنة 1364 (1945) عيّن مرة ثانية الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور شيخا للجامع الأعظم وفروعه وقوبلت عودة الشيخ بحماس فياض من طرف الأوساط الزيتونية والرأي التونسي بصفة عامة واهتز المعهد الزيتوني وفروعه سرورا فانتظمت عدة تظاهرات تكريما وارتياحا لعودة الشيخ بالعاصمة وبداخل الإيالة ومنها الاستقبال الحار الذي خصته به فروع سوسة والقيروان وصفاقس بمناسبة الزيارة التفقدية التي قام بها الشيخ ابن عاشور في ماي 1945 فور تسميته من جديد على رأس إدارة التعليم الزيتوني فانطلقت ألسنة الأدباء والشعراء بالقصائد الحماسية وأنشد تلاميذه أناشيد مؤثرة[77] منها ما أنشده صغار تلامذة فرع سوسة :

— أيها الطاهر أهلا بابن عاشور وسهلا — قد حللت الصفو حلا — وجرى دمع السرور
— أنت للعين ضياء — في اهتداء وارتياء — يا وريث الأنبياء، أنت للمعمور نور
(...)
— فاقبل الشكران منا، كرما منك ومنا — إن رحلت الآن عنّا — انت في نجوى الضمير

واستأنف الشيخ تطبيق برنامجه الاصلاحي فجعل الفروع الزيتونية تحت مراقبة إدارة مشيخة الجامع رأسا بعدما كانت ترجع شؤونها بالنظر الى السلط الشرعية الجهوية ثم وفر لها امكانية تنظيم امتحان **الأهلية**
فانتعشت الفروع بفضل هذه التراتيب انتعاشا اخرجها من الحقود التي مكثت فيه منذ تأسيسها.
سنة 1912. كما زاد الشيخ ابن عاشور في عدد الفروع الزيتونية الذي ارتقى في مدة سبع سنوات (1949 — 1956) من ثمانية الى خمس وعشرين (منها اثنان للفتيات في تونس وصفاقس) وصار عدد تلامذة الزيتونة وفروعها يناهز العشرين ألف تلميذ في حدود 1956.

77) انظر **المجلة الزيتونية** : المجلد السادس 1364 — 1945 الأجزاء 2، 3، 4، 5، 6 و 8.

كما امتدت شبكة فروع الزيتونة إلى القطر الجزائري بإنشاء فرعين بمدينة قسنطينة. ولم ينحصر برنامج ابن عاشور الاصلاحي في البرامج والهياكل التعليمية بل شمل أيضا ظروف عيش طلبة المعهد الزيتوني وقد كان الشيخ واعيا بأن نجاح سياسة الإصلاح والتجديد مقيد بشرط تحسين حياة طلبة الجامع الزيتونة كما صرح بذلك في الخطاب الذي ألقاه في الجلسة العامة للجنة الحي الزيتوني سنة 1364 — 1945.

« ونحن إذا التفتنا إلى الحالة الحيوية الّتي عليها طلبة المعهد الزيتوني نرى فيها من الحرمان والخصاصة والاضطراب أشياء لا يمكن أن يبلغ التعليم حد الاصلاح المطلوب له إلّا بعد تلافيها فإن العدد الأكثر منهم يقدمون على مدينة تونس متغربين عن أوطانهم في سبيل طلب العلم ومن هذه الكثرة التي ينيف عددها على الألفين وخمسمائة تجد نحو النصف مأوى في بيوت المدارس (...) فيلجأون منها إلى بيوت توسعها الضرورة لأكثر مما يسع وضعها الذاتي فقد فقدوا منها مرافق الحياة التي تعدها الحضارة الحالية في الحاجات القريبة من حيز الضروريات ففي بيت ضيق الأرجاء قليل الهواء كثير الرطوبة فاقد الأشعة يقضي ثلاثة أو أربعة من شبان الطلبة حياتهم بين نوم واشتغال بالدرس وخزن للأزواد وإيقاد وطبخ فلا تزال زهرة شبابهم تذوي ومظاهر المرض والكلال تمتلك سحناتهم وآثار الانقباض والكدر تشوش أفكارهم وتنقص من إقبالهم (...) حتى أثر هذا خللا في سير التعليم وانحط بأبناء هذا المعهد عن المستوى الّذى يراد وصولهم إليه بما يقام عليه التعليم من برامج. ومع ذلك فإن هذه الحالة التعيسة التي يقاسيها شطر الغرباء من الطلبة تكاد تعود جنة نعيم في مقابلتها بحالة الشطر الآخر الذي عجزت المدارس عن إيوائه (...) فإن نحو من ألف تلميذ وأكثرهم من تلامذة السنوات الأولى القليلي الخبرة الصغار السن يأوون في مبيتهم إلى المنازل المعدة للغرباء وأبناء السبيل مع ما في تلك الأوساط من الابتعاد عن كل ما تقتضيه حالة الطالب من الملائمات المادية والأدبية ».

ثم قال الشيخ **« من أجل ذلك توجهنا اليوم بعرض هذه الحاجة على مجمعكم الزكي رجاء أن تضيء آراؤكم المشرقة الغاية المأمولة من التوصل إلى إيجاد عمل أتقن وإيضاح مظهر أسمى يكون عنده اجتثاث هذا الداء الاجتماعي من عروقه بإقامة مأوى عظيم مستكمل وسائل الصحة والراحة حتى يكون باعتبار مأوى لطلبة الجامع وباعتبار آخر معلما تذكريا خالدا رامزا إلى ما للأمة التونسية من التعلق بدينها والاهتمام بمستقبل شبابها المهاجر في طلب علومه (...) »**[78] وإثر هذا الاجتماع تشكلت لجنة سميت بلجنة الحي الزيتوني برئاسة الشيخ محمد العزيز جعيط شيخ الاسلام المالكي (وقد كان أول من فكر في الدعوة إلى هذا المشروع) وبعضوية الشيخ حمدة الشريف الإمام الخطيب بجامع الزيتونة ونقيب الأشراف والشيخ محمود محسن الإمام الثاني بالجامع الأعظم والسيد الطاهر بن عمّار كاهية المجلس الكبير والسيد بكّار الخلصي مدير مؤسسة التعاضد المالي والشيخ الطيب رضوان والشيخ محمد الزغواني والشيخ محمد المنستيري[79] والتفّت الأمة التونسية حول هذه اللجنة من أجل تحقيق هذا المشروع وتبرعت الأهالي بالأموال وسعت اللجنة على تحصيل إعانة من الدولة حتى تحققت الأمنية العظيمة ببناء **الحي الزيتوني** خارج باب سيدي عبد الله سنة 1952[80].

وقد حرص الشيخ ابن عاشور على تدارك أوضاع مدارس سكنى الطلبة ريثما يتم انجاز الحي الزيتوني فأحدث سنة 1945 م إدارة المدارس الزيتونية بالعاصمة وعيّن على رأسها المدرس المناضل الحازم الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي وأصدر قرارا في نظام مدارس سكنى الطلبة بالفروع الزيتونية خارج العاصمة في 1946 م وأنشئت مطابخ ببعض المدارس مكنت الطلبة من تناول الطعام ثلاث مرات في اليوم بأسعار زهيدة «إلّا أن هذه التنظيمات وغيرها ظلت مجرد تحسينات جزئية وترميمات على بناء قديم هرم »[81]

78) **المجلة الزيتونية**، المجلد 6 الجزءان 2 و 3 ص 438 — 440 انظر أيضا نفس المصدر المجلد 6 الاجزاء 5، 6، 7 الصفحة الأولى.

79) **المجلة الزيتونية**، المجلد 6 الجزءان 2 و 3 ص 438 — 440.

80) إلّا أن هذا الحي كان غير قادر على ايواء كل الطلبة المهاجرين بحيث استمر الوضع سيئا بالنسبة لعدد كبير من تلامذة الزيتونة، انظر علي الزيدي : **تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية** ص 48 — 49.

81) علي الزيدي : **نفس المصدر** ص 52 — 53.

المجلة الزيتونية

الحركة العلمية

الاستاذ الامام يتفقد فروع جامع الزيتونة

لقد كانت عناية شيخ الجامع الاعظم وفرعه المولى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور باصلاح التعليم بادية من بداية مباشرته لادارة المشيخة ومن مظاهر هذه العناية قيامه بجولة تفقدية في ثلاثة فروع من فروع الجامع وهي فرع صفاقص وفرع سوسة وفرع القيروان ليقف بنفسه على سير التعليم بها وما تحتاجه من اصلاح ورعاية حتى يكون نظام التعليم بها وسيره مطابقا لما في الاصل فتعطى ثمارها كاملة غير منقوصة النضوج

من مظاهر نشاط الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على رأس ادارة التعليم الزيتوني (المجلة الزيتونية. جويلية /أوت 1945)

والسبب في ذلك، كما لا يخفى، ضعف مالية إدارة مشيخة الجامع نظرا لجسامة مشكلة ظروف عيش الطلبة المهاجرين.

وعلى ذكر تلك الصعوبات المالية تجدر الإشارة إلى أن سلط الحماية حاولت تعطيل إنجاز برنامج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بطرق متنوعة منها مقاومة إنشاء الفروع والتضييق في الاعتمادات المالية ومنع الاساتذة التابعين لإدارة المعارف من إلقاء الدروس التي كلفتهم بها إدارة مشيخة الجامع وقد أظهر بالمناسبة العديد من هؤلاء الأساتذة من الشجاعة والتضحية ما يدل على مدى حبهم للوطن ولقضية تجديد التعليم الزيتوني (82). كما امتنعت السلطة من منح تأشيرة الدخول للأساتذة الّذين انتدبوا من مصر، وغير ذلك من وسائل التعجيز.

وقد زاد تفاقم الوضع الظروف السياسية في البلاد وانعكاسها على الأوساط الزيتونية انعكاسا تسبب في اضطرابات داخل الجامع. وتشعبت الأوضاع بسبب تحريض بعض زعماء الحركة القومية الأوساط الزيتونية وبخاصة الطلبة على الهيجان وبسبب تمسك الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بمبدإ عدم الاستجابة لرغبة الأحزاب السياسية فاشتدّ الخلاف بينه وبين الوزارة في سنة 1950 وهي يومئذ بين يدي زعماء الحزب الحر الدستوري الجديد وبخاصة كاتبه العام صالح بن يوسف وزير العدل، خصوصا إثر رفض الشيخ ابن عاشور لطلب تلك الوزارة بطرد بعض الطلبة اعضاء لجنة صوت الطالب المناهضة للحزب. يقول الأستاذ علي الزيدي في هذا الموضوع :

« ولمّا امتنع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور من ذلك كرّس الحزب كل مجهوداته لعزل هذا الشيخ من منصبه وإبداله بآخر يكون أداة مطيعة تستخدم لمقاومة الطلبة والانتقام منهم داخل معهدهم وكانت امتحانات التحدي هي الوسيلة التي استعملت في زعزعة مركز هذا الشيخ ذلك أنه صدر أمرٌ علي يقضي بتأخير إجراء دورة جويلية 1951 م للامتحانات الزيتونية لكن المشيخة أصرّت على عقدها في موعدها باعتبار ان الاستعدادات الكافية قد اتخذت لها. وفعلا أجرى الشيخ ابن عاشور هذه الامتحانات وعندها شن الحزب الدستوري الجديد ضده حملة صحفية قوية تصفه بنعوت وأوصاف هو

82) علي الزيدي : نفس المصدر ص 73.



الحكومة التونسية
الوزارة الكبرى

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

تعيين لجنة من المدرسين للقيام بفهرسة كتب الجامع سنة 1328 — 1910



هـــذا

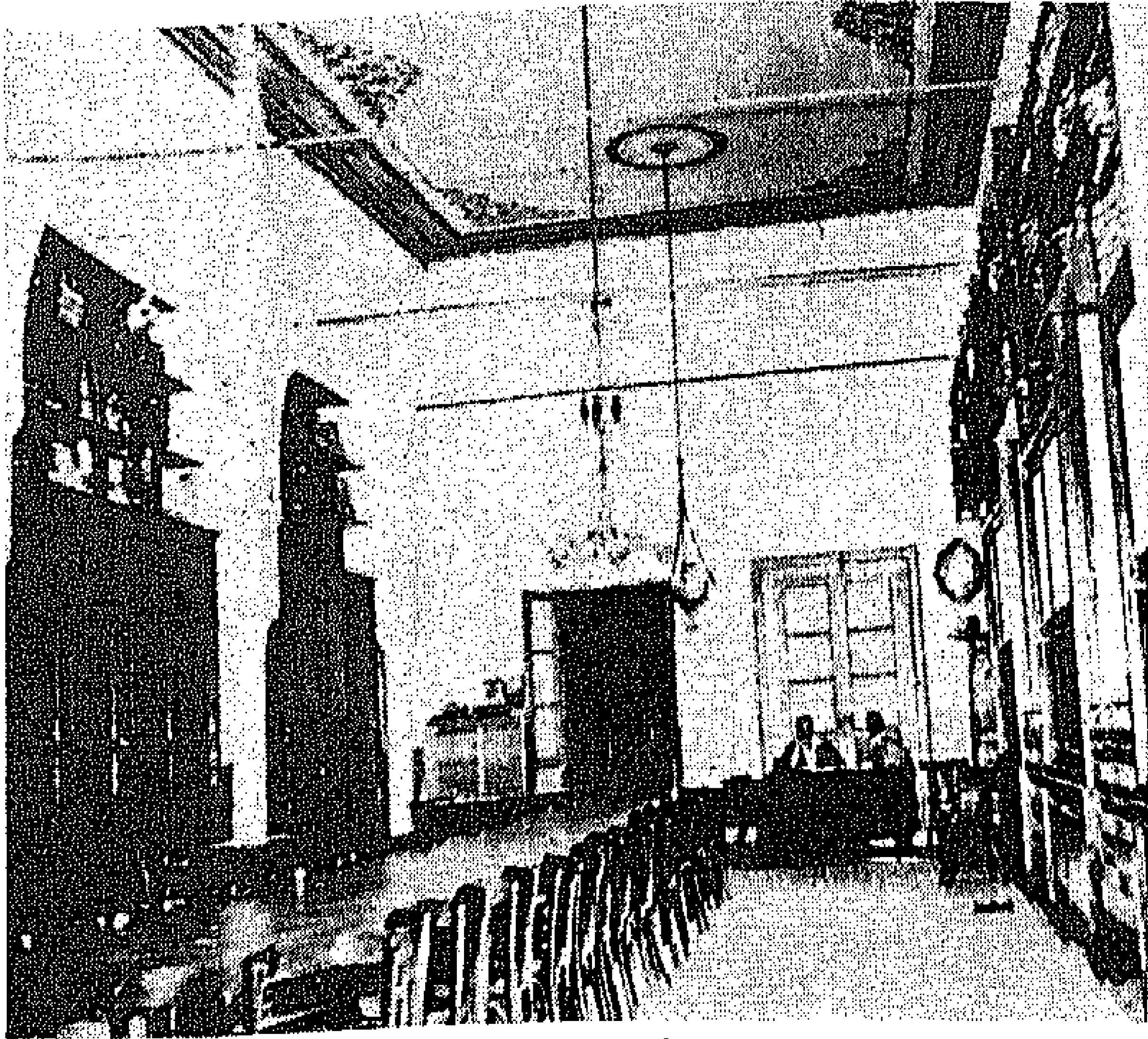
دفتر لرسم اسماء الكتب الموضوعة في خزائن
يسرى المحراب من الجامع الاعظم
عمره الله على اختلاف
فنونها وكيفيات
اجيسها

طبع بمطبعة الدولة التونسية
بحاضرتها المحمية

سنة ١٣٠١

طبعة اولى

الصفحة الأولى من دفتر المكتبة الأحمدية



المكتبة العبدلية

أبعد الناس عنها وطلب بعزله باعتبار أن « داء التعاصي وعدم الامتثال داء وبيل لا دواء فيه إلّا عزل من هبت ريحه عليه »[83].

إلّا أن تلك التهم الباطلة وذلك الأسلوب البذي لم تُخف على أولي الأبصار حقيقة الأمر الذي أوضحته جريدة **النهضة** في افتتاحية عددها المؤرخ بـ 27 رمضان 1370 (1 جويلية 1951) إذ تقول : « **لا يوجد أحد من الفضلاء لا يعلم أن هناك موجة طاغية من الشر والانتقام قد جعلت هدفها منذ حين تلامذة الزيتونة وشيوخها وبصفة عامة كل المعممين ولا يوجد في البلاد من يجهل أن محاولة إسقاط أكبر عمامة تونسية إنما القصد منها إذلال بقية العمائم وإرضاخها للقوة الجديدة...**».

وقد قررت السلطة إبعاد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور عن مباشرة وظيفته مع إبقائه في خطته وتكليف كاهيته الشيخ علي النيفر بإدارة مشيخة الجامع بالنيابة وبعد الاستقلال عاد الشيخ ابن عاشور إلى مباشرة شؤون التعليم الزيتوني بعنوان شيخ عميد للجامعة الزيتونية من سنة 1956 الى سنة 1960 حيث احيل إلى الراحة بسبب موقفه تجاه الحملة التي شنّها النظام القائم يومئذ ضد فريضة الصيام في رمضان.

التراتيب التي أحدثت في تلك المدة في مستوى الشهادات

ساندت الجمعية الخلدونية جريا على عادتها في مناصرة التيار الإصلاحي بالجامع الأعظم برنامج الشيخ ابن عاشور ففي 1365 — 1946 أسست الجمعية (ورئيسها وقتئذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ابن الشيخ محمد الطاهر) معهدا للدراسات العالية باسم **معهد البحوث الاسلامية** وكان طلبة الزيتونة أكثر عناصر الشباب إقبالا عليه. وفي سنة 1366 — 1947 قررت الخلدونية إحداث شهادة جديدة تسمى شهادة **الباكلوريا العربية** القصد منها تهيئة الطلبة للالتحاق بجامعات الدول العربية بالمشرق وإمداد جامع الزيتونة بأساتذة مساعدين ونظمت الجمعية الخلدونية تعليما ثانويا عصريا كاملا باللغة العربية ينتهي بالإحراز على هذه الشهادة. وقد سعت الخلدونية في توفير الأسباب لالتحاق الطلبة بالمشرق حتى بلغ عددهم المائة في مطلع الخمسينات من القرن الميلادي الحاضر.

83) علي الزيدي : **نفس المصدر** ص 143.

وفي نطاق التعاون بين الزيتونة والخلدونية أحدثت إدارة مشيخة الجامع مناصب تدريسية خاصة بالرياضيات والطبيعيات والتاريخ والجغرافيا والفلسفة ينتخب لها أساتذتها بطريق المناظرة من بين خريجي معهد الخلدونية ثم قررت تكوين إرساليات على نفقتها للتخصص في هذه المواد بجامعات الشرق العربي(84).

وبفضل هذه الاجراءات تمكن طلبة الزيتونة من « استكمال عدتهم الثقافية بالجمع بين دراسة الحضارة العربية والاسلامية وبين الدراسة العصرية بأداة الثقافة القومية التي هي اللغة العربية » كما قاله الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور(85).

وما من شك أن أبرز نتيجة تحصل عليها النضال الزيتوني من أجل تعصير تعليم الجامع هو إحداث الشعبة العصرية في سنة 1951. ويتمثل برنامج هذه الشعبة العصرية الزيتونية في الجمع بين تعليم عصري باللغة العربية (مقتبس من المرحلة الثانية من التعليم الثانوي) وتعليم لغتين أجنبيتين الفرنسية والانكليزية. أما الدخول إلى السنة الأولى من تلك الشعبة فكان مقيّدا بشرط النجاح في المناظرة بين حاملي شهادة الأهلية الذين بلغوا درجة المشاركة في اللغة الفرنسية والعلوم العصرية وتختم الدراسة في الشعبة العصرية بالفوز في شهادة **التحصيل العصري** المشابهة للباكلوريا في مرحلتها الثانية. وقد بلغ عدد التلامذة المنخرطين في هذه الشعبة المائة والخمسين بين سنة 1951 و 1957، امتازت نخبة منهم بمنح للتوجه نحو جامعات القاهرة ودمشق وبغداد. أمّا سلك المدرسين فقد تركب من أساتذة التعليم الثانوي التابعين لإدارة المعارف ومدرسين زيتونيين(86).

لباس أهل العلم من النظّار والمدرسين

لقد سبق أن قلنا إن اللباس الرسمي (القيافة) للعلماء المالكية أعضاء المجلس الشرعي لا يختلف عن لباس الأيمة أما بالنسبة للحنفية فالقيافة تتألف من **الملّوسة** أيضا (ولكن شكلها يختلف عن شكل الملّوسة المالكية) ومن **الشان** (مع اختلاف في كيفية وضعه) كما تتألف من قطع ثلاث من الثياب هي : **الجوخة والقفطان والفراجة** (وهذه القطعة الأخيرة لا تلبس إلّا في الشتاء عند الاقتضاء).

وأمّا المدرسون فلباسهم يتألف من الجبة المزينة بأشكال مستديرة منسوجة بالحرير تسمى **السمش** والبرنس الأبيض والعمامة (الكشطة) البيضاء ويقع تعويضها في المواكب الرسمية **بالزمالة** التي وصفناها سابقا.

خزائن الكتب بالجامع الأعظم(87)

قبل أن نختم حديثنا عن جامع الزيتونة بصفته معهدا للتعليم يجدر بنا أن نتعرض إلى ما أنجز في ميدان المكتبات في العهد الحسيني وقد سبق أن تحدثنا على ما قام به أمراء الدولة الحفصية في هذا المضمار.

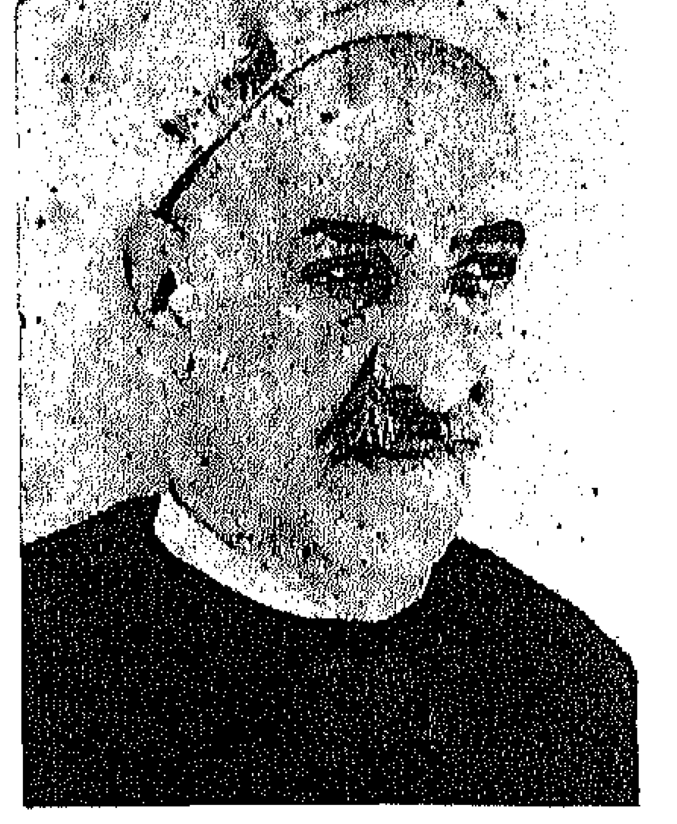
المكتبة الأحمدية : أسسها المشير الأول أحمد باشا باي الحسيني في رمضان 1256 وقد كوّن رصيدها باشتراء سائر كتب الوزير حسين خوجة وغيرها ثم أضاف إليها كتب العائلة الحسينية الموضوعة في باردو وأمر بنقل تلك المجموعة إلى جامع الزيتونة بعد أن حبّسها على طلبة العلم فوضعت الكتب في العشرين خزانة التي أحدثت داخل بيت الصلاة على يمين المحراب ويساره ورتب أحمد باي وكيلين يأتي كل واحد منهما

84) محمد الفاضل ابن عاشور، **الحركة الادبية والفكرية** ص 222 ــ 224.

85) **نفس المصدر** ص 224.

86) انظر أطروحة علي الزيدي : **تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية (1951 ــ 1965)**، تونس 1986 ومحمود عبد المولى **الجامعة الزيتونية والمجتمع التونسي**، تونس 1971، (بالفرنسية) « خصصت بناية بنهج ابن عبد الله للشعبة العصرية ثم بعد 1956 انتقلت إلى معهد ابن رشد ».

87) ابن أبي الضياف **اتحاف**... 4، ص 49 ــ 50 ومحمد ابن الخوجة « كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامع الزيتونة » **المجلة الزيتونية** المجلد 1 ص 71 و 136.



شيخ الادباء الأستاذ محمد العربي الكبادي



الشيخ الزيتوني عبد العزيز الثعالبي، زعيم الحزب الدستوري الأول



الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ جامع الأزهر



أبو القاسم الشابي

إلى الجامع يوما لينيل الطلبة ما يحتاجونه وأباح للمنتفع إخراج الكتاب من موضعه لمدة عام وبعد وفاة العالم الشيخ إبراهيم الرياحي اشترى أحمد باي مجموعة كتبه فحبّسها وضمّها إلى المكتبة الأحمدية التي أصبحت تحتوي على 2696 مجلدا ثم أضيفت إليها كتب أخرى بعد وفاة أحمد باشا باي.

المكتبة الصادقية (وتعرف ايضا بالعبدلية) أسسّها المشير الثالث محمّد الصادق باشا باي سنة 1292 بإشارة من وزيره خير الدين وجعل مركزها بالمحل الذي كانت به المكتبة العبدلية الحفصية بالرواق الشرقي بجامع الزيتونة وقد تكوّن رصيد هذه المكتبة من كتب جمعت من عدة مواضع كالمدارس والمساجد والأضرحة بتونس العاصمة وخارجها وأضاف اليها الوزير خير الدين ألف كتاب من خزانته الخاصة.

أما فيما يتعلق بنظامها فقد تميز على نظام الأحمدية بتحجير إخراج الكتب والاقتصار على الانتفاع بها مطالعةً واستنساخا على عين المكان.

وقد اعتنى من جاء بعد أحمد باشا والصادق باشا من البايات بالمكتبتين الزيتونيتين فحبّس محمد الهادي باي (1902 ــ 1906) كتبا لفائدة المكتبة العبدلية كما قام أحمد باي الثاني بنفس العمل لفائدة هذه المكتبة في سنة 1935 ــ 1936.

ومما لا يجوز إهمال ذكره هنا الدور الذي قام به المحسنون من الرجال والنساء في تزويد خزائن جامع الزيتونة وفضل طريقة التحبيس في تدعيم النشاط العلمي والمحافظة على الكتب. فهذا الوزير محمد خزنة دار المتوفى في 1302 /1884 ــ 1885) أوقف على الجامع خزانتين عامرتين بالكتب المعتبرة وهذا الوزير مصطفى بن اسماعيل (1878 ــ 1881) اشترى كتب الفريق عصمان وحبّسها على جامع الزيتونة.

أما المحسنون من غير الوزراء فعددهم كثير نذكر منهم القائد إبراهيم بن عباس الرزقي والشيخ المختار بن عمر الذي حبّس على الجامع ما انجرّ له من كتب متبنّية الشيخ الأديب المفتي محمود قابادو ومن أصحاب مزية التحبيس لفائدة خزائن كتب الجامع الأعظم الشيخ المدرس الشاذلي بن ضيف والسيدة باهية بنت السعيد التي حبست في سنة 1352 ــ 1933 ألفا ومائتي كتاب إنفاذا لوصية من زوجها الحاج صالح بن عمّار المزابي.



المدرسة الصادقية. السنة الدراسية 1897 — 1898
المدرسون الزيتونيون. من اليسار الى اليمين، الصف الأول (الجلوس) : المشائخ صالح الشاهد، الصادق ابن القاضي، الطاهر جعفر، محمد بن عاشور، احمد النيفر

وبفضل كل ذلك بلغ عدد كتب المكتبة الأحمدية في حدود سنة 1355 — 1936 /7833 كتابا بينما بلغ رصيد المكتبة العبدلية 5808 كتب ومعظم كتب المكتبتين مخطوطة باليد.

وتجدر الإشارة إلى إنشاء المكتبة الفرعية لفائدة طلبة الجامع في سنة 1344 هـ — 1925 — 1926 م (مدة محمد الحبيب باي) وكانت تشتمل على كتب دراسية من طبع مصر وغيرها من البلدان العربية.

ولمّا جاء عهد الجمهورية قررت الحكومة نقل المكتبتين الأحمدية والصادقية من جامع الزيتونة فأنيطت المخطوطات بعهدة دار الكتب الوطنية بينما أعطيت المطبوعات لمكتبة كلية الشريعة وأصول الدين.

قائمة المشائخ النظار والمشائخ المدراء

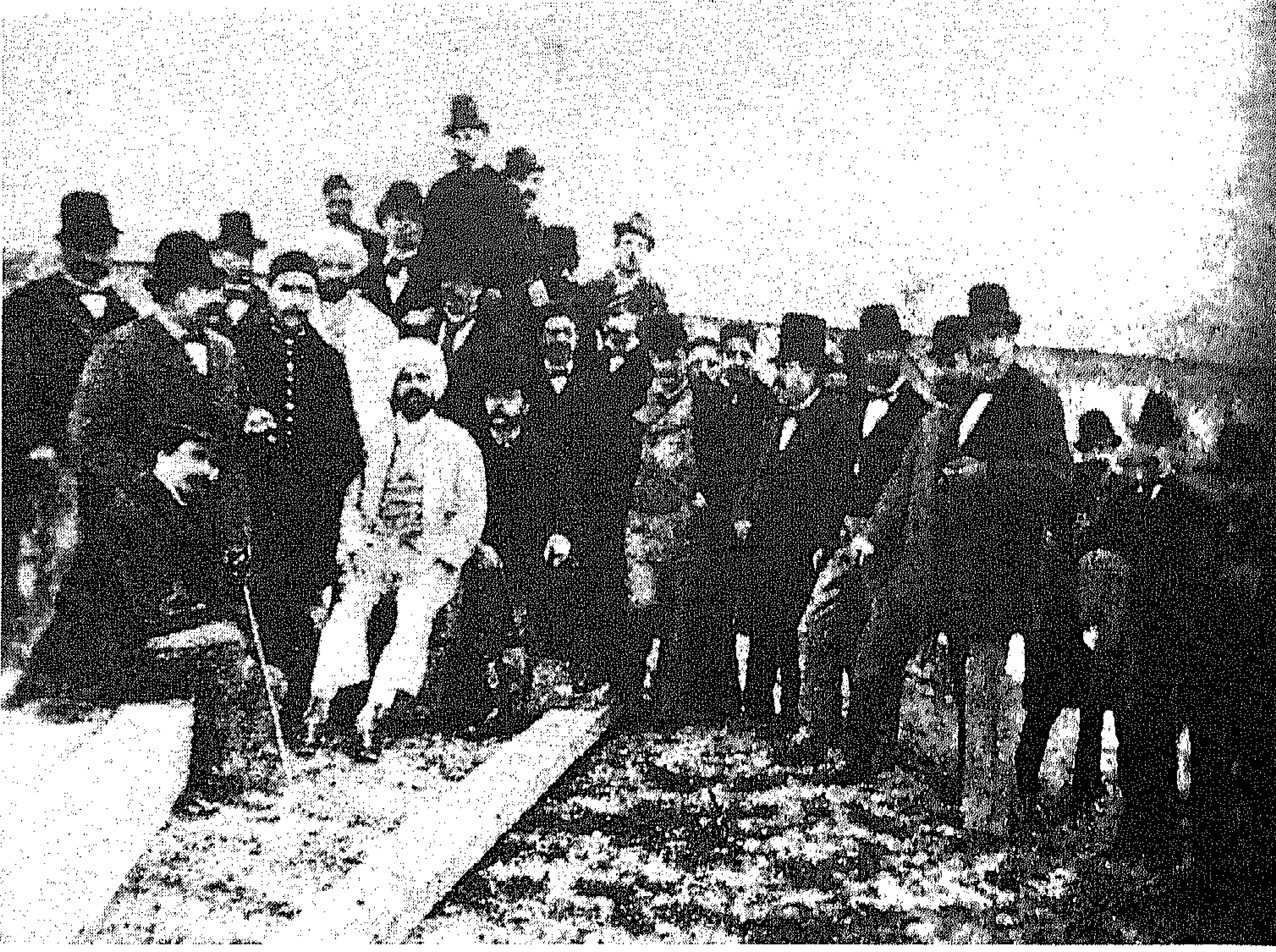
1) أعضاء النظارة العلمية من تأسيسها سنة 1258 — 1842 إلى إلغائها سنة 1350 — 1932.

(وأعضاؤها : شيخ الإسلام الحنفي وباش مفتي المالكية والقاضي الحنفي والقاضي المالكي).

— **مشائخ الإسلام الحنفية** : محمد بيرم الثالث، محمد بيرم الرابع، محمد ابن الخوجة، محمد معاوية، أحمد ابن الخوجة، أحمد كريم، محَمد بيرم، محمود ابن الخوجة، أحمد (حميدة) بيرم، محمد بن يوسف.

— **مشائخ الإسلام المالكية** : إبراهيم الرياحي، أحمد بن حسين، صالح النيفر، الشاذلي بن صالح، أحمد الشريف، سالم بوحاجب، الطيب النيفر، محمد الطاهر ابن عاشور (الثاني).

— **القضاة الحنفية** : محمد ابن الخوجة، محمود بن باكير، مصطفى بيرم، أحمد ابن الخوجة، حسن ابن الخوجة، محمد البارودي، محمد بيرم، محمود بيرم، إسماعيل الصفايحي، محمود بن محمود، محمد ابن القاضي، محمد رضوان، الطيب بيرم.



الشيخ محمد بن مصطفى بيرم، رئيس جمعية الأوقاف مع لجنة شركة هنشير سيدي ثابت وقنصل فرنسا روسطّان سنة 1295 / 1878

ــ **القضاة المالكية** : محمد البنا، محمد النيفر، محمد الطاهر ابن عاشور الأول، صالح النيفر، محمد النيفر، الطاهر النيفر، الطيب النيفر، محمد القصار، الطاهر ابن عاشور الثاني، الصادق النيفر، صالح المالقي.

ــ **المشائخ مدراء الجامع الأعظم وفروعه**

ــ محمد الطاهر ابن عاشور : 1932 ــ 1933
ــ محمد الصالح المالقي : 1933 ــ 1939
ــ محمد العزيز جعيط : 1939 ــ 1943
ــ محمد الصالح المالقي : 1943 ــ 1945
ــ محمد الطاهر ابن عاشور : 1945 ــ 1956.

نواب شيخ الجامع الأعظم من سنة 1933 الى 1956 :

ــ الشيخ محمد دامرجي : 1933.
ــ الشيخ الشاذلي الجزيري : 1933 ــ 1948.
ــ الشيخ محمد بن عاشور الحنفي : 1948 ــ 1956.

النوّاب المالكية :

ــ الشيخ عبد العزيز النيفر : 1933 ــ 1942
ــ الشيخ علي النيفر : 1942 ــ 1956

إسهام التعليم الزيتوني في الثقافة التونسية

لا يعزب على أحد أن دور جامع الزيتونة في بث العقيدة الإسلامية وعلوم الشريعة المحمدية والآداب العربية كان دورا جليلا وأن للزيتونة إسهاما في إشعاع الحضارة الاسلامية تجاوز حدود البلاد التونسية.

أمّا فيما يتعلق بالأحقاب التي سبقت تأسيس المدرسة الصادقية سنة 1292 — 1875، ثم إنشاء المدارس التابعة لإدارة المعارف بعد انتصاب الحماية الفرنسية فإسهام التعليم الاسلامي التقليدي (ويجوز أن نعبر عنه بالزيتوني ابتداءً من ترتيب أحمد باشا باي الأول) أمر بديهي لا فائدة هنا في سرد أسماء الرجالات الذين كرعوا من مناهله وقد ذكرنا عددا كبيرا منهم ضمن هذه الدراسة[88]. غير أنه يتحتم علينا الإشارة إلى إسهام التعليم الزيتوني في الثقافة التونسية بالنسبة للفترة التي ظهرت فيها نماذج تعليمية أخرى وبصفة عامة ابتداء من إحداث إدارة المعارف من طرف السلطة الفرنسية في سنة 1883 التي أخذت تبث في الإيالة التونسية تعليما عصريا فرنسيا — عربيا ينحدر من الأنموذج التعليمي الفرنسي ويجدر هنا التذكير بأن المدرسة الصادقية أصبحت ترجع بالنظر إلى تلك الإدارة.

قد يدرك المتأمل في قائمات النخبة التونسية المثقفة في غضون القرن العشرين جسامة الإسهام الزيتوني في حضارة البلاد كما يلاحظ قدرة التعليم الزيتوني — رغم المشاكل التي كان يتخبط فيها — على تكوين نخبة متضلعة لا في العلوم الدينية فحسب بل وفي العلوم الأدبية واللغوية.

ففي العلوم الدينية والشرعية برز نحارير من علماء المذهبين الحنفي والمالكي أمثال المشائخ المالكية سالم بو حاجب، ومحمد الطاهر النيفر، ومحمد النجار، ومحمد النخلي، ومحمد العزيز جعيط، والبشير النيفر وغيرهم، والمشائخ الحنفية : أحمد (حميدة) ابن الخوجة وأحمد كريم ومحمد بن يوسف. كما أعطى جامع الزيتونة للبلاد التونسية وللأمة الاسلامية عالما متبحرا مجددا هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وهو بلا ريب أزخر الزيتونيين إنتاجًا في علوم الدين وفي علوم العربية. ألّف تفسيرا كاملا للقرآن الكريم في ثلاثين جزءا سماه **التحرير والتنوير** كما ألف كتاب **مقاصد الشريعة الاسلامية** و **شرح ديوان بشار** و **ديوان النابغة** وغيرها.

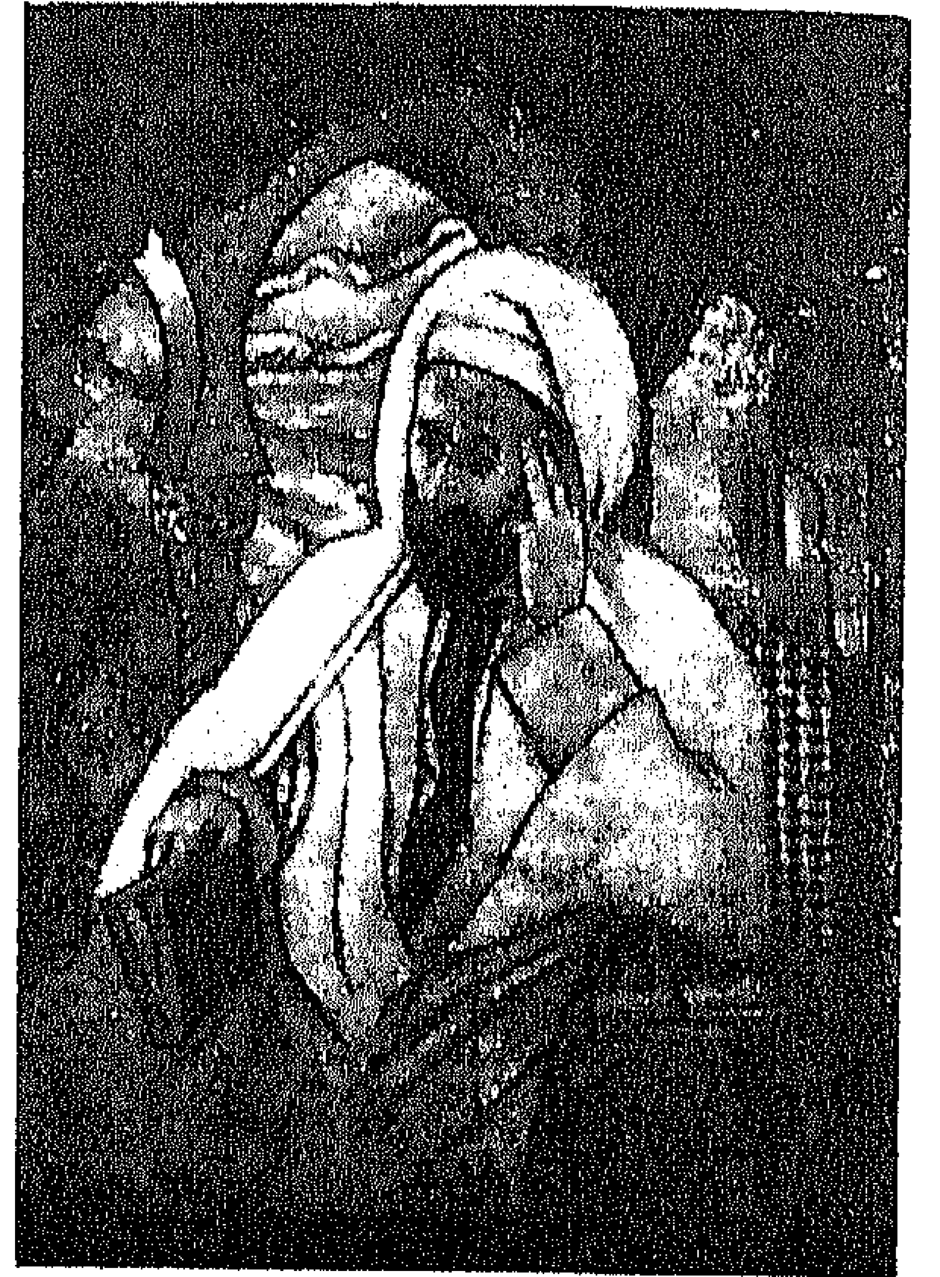
أمّا في ميدان اللغة والأدب فقد أحرزت الزيتونة قصب السبق حيث استمرت تقوم بدور لا مثيل له في إشعاع الحضارة العربية بالديار التونسية ناهيك بذكر مشاهير الشعراء والأدباء أمثال أبي القاسم الشابي والعربي الكبادي ومحمد ماناشو وأبي الحسن بن شعبان ومحمد الهادي المدني والطاهر القصار ومصطفى خريف والخطباء أمثال عبد العزيز الثعالبي ومحمد الصالح المهيدي ومحمد بوشربية في الميدان السياسي، ومحمد الطاهر ابن عاشور ومحمد الخضر حسين وأحمد (حميدة) بيرم ومحمد الفاضل ابن عاشور بالنسبة للخطابة العلمية كما برز من الزيتونيين في ميدان المقال السياسي المنصف المنستيري ومحي الدين القليبي والهادي بن الناصر.

وقد كانت النخبة الزيتونية تواكب العصر ويشارك أفرادها في كل النضالات الاجتماعية والسياسية فلا بد أن نذكر في هذا المجال الدور الذي قام به الطاهر الحداد في الدفاع عن القضية العمّالية واهتمامه بوضع المرأة من خلال كتابيه **العمال التونسيين** و **امرأتنا في الشريعة والمجتمع**. وأثار ظهور هذا الكتاب الأخير في سنة 1348 — 1930 غضب الأوساط الزيتونية والتونسية بصفة عامة وتعرض الطاهر الحداد إلى تهجمات قاسية في الصحافة وغيرها ولم يناصره إلا القليل، منهم **مجلة العالم الأدبي** و **جريدة الزمان**.

وفي الختام ينبغي أن نلفت انتباه القاري إلى أن ذكر تلك الذوات من الزيتونيين (وهو، طبعًا، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر) لا نرمي من خلاله إلى تأييد نظام تعليمي ظهرت مساويه جلية منذ زمن بعيد كان الزيتونيون أنفسهم في طليعة المكافحين من أجل إصلاحه وإخراجه من الانحطاط بل قمنا بذلك على سبيل الأمانة العلمية فبعد الحديث عن الجوانب السلبية للتعليم الزيتوني يكون من الضروري ذكر جوانبه الايجابية وهي قيام الزيتونة بدور كبير في إشعاع الدين الاسلامي وترسيخ الثقافة العربية في عصر اتصف بالتحديات والأخطار، وتكوين نخبة إسلامية وعربية يجب علينا وعلى الأجيال المقبلة الاعتزاز بها اعتزازا لا ينسينا العدد المرتفع من ضحايا الأسلوب التربوي الزيتوني.

---

88) نحيل القارىء إلى بعض الدراسات التي اعتنت بهذا الموضوع وبتراجم العلماء التونسيين في المجالات العلمية والأدبية كـ **المجلة الزيتونية** و **الثريا** : **ومن بين كتب التراجم التونسية إتحاف أهل الزمان ومسامرات الطريف وعنوان الأريب** لمحمد النيفر **وشجرة النور الزكية وتراجم الاعلام** للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور تونس 1970 وغيرها.



الشيخ عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس (1305 — 1359 / 1887 — 1940)، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر



الأستاذ مبارك بن محمد الميلي، عضو بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

اقتبال المجلة الزيتونية للشيخ عبد الحميد بن باديس

حل بتونس في اوائل شهر شوال المنصرم حضرة العالم العامل الفاضل الشيخ عبد الحميد ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر . ومنشىء مجلة الشهاب الغراء . فاقتبل بما يليق به من التعظيم والتبجيل . لاسيما من علماء جامع الزيتونة الذين لهم به اتصال متين . وارتباط تكون من عهد مباشرة الشيخ بن باديس التعلم والتعليم بجامع الزيتونة . وناهيك بروابط كونتها حلق الدروس في جامعنا المعمور . تلك الروابط التي لا يزيدها مرور الايام الا قوة واحكاما

وقد اقيمت له عدة احتفالات من طرف عدة هيئات علمية وادبية . واغتنمها الشيخ فرصة ليعبر عن حنينه لجامع الزيتونة واشتياقه للبلاد التونسية . وتصريحه في كل تلك المواطن بان منبع السعادة والهداية في هذا الشمال الافريقي هو جامع الزيتونة عمره الله . وانه المنبع الفياض الذي تصدر عنه كل حركة علمية او اصلاحية . حيث يتخرج منه رجال اتقنوا علوم الدين والدنيا . وساروا في اعمالهم على منهاج الشريعة الاسلامية . التي لا يمكن ان تنجح في اي عمل نقوم به الا اذا سرنا على ضوئها . ذلك المنهاج الذي لا يمكن ان يقود هذه الامة او يتزعمها الا من حافظ عليه . وسار في سبيله . وكل من انحرف عنه قيد شبر وجب ان ينبذه المسلمون بالعراء . وان لا يتركوا له حق التصرف في اي شان من شؤونهم ولو كان حقيرا . ومما يزيد في قيمة هاته التصريحات انه جاهر بها بعد ما اختبر الناس وشاهد ما ينطوي عليه الكثير ممن يتزعمون الحركات العامة وليس لهم رسوخ في الدين من التلاعب والعبث وبيع الذمم بابخس الاثمان .

وقد اغتنمت هيئة المجلة الزيتونية فرصة قدوم الشيخ لتونس . فارادت ـ تنفيذا لما اسست له من تقوية اواصر المودة بين اقطار الشمال الافريقي ـ ان تحتفل بالقطر الجزائري الشقيق في شخص الشيخ . فاقامت له حفلة تكريم بادارة المجلة عشية يوم الاحد ١٣ شوال حضرها بعض اعيان علماء جامع الزيتونة . ثم اقامت له بمشاركة جمعية الزيتونيين من الغد عشاء في اكبر مطعم من مطاعم الحاضرة . ووقع في اثناء ذلك الخوض في عدة مواضيع تحوم حول تقوية الروابط العلمية بين الجزائر وتونس . والاكثار من تبادل الزيارات بين هذين القطرين الشقيقين وغيرهما من بقية اقطار الشمال الافريقي (المغرب وطرابلس) كما وقع التحدث عن مناهج الاصلاح الديني وواجب العلماء نحوه . والفوارق الموجودة بين الجزائر وتونس في ميدان هذا الاصلاح . مع التنبيه الى ان واجب العلماء هو الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة . حتى لا تعود تلك الحركة على موضوعها بالنقض . ويفضي التشدد في السنة الى اهمال الفرض . وفي يوم الثلاثاء ١٥ شوال رجع الشيخ الى الجزائر صاحبته السلامة . في الظعن والاقامة اهـ

اقتبال المجلة الزيتونية للشيخ عبد الحميد ابن باديس سنة 1937

دور المشائخ الزيتونيين في تكوين تلامذة المدرسة الصادقية

ممّا لا يجوز نسيانه في هذا المجال دور الزيتونة في ترسيخ الحضارة الاسلامية وعلوم العربية في أذهان تلامذة المدرسة الصادقية ترسيخا كان له التأثير الكبير في شحذ شعورهم الوطني فقد كانت دروس أشهر العلماء الزيتونيين الذين يدرسون بالمدرسة الصادقية إلى جانب قيامهم بالتدريس بالجامع الأعظم أو بأعباء بعض الوظائف الشرعية (محمد ابن القاضي، محمد الطاهر ابن عاشور، محمد العزيز جعيط، محمد الفاضل ابن عاشور...) عبارة على حصص مؤثرة يشعر فيها التلامذة عند اكتشاف تاريخهم المجيد وأدبائهم العباقرة باعتزاز كبير لانتائهم للحضارة العربية الاسلامية.

وما من شك أن لعلماء الزيتونة قسطا وافرا في نجاح مشروع الوزير خير الدين لتأسيس المدرسة الصادقية سنة 1281 ــ 1875 إذ أنيط بعهدتهم القيام بمعظم الدروس (ما عدى الحساب واللغات الأجنبية) وقد اظهر هؤلاء المشائخ في اداء رسالتهم التثقيفية الجديدة حماسا كبيرا ساعد تلك المؤسسة المدرسية الفتية على التمركز والاستمرار.

إسهام خريجي الزيتونة في تسيير هياكل الدولة التونسية الحديثة

لقد قام الموظفون السامون من الزيتونيين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدور هام في تسيير شؤون الدولة التونسية على غرار ما قام به منذ العصر الحسيني الأول علماء وفقهاء أمثال الشيخ حمودة بن عبد العزيز في عهدي علي باشا باي وحمودة باشا باي والمؤرخ الشهير الشيخ الأكتب أحمد ابن أبي الضياف.

ففي سني التدهور التي سبقت انتصاب الحماية الفرنسية كان معظمهم من الحريصين على استمرار الدولة والإدارة ولما أخذ الوزير خير الدين ينجز برنامجه الاصلاحي في 1873 كان هؤلاء الموظفون الزيتونيون البارعون أحسن مسانديه. وبعد انتصاب الحماية ساهم كبار الموظفين الزيتونيين في برنامج إحياء الهياكل الإدارية بعد اضمحلالها وقد كان لوجودهم ضمن الإدارة العليا أثر كبير في صيانة الكيان العربي التونسي في النظام الاداري الجديد ونذكر من بين هؤلاء الموظفين الزيتونيين البارزين الشيخ محمد بن مصطفى بيرم المشهور ببيرم الخامس، صديق الوزير خير الدين وعضده في برنامج تعصير وإعادة تنظيم الإدارة الحسينية فهو أول رئيس لإدارة الأوقاف (جمعية الأوقاف) والحارس الغيور على مصالحها. والباش كاتب وزير القلم والاستشارة ثم الوزير الأكبر الشيخ محمد العزيز بوعتور الذي ساند هو أيضا الوزير خير الدين ثم ذاق الأمرين في عهد الحماية بالقيام بأعباء خطة سياسية خطيرة وتحمل ما لا يتحمله إلا القليل، بغية الدفاع على بقايا الكيان التونسي ضمن إدارة الحماية، والوزير الشيخ يوسف جعيط الذي قام بدور هام في تحرير القوانين المنبثقة من **عهد الأمان** (1857) ثم ترأس قسمين هامين من الأقسام الادارية والعدلية قبل أن يرتقي إلى وزارة القلم والاستشارة ثم الوزارة الكبرى. والأديب المؤرخ الشيخ الباجي المسعودي والشيخ محمود بوخريص كاهية باش كاتب والشيخ أحمد الورتتاني رئيس جمعية الأوقاف والعالم والأديب الشيخ حمودة تاج أحد أعيان رؤساء الأقسام بالوزارة في مطلع هذا القرن، وغيرهم من الزيتونيين أصحاب الأيادي البيضاء في تسيير شؤون الإدارة التونسية.

كما قام الزيتونيون بدور جسيم في الهياكل العدلية غير الشرعية بالعاصمة وبداخل المملكة فلمّا تأسس مجلس الجنايات والأحكام العرفية سنة 1277 — 1860 كان كل أعضائه باستثناء الرئيس الأول أمير اللواء فرحات، من المشائخ الزيتونيين كالشيخ صالح النيفر والشيخ أحمد كريم والمشائخ محمد المازري بن مسعود ومحمد الطاهر النيفر ومحمد البارودي والطيب السبعي وغيرهم. وكان الأمر كذلك بالنسبة لمجلس التحقيق المؤسس في ذلك العام ايضا، ثم تعين الشيخ صالح النيفر رئيسا لمجلس الجنايات ولما طلب الإعفاء من تلك المسؤولية تقدم كاهيته الشيخ العالم أحمد كريم لرئاسة هذا المجلس. ولما تأسست المحكمة العقارية المختلطة سنة 1885 كانت جلساتها تزخر بتبادل النظريات القانونية بين أعضائها التونسيين من فقهاء الزيتونة والفرنسيين من كبار الحقوقيين. وقد اعتمدت وزارة العدل على الزيتونين من مدراء المصالح ورؤساء المحاكم وأعضائها أمثال محمد القلعي والعروسي الحداد ومحمد بن عمّار والورتتاني ومحمد جعيط وموسى الكاظم ابن عاشور وغيرهم.

وبعد الاستقلال أنيط برنامج تونسة العدالة بعهدة خريجي الزيتونة من إداريين وحكّام بحيث صارت وزارة العدل أكثر الهياكل التونسية المعتمدة على إطارات عالية تكوينهم عربي زيتوني بحت.

صلة الجزائريين بجامع الزيتونة

لجامع الزيتونة سمعة تجاوزت البلاد التونسية حتى أنها بلغت إلى سائر الأقطار الاسلامية.

ولئن كانت الزيتونة يقصدها منذ القدم علماء وطالبو علم من المشرق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية فإن للقطر الجزائري الشقيق مكانة خاصة تتمثل في الصلة العريقة والمتينة بين أبنائه والجامع الأعظم بالعاصمة التونسية. فكانت رحلاتهم قصد الكرع من مناهله متتالية وقد زادت كثافتها في عهد الاستعمار لأن فرنسا لما احتلت الجزائر أخذت تشن حربًا قاسية ضد مقومات الشعب الجزائري في المجالين الاسلامي والعربي. وأمام هذا العدوان الثقافي سرعان ما شعر ذوو الآراء الحصيفة من أبناء الجزائر بضرورة الاحتماء بالمعاهد الإسلامية خارج بلادهم لصيانة ما تبقّى من كيانهم الاسلامي — العربي وحمايته من الأخطار المحدقة به داخل الوطن المحتل. وكانت الزيتونة من أهم تلك الحصون الحامية. يقول الشيخ علي مغربي عضو المجلس الاسلامي الأعلى بالجزائر : « **كانت الزيتونة المباركة لأبناء الجزائر الأم الرؤوم يوم ابتلوا بعدو لا يرحم، هدّم المساجد وأغلق المدارس والمعاهد وحارب دين الأمة ولغتها بعدما جردها من عزتها ودولتها. ففتحت تونس صدرها الرحب لأبناء الجزائر كي ينهلوا من معينها العذب جامع الزيتونة** »(89) فأخذ عدد

---

89) : « الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والصلات العلمية بين تونس والجزائر » **ملتقى حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور**، الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين تونس 1985.

الطلبة الجزائريون بالجامع الأعظم يزداد بصفة مستمرة.

وقد برز من بين هؤلاء الطلبة المهاجرين لأجل العلم نبغاء من أجلّ العلماء استضاء بهم الشعب الجزائري في ظلمة الاستعمار كمثل الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي هاجر سنة 1908 من مسقط رأسه قسنطينة الى تونس للكرع من مناهل الزيتونة فأخذ عن كبار علمائها كالشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور. يقول الشيخ ابن باديس « **وإن أنس فلا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور. (...) فقد حببتني في الأدب والتفقه بكلام العرب وأحسست من الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالاسلام** »[90] ولما رجع الشيخ ابن باديس إلى وطنه كان أول ما فكر فيه من العمل تأسيس معهد يدرس فيه الدين والثقافة الاسلامية واللغة العربية (وهذا المعهد هو الجامع الأخضر). وكان الشيخ يحث النجباء من طلبة هذا المعهد على مواصلة تعليمهم في جامع الزيتونة أو غيره من المعاهد الاسلامية بالمغرب أو بالمشرق.

ومن العلماء الجزائريين الذين تخرّجوا من الزيتونة وساهموا في تدعيم الحركة العلمية بالجزائر الشيخ مبارك الميلي والشيخ الزاهري والشيخ خير الدين. فكانوا من اعضاء **جمعية العلماء المسلمين** التي تأسست سنة 1931 برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس.

أما فيما يتعلق بحياة الطلبة الجزائريين بتونس فقد كان لهم دور هام في الحركة الطلابية والثقافية وفي تدعيم الصلة بين الزيتونة والجزائر الشقيقة. ومن مظاهر نشاطهم تأسيس **جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين** سنة 1933. ولم تقتصر هذه الجمعية على مجرد نشاط ودادي او تعاوني بل ساهمت في توفير أسباب انتشار التعليم الزيتوني وتمهيد السبيل للراغبين في الالتحاق به من الجزائريين ففي سنة 1947 أقامت الجمعية بمقرها الكائن بنهج عبد الوهاب حفلا تكريميا لرئيسها الشرفي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وأثناء هذا الحفل قرأ رئيس الجمعية الشاب عبد الرحمان شيبان رسالة من الشيخ البشير الابراهيمي رئيس **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين** موجهة إلى شيخ الجامع الأعظم وفروعه يعلمه بعزم الجمعية على فتح معهد علمي بقسنطينة يحمل اسم ابن باديس ويرجو منه أن يعترف بهذا المعهد ويعتبره فرعا من فروع الزيتونة يتبع نظامها العلمي ويجرى على طلبته الامتحان مثلها وتكون شهادته العلمية معادلة لشهادة الفروع الزيتونية ففرح الشيخ ابن عاشور لهذا واعلن في الحين قبول ما عرض عليه[91].

وكان لتأسيس هذا الفرع الزيتوني الجديد دور هام في تكوين الناشئة وتمهيد السبيل لمزاولة الدراسة بالمعاهد العليا كجامع الزيتونة وغيره من الجامعات الاسلامية وقد تخرج بفضل هذا العمل الجليل جيل جديد من حاملي الشهادات العلمية العالية كانوا كما قال الشيخ علي مغربي « **مددا وذخرا عظيما وجدته الجزائر يوم ان تحررت وطردت الدخيل من ترابها، اعانوا على احياء العربية والثقافة الاسلامية بوطنهم** »[92].

---

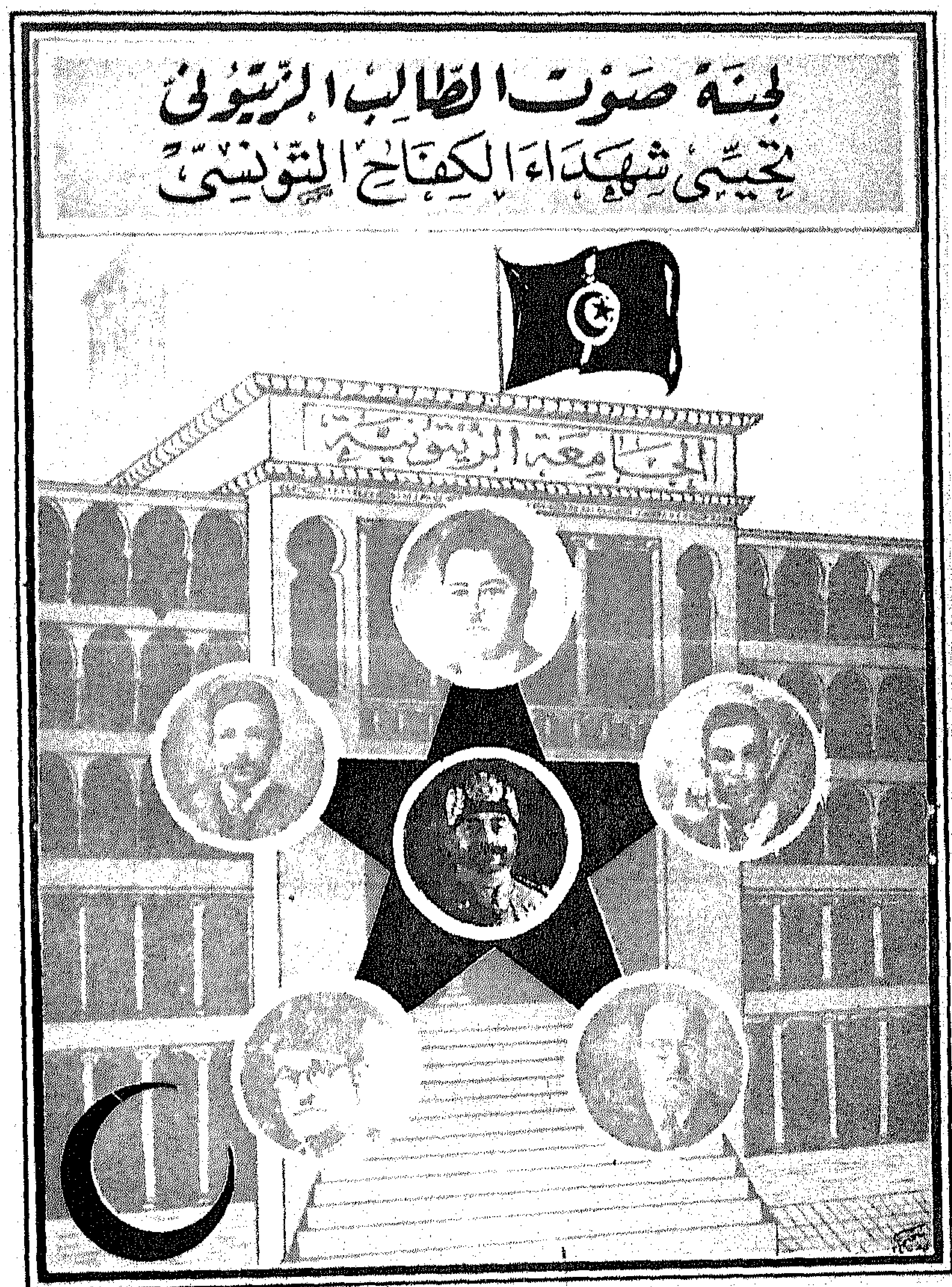
90) نفس المصدر، انظر ايضا : « اقتبال المجلة الزيتونية للشيخ عبد الحميد بن باديس » **المجلة الزيتونية** المجلد 1 الجزء 5 ص 262.

91) علي مغربي : نفس المصدر.

92) علي مغربي : نفس المصدر.

القسم الرابع

الحركة الزيتونية في النصف الأول من القرن الميلادي العشرين


لجنة صوت الطالب الزيتوني
تحيي شهداء الكفاح التونسي
الجامعة الزيتونية



محمد بن عثمان السنوسي
(1900 — 1851 / 1308 — 1267)

أدخل العصر الحديث الموصوف في بلادنا بالوضع الاستعماري تغييرات هامة في مستوى التفكير والعمل شملت الوسط الزيتوني وبعثت فيه حيوية كبيرة. لقد خرج جامع الزيتونة من دوره التقليدي في الانكباب على العلوم الدينية والعربية والكرع الخاشع من مناهل السلف فبلغ إلى مرتبة مركز من أبرز مراكز الحركة الفكرية والاجتماعية والسياسية في البلاد التونسية. ولا شك أن أقوى دليل على دخول الوسط الزيتوني في معترك الحياة العصرية هو ظهور الحركة الطلابية وعزم تلامذة الجامع على النضال من أجل تحسين ظروف عيشهم وإصلاح طرق تعليمهم وضمان آفاق مستقبلهم، كما عقدوا العزم على الكفاح من أجل الحرية. فاستعملوا لكل ذلك وسائل الاحتجاج العصرية كالاضرابات والمظاهرات والعرائض وعقد المؤتمرات وقد بلغ هذا النشاط أوجه بإحداث منظمة طلابية نقابية سنة 1950 وهي « لجنة صوت الطالب الزيتوني ».

ومن أهم نتائج احتكاك الزيتونة بالعصر الجديد إحياء النزعة الإصلاحية من طرف بعض المشائخ المدرسين بعد خمودها غداة تجربة الوزير خير الدين وكانت نظرتهم الإصلاحية منحدرة من التيّار الإصلاحي التونسي الذي قاده خير الدين، كما كانت متصلة بحركة النهضة الإسلامية في المشرق وبخاصة الحركة السلفية.

أما في الميدان السياسي فقد قام الوسط الزيتوني بدور هام في التصدي للوضع الاستعماري ومن مظاهر ذلك الموقف دور الزيتونيين من مدرسين وأعيان الشرع وأيمة وموظفين في مساندة احتجاج أهالي العاصمة ضد التراتيب البلدية الجديدة في سنة 1885 وهي القضية المعروفة **بالنازلة التونسية** وقد انتهت هذه المساندة



الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في اجتماع وطني سنة 1947



مظاهرة 9 افريل 1938



الشيخ الشاذلي ابن القاضي



الشيخ محمد الصالح النيفر

بابعاد زعماء الحركة إلى الجنوب وعزلهم من وظائفهم وكان من بينهم الزيتونيان محمد بن عثمان السنوسي وأحمد الورتتاني[1].

ومن المشائخ الزيتونيين من فضّل مغادرة الوطن والإقامة في عاصمة الخلافة العثمانية بغية المساهمة في الاحتجاج ضد انتصاب الحماية الفرنسية أمثال الشيخ صالح الشريف والشيخ إسماعيل الصفايحي[2].

ثم فيما بين الحربين أخذت روح المقاومة الزيتونية وجهًا اجتماعيا تمثل في حث الأهالي على التخلق بالاخلاق الاسلامية وترك الجلوس في المقاهي والاقلاع عن الملاهي. واشتهر أحد شيوخ الزيتونة وهو الشيخ محمد الباوندي بالحملات التي كان يقوم بها لهذا الغرض في مدن وقرى المملكة في حدود سنة 1927.

كما اتخذ النشاط الزيتوني وجها دينيا اجتماعيا حين دخلت البلاد في فطرة اتصفت باضطهاد الحركات السياسية الوطنية وتحجير كل نشاط سياسي بعد حوادث 9 افريل 1938 الدامية « فاتخذ الشعور القومي مجراه في مظاهر الحياة الدينية فاحتمى بالمساجد وتدرع برجال الوعظ والارشاد من العلماء الدينيين » كما قاله الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور[3].

ومن أهم ما أحدث في هذا المجال تأسيس **جمعية الشبان المسلمين**. وقد قامت هذه الجمعية بقيادة مؤسسها الشيخ محمد الصالح النيفر بنشاط مكثف، فنظمت مجالس التذكير في المساجد بالعاصمة وبلدان المملكة وقراها. أنشأت فروعها للمحافظة على القرآن الكريم وغير ذلك من الأنشطة التي ترمي إلى تدعيم

1) محمد السنوسي : **النازلة التونسية**، تونس، 1976 (تحقيق الصادق بسيس).

2) محمد الفاضل ابن عاشور : **تراجم الاعلام** ص 207 — 217 وارنولد غرين GREEN : **The tunisian ulama (1873 - 1915)** Brill, Leiden, 1978.

3) محمد الفاضل ابن عاشور : **الحركة الأدبية والفكرية** ص 216



الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور

أواصر الأخوة الاسلامية وإيصال الثقافة الاسلامية إلى الاهالي حتى زاد بفضلها تأثير النخبة الزيتونية على الشعب وتسبب في مزيد الاعتبار والإجلال لشيوخ جامع الزيتونة.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وانتصرت بانتصار الحلفاء مبادىء الحرية فانتشرت في البلدان المستعمرة نزعة المطالبة بالحريات وقد قام في تونس عناصر ناشطة من مدرسي الزيتونة بدور أساسي في النضال من أجل تحرير الوطن من قيد الاستعمار. وكان الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي (المتوفى سنة 1978) من أبرز زعماء هذا التيار الزيتوني المناضل يدافع من أجل مبادئه بالقلم في **المجلة الزيتونية** التي أسسها سنة 1355 ــ 1936 وبالنزول إلى الميدان بالمشاركة الفعّالة في العمل السياسي فكان من العاملين البارزين في مؤتمر « ليلة القدر » سنة 1946 الذي اجتمعت فيه كل القوى الوطنية وطالبت فيه بالاستقلال.

كما اشتهر الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي بنزعته السياسية الاسلامية العربية وبتضامنه مع القضايا العربية وبخاصة القضية الفلسطينية تضامنا فعليا. فهو المتسبب في إنشاء العريضة التي وجهها مدرسو جامع الزيتونة للباي في هذا المجال سنة 1364 ــ 1945 وهو الذي قام بحملات تنظيم وفود المتطوعين للقتال في فلسطين وجمع الأموال لإعانة المجاهدين العرب في الأرض المحتلة.

أمّا الذات البارزة الأخرى من ذوات هذا التيار الزيتوني المناضل فهو الشيخ محمد الفاضل ابن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (1909 ــ 1970) كان يمتاز هذا الشيخ باشعاع كبير تجاوز حدود إجماع الناس على مقدرته وعلمه وذكائه وتجاوز إعجاب وصبابة التلامذة والطلبة في أستاذهم الألمعي حتى بلغ درجة الشعبية الراسخة الممتدة إلى سائر الأوساط والجهات في البلاد التونسية.

ولا شك أن السبب في ذلك ــ زيادة على مكانة الشيخ الفاضل العلمية ــ راجع إلى تزعمه النزعة



الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور والزعيم النقابي فرحات حشّاد في طليعة استعراض الاتحاد العام التونسي للشغل.

التعليم الزيتوني

ووســـائل إصلاحـــه

اشترك في وضعه المدرسون الزيتونيون:
محمد المختار السلامي - الهادي حمو - محمد العروسي المطوي - البشير العريبي

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

تقديم

من مظاهر اهتمام الزيتونيين بتعليمهم وإصلاحه: دراسة قام بها أربع من شبان المدرسين في حدود سنة 1955.

الفكرية والسياسية المتمثلة في النضال من أجل تحرير البلاد إلى جانب الأطراف السياسية الأخرى مع التأكيد على ضرورة الانتماء إلى العروبة والاسلام والمساندة المطلقة للقضايا العربية وبخاصة القضية الفلسطينية.

فأصبح حينئذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ورفقاؤه يمثلون قوة سياسية قادرة على تعبئة القوى الشعبية في البلاد وبخاصة الشباب الزيتوني من أجل تلك المبادىء ويمكن لها بذلك مزاحمة القيادات السياسية.

وقد أدرك زعماء الحزب الدستوري الجديد مدى هذا الخطر فعقدوا العزم على التصدي له بوسائل مختلفة من المسايرة الظاهرية الى المناهضة العنيفة.

وظهر جليا التزام الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور من أجل هذه المبادىء في الدور الذي قام به في انعقاد مؤتمر ليلة القدر المذكور آنفا وهذا الدور الفعّال هو الذي يفسر إلقاء القبض على الشيخ محمد الفاضل من طرف السلطة الاستعمارية فازدادت شعبيته بهذا الاعتقال حتى اضطرت قيادة الحزب الدستوري الجديد إلى انتخاب الشيخين محمد الفاضل ابن عاشور ومحمد الشاذلي ابن القاضي في الديوان السياسي مدة قصيرة.

ومن مظاهر هذا النضال دور الشيخ محمد الفاضل في التوحيد بين جامعة الموظفين ـــ ومن بينهم مدرسو جامع الزيتونة ـــ ونقابات العمال، من أجل تأسيس اتحاد عام للشغل يكون تونسيا إسلاميا. وكان انتخاب الشيخ محمد الفاضل أول رئيس لهذا الاتحاد سنة 1946 دليلا على قوة التيار الزيتوني داخل المنظمة النقابية واعترافا بالجميل لما قام به الشيخ محمد الفاضل من جهد لبعث الاتحاد هذا وإن الشيخين محمد الفاضل ابن عاشور ومحمد الشاذلي ابن القاضي ومناصريهما أمثال الشيخ محمد بوشربية والشيخ الطاهر القصّار لم يقتصروا على العمل السياسي بل كان نضالهم يهدف بدرجة أساسية إلى إصلاح التعليم الزيتوني

يوم العـــروبة ...

يوم العروبة هذا عيدك الثاني * يفتر عن امل بالشعر اغراني
عنت القريض لامداح مزخرفة * ونيل زلفى وزاهي اللون رنان
وقد سموت به للروح ابسطها * خفاقة طهرت من كل ادران
(حذفت الرقابة بيتا)

هذا هو الشعر لا شعر السخافة في * ثوب المطامع في خبث وادهان
وقد هديت الى خل المدارس * رايي والهمس شجوي واحزاني
(حذفت الرقابة خمسة ابيات)

تدعو لابنائك العرب الكرام اول الـ[illegible] الغر من ابناء عدنان
ياعيد هذا مجال القول متسع * فاقل [illegible] [illegible] حر اوزاني
واسمع ابثك ما قد قيل من شجن * فالصدق في القول من ديني وايماني
قالوا بانيت بـ[illegible] * [illegible] سكونهم في ايما آن
وانهم [illegible] * [illegible] وح [illegible]
حتى اذا ما قضوا منا مآربهم * هدوا الحصون [illegible] لاركان
وارجعونا الى حال لهم عرفت * فنا [illegible] سوى جور وعدوان
(حذفت الرقابة ستة ابيات)

كذا يقولون فاسمع ما يقال ومن * منهم على حذر فالضد ضدان
ضد يحاول ان تبقى [illegible] * وهي العداوة فينا طول ازمان
(حذفت الرقابة اربعة ابيات)

اين الوعود التي غر الحسين بها * واين كان مصير الملك ذي الشان ؟
وهل جنى فيصل من بعده املا * سوى اغتيال وتسميم بلوزان ؟
اني اعيذكمو ان يستبد بكم * عصر التغفل حشوا باقلفان
وان يكونوا كمشدوهين قد فتنوا * بزخرف من خداع القول فتان
ليسوا رجالا فيوفوا بالوعود كما * وفت بها العرب في سلم واثخان

***

آمنت ان بلاد العرب سوف ترى * حزم الرشيد وعزمات ابن مروان
ووحدة الضاد تلتف العروش بها * وصولة الدين في عز وسلطان
والسفة تمشي في مناكبها * تقصي الخلاف بايلاف لتيجان
هناك ينبعث الاسلام ثانية * في الارض يهدي لارشاد واحسان
يحيى المساواة حقا والعدالة في * صدق تنزه عن زور وبهتان

***

يا عيد في عامك الماضي هنأت بك الـ[illegible] المجمع من صحب واخوان
دعوا فلبيت والفضل [illegible] لهم * في دعوتي اذ بها انطلقت وجداني
واليوم في عامك الثاني اعيد على * اسماعهم زهر آمالي وتحناني
يا عيد ابلغ عن الخضرا تحيتها * لقومك جميع من شيب وشبان
ابلغ لجامعة العرب الالى رفعوا * سماكها بين اكبار واذعان
(حذفت الرقابة خمسة ابيات)

محمد بو شربية

قصيدة للشيخ محمد بوشربية صدرت في المجلة الزيتونية عدد جانفي 1947، بعد ان حذفت منها الرقابة السياسية 21 بيتا.

وتجنيد المدرسين من أجل ذلك. فدعا هؤلاء المشائخ الرواد زملاءهم بالجامع والفروع إلى اجتماع في أكتوبر 1944 قصد النظر في عقد مؤتمر عام لإصلاح التعليم فانتخبت لجنة تنفيذية للمؤتمر تكونت من المشائخ محمد الشاذلي بن القاضي رئيسا ومحمد الصالح النيفر كاتبا عاما ومحمد الفاضل ابن عاشور والطيب التليلي ومحمد بن نية أعضاء ووزعت أعمال المؤتمر على عشر لجان ساهم في أشغالها نخبة من الأساتذة غير الزيتونيين إلى جانب المشائخ المدرسين.

وقد طالب المؤتمر بعودة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى إدارة شؤون التعليم الزيتوني وأنهوا مؤتمرهم بوضع برنامج لإصلاح هذا التعليم. وواصل هؤلاء المشائخ نضالهم من أجل تجديد الزيتونة وازدهارها وتوفير أسباب نجاحها فنظّموا المؤتمرات القومية الزيتونية وجعلوها منابر للتأكيد على ضرورة تعريب التعليم القومي وإعطائه طابعا إسلاميا قويا خصوصا لما دخلت البلاد في عهد الاستقلال الداخلي(4).

وختاما ينبغي أن نلفت انتباه القاري إلى أن هذه السطور كتبت قصد إبراز بعض الحقائق فقط لا على سبيل التعمق في دراسة الحركة الزيتونية والإحاطة بجميع جوانبها وبخاصة الصلة بين الأوساط الزيتونية والحزبين الدستوري الأول والدستوري الجديد وانتماء بعض المدرسين إلى السياسة الحزبية انتماء مطلقا. وتجدر بنا الإشارة إلى ما تقوم به حاليا مجموعة من المؤرخين التونسيين من الدراسات الجيّدة حول هذا الموضوع.

4) انظر المجلة الزيتونية المجلد التاسع.



المشاركون في المؤتمر الزيتوني الأول سنة 1937



هيئة مكتبة التلميذ الزيتوني سنة 1945. الجالسون، من اليمين إلى اليسار : الحبيب بن الخوجة، حمدة سليم، العزيز الزرّاع. الواقفون، الشاذلي تليش، محمد صنديد، محمد الامام التليلي، عبد الفتاح الاسود، أحمد القفصي.

الحركة الطلابية الزيتونية :

لا يمكن فهم نوعية الحركة الطلابية الزيتونية بدون مراعاة أمرين هامين اتصف بهما الواقع الطلابي منذ ظهور القرن العشرين. الأمر الأول هو وعي طلبة الزيتونة بانحطاط التعليم وضرورة إصلاحه. أمّا الأمر الثاني فيتمثل في شعور هؤلاء الطلبة بصعوبة مستقبلهم وبكثرة العراقيل التي تنتظرهم عند دخولهم في معترك الحياة بسبب الميز في انتداب الموظفين من قِبل الإدارة العامة ومعظم المؤسسات ميزا يفيد أصحاب الشهادات المدرسية ويجحف حاملي الشهادات الزيتونية.

وقد ازداد هذا الشعور بل هذه الحيرة تفاقما طيلة النصف الأول للقرن العشرين بحيث إن جميع المواقف والاحتجاجات الطلابية الزيتونية كانت رغم اختلاف مظاهرها وأسبابها تمت في الوقت نفسه بصلة عضوية إلى تلكم الحيرة الراسخة في أذهان الشباب الزيتوني. وأبرز دليل على ذلك هو الاهتمام الفائق بالناحية الثقافية الذي اتصف به النضال السياسي الزيتوني من أجل تحرير تونس وقد تجسم هذا الاهتمام في مشروع تعليمي وجامعي شامل أساسه الثقافة العربية الاسلامية.

أهم مراحل الحركة الطلابية[5] — 1910 : قام في تلك السنة تلامذة جامع الزيتونة وعلى رأسهم الطالب إبراهيم بن شعبان بتحرير مكتوب يتضمن مطالبهم بشأن إصلاح التعليم وتعصيره وتحسين ظروف

5) محمد عبد المولى : **الجامعة الزيتونية والمجتمع التونسي**، تونس 1971 (بالفرنسية). ارنولد غرين : **علماء تونس**... علي الزيدي : **تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية**، تونس 1986. المختار العياشي : « الحزب الدستوري الجديد والطلبة الزيتونيين من التحالف الى المواجهة » **البرنامج القومي لتاريخ الحركة القومية** ماي 1989.

المشائخ المتطوعون بالجامع الاعظم

وعريضتهم للحضرة العلية

بعد الابتهال . الى العزيز ذي الجلال . بدوام العز والبقاء الى الحضرة الشامخة السنية . واظهار اوثق شواهد الاخلاص الى السدة العلية الملوكية . فان ابنـاءكم الابرار من متطوعي الجامع الاعظم المنقطعين لاقراء الدروس العلميه به حرصا على افادة الناشئة وترقية مداركها وسعيا وراء اعلاء منار الدين واللغة العربية يقـدمون لحضرتكم السامية هاته العريضة المعربة عن رغائبهم موءملين ان تنال من عنايتكم الملوكية وعطفكم الابوي ما يبشرهم باستقبال عصر جديد زاهر .

(١) انتخاب أقصى عدد مناسب للظروف الحالية من بينهم بصفة مدرسين رسميين على ان يكون انتخابهم بواسطة المنـاظرة .

(٢) تخصيص اعانة قارة ومناسبة لمجهوداتهم العلمية يتقاضاهـا من بقي منهم بعـد تعيين المدرسين المتقدم ذكرهم كل على نسبة حالته في المواظبة والافادة والاجتهاد .

(٣) تعجيل اعانة وقتية لكل منهم لتكون عنايتكم شاملة لكل الاساتذة الزيتونيين بهاته المناسبة الميمونة ودمتم محفوفين بعين الرعاية الربانية والعناية الصمدانيـة والسلام عليكـم ورحمة الله وبركاته من ابنائكم الداعين لـكم بدوام العز وطول البقاء   امضاءات ٥٠

من جريدة النهضة، الصفحة الأولى
تونس يوم السبت في 15 شوال 1345
وفي 16 أفريل 1927

الإقامة بمدارس سكنى الطلبة فبادرت الحكومة بإحداث لجنة لإصلاح التعليم الزيتوني ولكن أعمال هذه اللجنة لم تأت بنتيجة فعند ذلك قرر التلامذة الإضراب عن الدروس وهو أول إضراب عرفته الزيتونة دام من 16 الى 18 أفريل 1910.

— 1912 — 1920 : اتصفت الحركة الطلابية في تلك المدة بالهدوء نظرا للظروف السياسية الداخلية والدولية (حالة الحصار إثر حوادث الزلاج ثم اندلاع الحرب العالمية).

— مارس 1920 : مظاهرة طلبة الزيتونة أمام قصر المقيم العام الفرنسي بتونس احتجاجا على احتلال استانبول عاصمة الخلافة العثمانية من طرف جيوش الحلفاء.

— ديسمبر 1928 — جانفي 1929 : اعتصاب طلبة الجامع احتجاجا على صدور الترتيب المتعلق بالنظام الجديد لمهنة الإشهاد في الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه نظاما جديدا للتعليم الزيتوني يخفف من شدة النظام القائم ويتماشى مع متطلبات العصر.

— 1930 — 1932 : قام طلبة الجامع في تلك المدة التي اشتدت فيها المعركة بين المحافظين والإصلاحيين بالمظاهرات والإضرابات من أجل إصلاح التعليم وقد تشكلت هيئة لقيادة حركتهم باسم « لجنة الطلبة ».

— 1933 : احتجاجات وإضرابات طلابية أثناء قضية مشروع فتوى التجنيس.

— 1935 — 1937 : تميزت هذه المدة بتسلسل الاحتجاجات الطلابية من مظاهرات وتحرير اللائحات والاضرابات بسبب عجز إدارة مشيخة الجامع على القيام بالاصلاحات المطلوبة كما نظم طلبة الزيتونة المؤتمر الزيتوني الأول سنة 1937 وقرر الحاضرون جملة من المطالب الإصلاحية وقد كلف هذا النضال طلبة الزيتونة الرفت والإبعاد والسجن.

ــ 9 أفريل 1938 : ساهم طلبة الزيتونة مساهمة مجيدة في مظاهرات ذلك اليوم واستشهد عدد كبير منهم برصاص القوات الاستعمارية.

ــ 1940 ــ 1947 : اتصفت هذه المرحلة من الحركة الطلابية بإحداث الجمعيات الثقافية والودادية نذكر منها **مكتبة التلميذ الزيتوني** التي أسسها جمع من الطلبة (حمدة سليم، العزيز الزراع، محمد الحبيب بن الخوجة، محمد صنديد...) سنة 1363 ــ 1944 و**جمعية التوادد الزيتوني** التي انقلب اسمها بعد ذلك إلى اسم **جمعية الإخوان الزيتونيين** وقد أحدثت سنة 1364 ــ 1945 برئاسة الشاب أحمد القروي أحد تلامذة الجامع وكذلك **جمعية الشبيبة الزيتونية**.

وأخذت هذه الجمعيات تعمل في تنظيم الطلبة وابتكار الوسائل لترقية مستواهم الأدبي وتنمية مظاهر وجودهم الاجتماعي كما سعت إلى توطيد صلة الزيتونيين بإخوانهم العرب فنظمت جمعية الأخوان الزيتونيين مهرجان **عيد العروبة** بمناسبة تأسيس جامعة الدول العربية سنة 1947 والذكرى الأولى لتأسيسها في السنة الموالية.

ــ 1947 ــ 1956 : اتصفت هذه المدة بارتقاء الحركة الطلابية الزيتونية ارتقاء بلغ بها إلى مرتبة قوة وطنية مستقلة قادرة على مزاحمة الحزب الدستوري الجديد وهو أقوى المنظمات السياسية القائمة بالكفاح من أجل تحرير البلاد.

وقد بدأت هذه القوة تنمو سنة 1945 بإحداث هيئة للحركة الطلابية أطلق عليها اسم **جامعة الجمعيات الزيتونية** (أحمد الزغل، محمد البدوي...) تهدف إلى توحيد الصفوف والتنسيق بين الجامعات الزيتونية المنتشرة في داخل البلاد. وكان الدافع الأساسي لذلك هو مساندة المشائخ المدرسين أصحاب المشروع الاصلاحي. وفي سنة 1947 تأسست **لجنة الدفاع عن مصالح الطلبة والشباب الزيتوني** (محمد البدوي، عبد الرحمان الهيلة، الصغير الشابي، عبد العزيز بورعوشة...) التي أخذت تطالب بضرورة إصلاح التعليم الزيتوني وإحداث المناصرة للتحصيل على المناصب الشرعية في داخل المملكة كما سعت لتنظيم هياكل الحركة على المستوى الجهوي والقومي وانتخب طلبة الجامع وفروعه نوابهم في الهيكل الأعلى لهذه المؤسسة الذي أطلق عليه اسم **البرلمان الزيتوني** وفي سنة 1950 أعلن البرلمان الزيتوني إثر اجتماع التأم بالجامع الأعظم على الدستور الزيتوني الجامع المحتوي على 16 بندا وهي الآتية :

1 ــ تنفيذ تنظير شهادات الكلية الزيتونية بشهادات الكليات الأخرى المماثلة لها في الرتبة والدرجة تنظيرا رسميا وعمليا من طرف الحكومة ووفقا لما جاء في الأمر العلي الصادر في 6 جوان 1947.

2 ــ جعل مواد الامتحان في المناظرات الإدارية باللغة العربية.

3 ــ إلغاء التكليف الذي أصبح كخطة رابعة من خطط التعليم بالجامع وذلك بعد تعويضه بفتح مناظرات التدريس. ولا يكون التكليف إلا لسد شغور طارىء بسبب تغيب أساتذة رسميين.

4 ــ التوسع في العلوم الرياضية والطبيعية بالتعليم الزيتوني الثانوي بالجامع الذي ينتهي بشهادة التحصيل حتى يصل إلى مستوى الجزء الثاني من الباكالوريا وبذلك يصبح التعليم الثانوي بالجامع تعليما تجهيزيا يؤهل حامل التحصيل لمتابعة التعليم العالي بأية جامعة في الخارج سواء في الشرق أو الغرب وفي أية ناحية من نواحي التعليم العالي.

5 ــ المطالبة بالتخصيص الجزئي في العلوم والرياضيات بعد شهادة الأهلية، وذلك بإيجاد شعبتين، أحدهما للعلوم الرياضية وثانيهما للعلوم العربية الاخرى؛ وأن يقع التخصيص الكلي بعد شهادة التحصيل، وذلك بإيجاد كليات لفنون مختلفة مثل كلية أصول الدين وكلية الفلسفة وكلية الآداب وكلية التاريخ والجغرافيا وكلية الرياضيات إلى غير ذلك.

6 ــ فتح أبواب الشرق والغرب أمام طلبة الجامع المحرزين على شهادة التحصيل لمتابعة التعليم هناك.

7 ــ جلب أساتذة اختصاصيين من الخارج للقيام بالتدريس في الكليات المحدثة ريثما تتم البعثة تعليمها.



صوت الطالب الزيتوني

الزيتونية سائرة نحو غايتها المنشودة يحدوها الاخلاص والثبات

مبدأ والايمان بالحق رغم انف كل معاند جبار.

٨٠٠٠ طالب يتظاهرون

الماضي المجيد

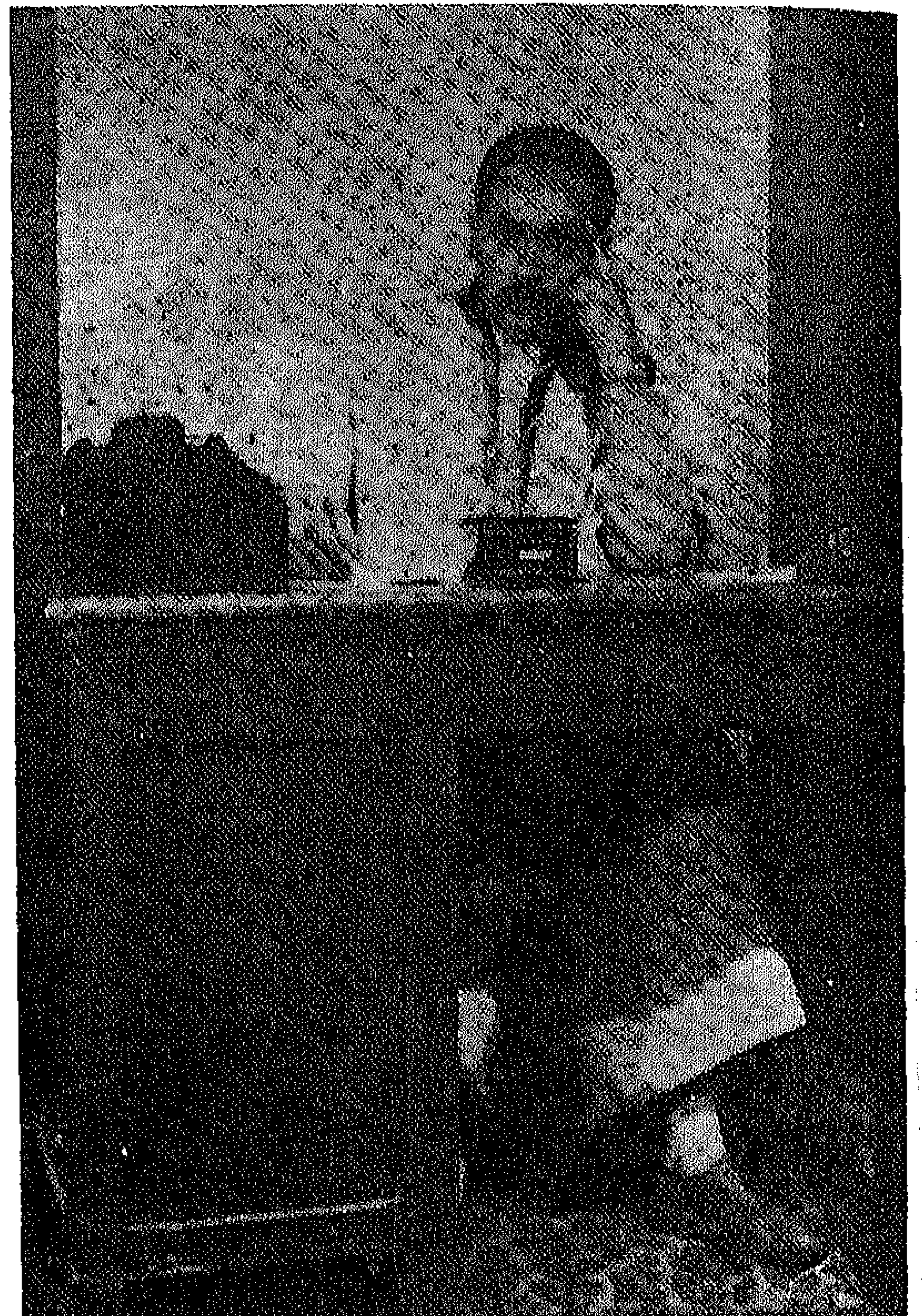


الشباب الزيتوني يعلن اعتصاب الجوع الدائم حتى تحقق رغائبه أو يموت دونها

اين انت يا وزارة التفاوض هل هذا هو الغرض الذي شكلت

صوت الطالب الزيتوني

نماذج من الشعارات المرفوعة



محمد البدوي

8 ــ تنظيم بعثات من حَمَلة التحصيل لمتابعة التعليم بالخارج على نفقة الحكومة والمطالبة بتخصيص اعتمادات مالية لتكون قروضا شرفية لطلبة التعليم العالي.

9 ــ المطالبة بإعطاء الحق لكل متحصل على شهادة العالمية أن يباشر التعليم بالمدارس الثانوية الدولية بدون مناظرة.

10 ــ العمل على إقامة معاهد كبرى ينتقل إليها التعليم ويخصص الجامع الأعظم بالعلوم الدينية.

11 ــ إيجاد مخبر عصري لدروس الكيمياء وتجهيزه بجميع الأدوات اللازمة.

12 ــ رصد اعتماد مالي للمطاعم الزيتونية حتى يستطيع عموم الطلبة أن يطعموا بأثمان مناسبة.

13 ــ المطالبة بإدخال اللغات الأجنبية في برامج التعليم.

14 ــ الزيادة في عدد المدرسين كل عام بحسب ازدياد الطلبة.

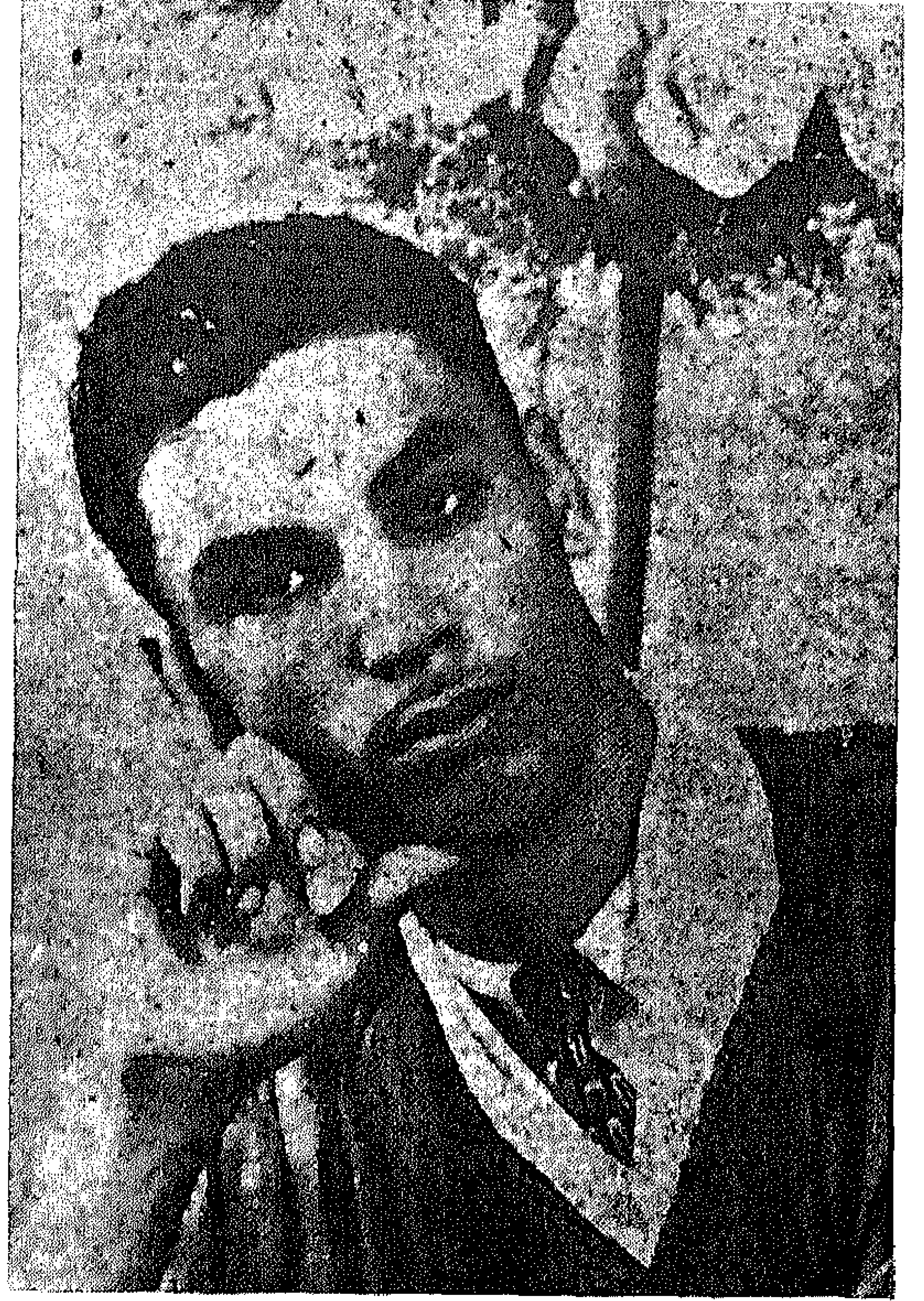
15 ــ تحديد طلبة كل قسم تحديدا لا يتجاوز الثلاثين طالبا حتى يتسنى الفهم والإفهام.

16 ــ المطالبة بفتح صندوق التقاعد بالجامع وأن يكون ذلك بصفة إجبارية.

كما انتخب البرلمان الزيتوني لجنة مركزية لقيادة الحركة أطلق عليها اسم **لجنة صوت الطالب الزيتوني** برئاسة محمد البدوي ومن أعضاء اللجنة : عبد العزيز العكرمي، والحبيب نويرة وعبد الكريم قمحة وعبد الرحمان الهيلة والعجمي السائب وعمر شاشية وأحمد قاسم ومحمد تريمش والصادق حمودة والحبيب بوزواش واثنان من الطلبة الجزائريين الزيتونيين.

وأمام عدم التفات الحكومة إلى مطالب الزيتونيين قرر الطلبة إضرابا لا نهائيا في شهر أفريل 1950 دام عاما كاملا.

وقد أصدرت لجنة صوت الطالب في أوت 1950 نشرية تحمل نفس الاسم للدفاع عن قضيتها والتعريف بمواقفها.



الطالب محمد الدهماني حمزة الذي استشهد في مظاهرة 5 مارس 1954



الطالب محمد المرزوقي الذي استشهد في مظاهرة 5 مارس 1954

أما الصراع بين لجنة صوت الطالب والحزب الدستوري الجديد فقد ظهرت بوادره بمناسبة اجتماع ممثلي المنظمات السياسية الوطنية بجامع الزيتونة في 20 و 21 و 22 افريل 1950 لتأييد وتشجيع الطلبة القائمين بإضراب الجوع الذي تقرّر شنّه في نطاق الإضراب اللانهائي. وذلك لمّا صرّح محمد البدوي باسم لجنة صوت الطالب برفض الحركة الطلابية الخضوع إلى أية منظمة سياسية، معلنا عزم اللجنة على الدفاع على كيانها وحرية تصرفها والتصدّي بدون هوادة لكل المساعي الرامية للنيل من استقلال الحركة الطلابية لفائدة حزب أو شخصية. وكان ذلك ردّا على ما صرّح به الزعيم صالح بن يوسف في تلك المناسبة من أنّ الحركة الطلابية ليست إلّا خلية من خلايا النضال السياسي الوطني. وقد تفاقم هذا الصراع في أوت 1950 عند تشكيل وزارة محمد شنيق ومشاركة بعض زعماء الحزب ومنهم صالح بن يوسف فيها، وإصرار الطلبة على مواصلة نضالهم في سبيل تحقيق مطالبهم. فأثار ذلك غضب القيادة الحزبية التي كانت تنادي وقتئذ بإخماد الاحتجاجات الوطنية والحرص على استقرار الهدوء حتى تتوفر لسياستها التفاوضية أسباب النجاح وأمام هذا الوضع بادر الحزب بالتصدي لتلك القوة غير الخاضعة لتوجيهاته وأوامره والتي بدأت تقترب فكريا وسياسيا من منافسه الحزب الدستوري الأول (أو القديم). فشنّ الحزب الدستوري الجديد في صحفه ومناشيره الهجومات العنيفة والاتهامات الباطلة ضد زعماء الحركة الطلابية وسعى الحزب إلى توفير أسباب التفرقة في صفوف حركة صوت الطالب حتى آل ذلك إلى خروج العديد من مناضليها وانتظامهم سنة 1951 في جمعية خاضعة للحزب الدستوري الجديد أطلق عليه اسم « **كتلة الدفاع عن المطالب الزيتونية** » كما استعمل الحزب وسائل الإرهاب بشن الهجومات على مدارس سكنى الطلبة والاعتداء بمختلف أنواع العنف.

إلّا ان تلك الأساليب لم تُفْضِ إلى تحقيق النتيجة المطلوبة أي القضاء على الحركة الطلابية الزيتونية المستقلة بل استمرت **لجنة صوت الطالب** في الدفاع على هويتها ومبادئها الفكرية والتعليمية.

أمّا الضربة القاضية فقد جاءت سنة 1955 بسبب مساندة لجنة صوت الطالب لموقف صالح بن يوسف (عدوها بالأمس) الذي كان لا يرى قبول الاستقلال الداخلي، وما ترتب عنها من نمو التحالف بين

نداء الى الامة التونسية

الله اكبـــر

ايها الشعب التونسي المسلم

ان فلذات اكبادك ابناءك الابرار الذين استبشرت خيرا بنجاح مطالبهم وبعودتهم الى دروسهم وكلهم امل وكلهم عزم قد مسهم اليوم ضرر فادح اذ ان بعض الايادي الاثيمة من ذوي النوايا السيئة ارادت ان تكبهم في راس حركتهم التقدمية وربان سفينتهم بفصل شيخ جامعتهم عنهم تلك الشخصية التي اقر لها العالم الاسلامي كله بالحنكة والعلم وحسن التدبير،

الله والامة التونسية والشباب الزيتوني يعلمون ان هؤلاء العابثين يقصدون من وراء صنيعهم هذا القضاء على المطالب الزيتونية كي تبقى الثقافة الاسلامية في سبات وتأخر، والغاية من هذا الاجراء محاولة عرقلة تنفيذ بنود الاصلاح بواسطة الخلف الجديد،

وهكذا تحرم الامة التونسية من ثمرة جهاد مرير طويل قصدت به النهوض بثقافتها الاسلامية العربية ورفع مستوى تفكير ابنائها المخلصين الذين تعدهم لمستقبلها الباسم اما نحن شباب الزيتونة فبفضل نصرة الله لنا وعطف ملكنا المفدى وامتنا العزيزة فاننا مصممون على الاستماتة في الدفاع عن حقوقنا التي هي حقوق الامة المحمدية باسرها كلفنا ذلك ما كلفنا من تضحيات عظمى لم نبخل بها في الماضي ولن نحجم عنها في المستقبل حتى ينصرنا الله بنصره العزيز

ولهذا ندعو الامة التونسية ان ترد معنا هذا العدوان الفضيع على معقل الثقافة الاسلامية وكعبة البلاد الافريقية والسلام

لجنة صوت الطلب الزيتوني



هؤلاء أشبال الزيتونة الذين آمنوا بحقهم في الحياة

صوت الطالب



مظاهرة زيتونية



مظاهرة الطلبة الزيتونيين بمناسبة وضع الحجر الأساسي للجامعة الزيتونية 1954

الحركة الطلابية الزيتونية والشق اليوسفي للحزب فلما انهزم صالح بن يوسف وأنصاره انهزمت لجنة صوت الطالب الزيتوني معهم.

ومما لا يجوز نسيانه في ختام هذا الحديث الموجز عن الحركة الطلابية تضحيات الشباب الزيتوني من أجل إصلاح وتعصير تعليمهم العربي الاسلامي واستشهاد العديد منهم في الكفاح من أجل تحرير الوطن ومستقبل أفضل لأبناء تونس ناهيك بشهداء 9 افريل 1938 ومظاهرة 15 مارس 1954 التي مات أثناءها برصاص الاستعمار محمد الدهماني حمزة ومحمد بن بلقاسم المرزوقي وابراهيم بن علي ومحمد المنتي وطالبان آخران.

كما ينبغي أن نحيّي هنا مثابرة بعض زعماء الحركة الطلّابية الزيتونية في الحفاظ على حرية تفكيرهم السياسي والثقافي وشجاعتهم في الدفاع عن مبادئهم ونخص بالذكر منهم محمد البدوي والمرحوم عبد العزيز العكرمي.

فهرس المواد

ثبت الصور والوثائق

مجموعة المؤلف : 34، 57، 66، 67، 68، 72، 77، 78، 84، 89، 92، 98، 101، 112، 116، 118، 119، 120، 121، 122، 125، 127، 128، 129، 138–139، 142، 147.

مجموعة المنعم الشيخ مصطفى محسن: 56، 58، 61، 65، 66، 69، 71، 74، 75، 76، 78، 117، 122.

مجموعة المعهد القومي للآثار والفنون: 12، 14، 15، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 27، 28، 31، 32، 33، 35، 36، 37، 55، 61، 88، 95.

مجموعة المنعم الشيخ أحمد بن ميلاد: 94، 109، 125، 141.

مجموعة الشيخ محمد البدوي: 136، 147.

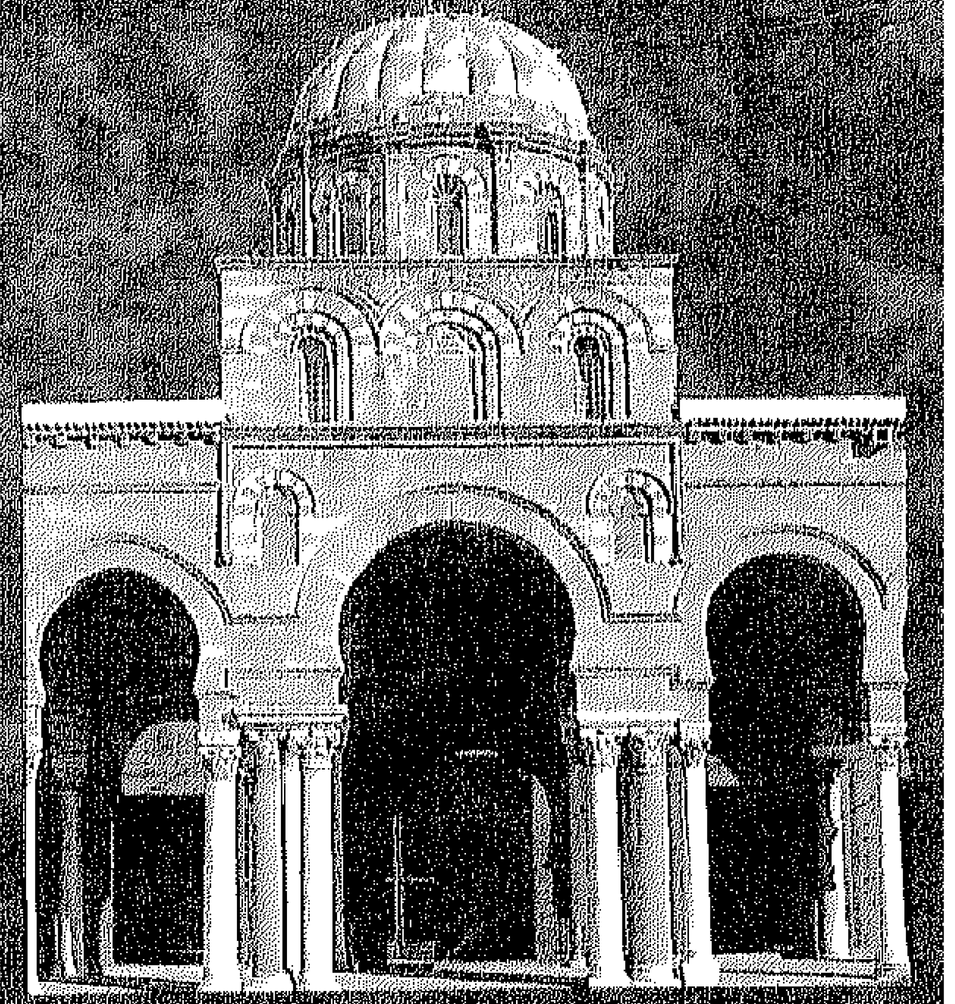
مجموعة السيد محمد إدريس: 68.

مجموعة جاك بيريز: الغلاف و8.

مجموعة الأرشيف الوطنية: 102، 105، 110.

تم طبع هذا الكتاب بالمطابع الموحدة
6، نهج عبد الرحمان عزام — تونس 1002
نوفمبر 1991

يحتوي هذا الكتاب على دراسة شاملة معززة بالصورة النادرة والوثائق التاريخية لمعلم من أهمّ معالم الاسلام وهو جامع تونس الأعظم جامع الزيتونة، من تاريخ تأسيسه إلى اليوم الحاضر.



وقد اعتنت هذه الدراسة بالجوانب التالية :

- الخاصيات المعمارية للجامع وتطوّرها عبر العصور.
- تاريخ إقامة الشعائر بجامع الزيتونة وتراجم الأيمّة ووصف المراسم والمواكب الخاصة بهذا المعلم الديني المجيد مع إبراز جوانب مهمّة من الحياة اليومية وذكر موارد الجامع وأوقافه ومصاريفه.
- تاريخ المعهد العلمي الزيتوني وتطوّر التراتيب المتعلّقة بالتعليم وأساليبه.

وقد اعتنت الدراسة بوصف أوساط المدرّسين والطلبة وذكر ظروف عيشهم واهتماماتهم، خصوصا في الأعصر الحديثة.

- إسهام الجامع ورجالاته في تعزيز وازدهار الحضارة الاسلامية والعربية بالديار التونسية.
- إبراز أهمّ مراحل الحركة الزيتونية ونضال الشيوخ والطلبة من أجل تعصير طرق التعليم الاسلامي والعربي ومقاومة الاستعمار.

محمّد العزيز ابن عاشور : أستاذ بحوث بالمعهد القومي للآثار والفنون، مختص في تاريخ العاصمة التونسية وتراثها الثقافي ومجتمعها.

حامل دكتوراه في تاريخ الحضارة الاسلامية ودكتوراه الدولة في الآداب والعلوم الانسانية من جامعة الصربون، فرنسا.

أحرز سنة **1980** على جائزة الآغا خان للتراث المعماري الاسلامي.

وهو حفيد العلامة الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور.

Mosquée Zitouna

N° d'éditeur 01-0136
ISBN9973-700-32-5